

محاضرات الموسم الثقافي

لعام ١٤٠٤ / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ / ١٩٨٥ م

دولة الإمارات العربية المتحدة - وزارة الإعلام والثقافة - الإدارة الثقافية





لعام ١٤٠٤ / ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ / ١٩٨٥ م

الادارة الثقافية - وزارة الاعلام والثقافة

دولة الامارات العربية المتحدة


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اتسع عالم المعرفة اتساعا مذهلاً ، وانشعبت دروبه ، وتشابكت خيوطه ، وتقاطعت اتجاهاته ، حتى اصبحت فيه الاحاطة حلما ، واصبح الالمام وهما .

ونتج عن ذلك ان تعددت مناهل الثقافة ، وتمردت على الحصر مشاربها ، واضحى طالب الثقافة والمعرفة شأنه شأن النحلة التي ينبغي لها أن ترحل بين الازهار طائفة راشفة ، حتى تستطيع ان تبدع قطرة من العسل .

وهكذا اضحت لاهلها الثقافة هما ماثلا ، ودربا ممتدا في جوف الزمان والمكان .

ومن هنا كان لابد لوزارة الاعلام والثقافة من تنويع محاضراتها لتشمل شجونا من المعرفة ،وتنويع منابت محاضريها لتضم باقة من ورود البساتين ، تبوح بفوحها العابق باريج المعرفة .

أما كتابنا هذا فعلى صفحاته آفاق والوان ندعو القارىء الكريم إلى تأملها والنظر فيها ، فهي حصائل اذهان اعملت ، وجهود بذلت من اساتذة ومفكرين اجلاء ، قدموا لنا ثمار عقولهم غذاء وشرابا سائغين ، ففيه الشعر والادب ، وفيه العقل والنقل ، وفيه السياسة ، وفيه النظرات الفلسفية والتطبيقية .

وقد تميز كثير من هذه المحاضرات بالجدة في موضوعها ومبحثها ، وفي ابعاد دلالاتها ، وفي اهمية ما يتكشف من أمور على اضوائها ، ومن ذلك محاضرة (الاصول التاريخية للعلاقات العربية المشرقية المغربية في العصر الحديث) التي تناولت رحلة الحج السنوية إلى الحجاز عبر مصر ، وما

احاط بها عبر العصور ، وما نجم عنها من تفاعلات بشرية وعلمية ، وما تمخض عنها من احداث عملية ذات ابعاد واتجاهات متعددة ، تدعو إلى التأمل والتدبر ، وتلح على الذهن ليقارنها بالحاضر العربي .

ومن ذلك محاضرة (الاسلام وحقوق الانسان) التي تحدثت عن اعلانات حقوق الانسان الدولية ، وفحصها على ضوء المفاهيم الاسلامية . وغيرهما مما يجمع هذا الكتاب بين دفتيه .

والله من وراء القصد

وزارة الاعلام والثقافة



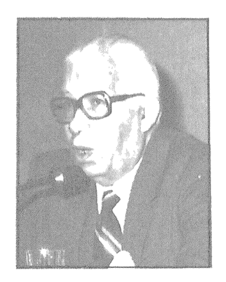
صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

المحتويات

المحاضرة الأولى

الإسلام وحقوق الإنسان



للدكتور / عصمت سيف الدولة





الدكتور عصمت سيف الدولة

● من مواليد ١٩٢٣/٨/٢٠ بقرية الهمامية مركز البداري محافظة اسيوط جمهورية مصر العربية.

● انهى الدراسة الابتدائية والثانوية في اسيوط عام ١٩٤٢.

- حصل على درجة الليسانس من كلية الحقوق جامعة القاهرة (فؤاد الاول) عام ١٩٤٦.
- دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد السياسي جامعة القاهرة ١٩٥١.
- دبلوم الدراسات العليا في القانون جامعة القاهرة ١٩٥٢.
- دبلوم الدراسات العليا في القانون الخاص - جامعة باريس ١٩٥٦.
- دكتوراه الدولة في القانون بامتياز - جامعة باريس عام ١٩٥٧.
- اشتغل بالمحاماة في القاهرة اعتبارا من ١٩٤٦.
- له سجل وطني حافل بالكفاح الوطني والدفاع عن المضطهدين والمسجونين السياسيين.

● أهم مؤلفاته:

- دردشة مع العمال والفلاحين ١٩٦٣.
- اسس الاشتراكية العربية ١٩٦٥.
- اسس الوحدة العربية ١٩٦٦.
- الطريق إلى الوحدة العربية ١٩٦٧.
- الطريق إلى الاشتراكية العربية ١٩٦٨.
- الطريق إلى الديمقراطية ١٩٧٠.
- النظام النيابي ومشكلة الديمقراطية ١٩٧٤.
- التقدم على الطريق المسدود: رؤية قومية لمشكلة فلسطين ١٩٧٦.
- هذا الاعتراف المستحيل ١٩٨٣.
- الاسلام والعروبة.
- بالاضافة إلى عشرات المقالات والابحاث في الصحف المصرية والعربية.

● أهم المؤتمرات والندوات التي شارك فيها.

- ندوة اذاعة الديمقراطية في الوطن العربي - ليماسول - قبرص نوفمبر ١٩٨٣.

الإسلام وحقوق الإنسان
التعارض والتوافق

١ ـ يجب أن اعترف بانني لست من أنصار الاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي اصدرته هيئة الأمم المتحدة يوم ١٠ ديسمبر ١٩٤٨. لا ولم أكن في أي يوم من المعجبين باعلانات حقوق الانسان منذ العصر الكبير (١٢١٥) وبيان الحقوق (١٦٢٧) وقائمة الحقوق (١٦٨٨) في انجلترا، ودستور ولاية فرجينيا (١٧٧٦) واعلان استقلال امريكا (١٧٧٦) في الولايات المتحدة الامريكية، واعلان حقوق الانسان والمواطن (١٧٧٩) واعلان السنة الثالثة (١٧٩٣) والاعلان المعدل (١٨٤٨) في فرنسا، ولا بما تلا ذلك من اعلانات بلغت حتى الآن اكثر من خمسين اعلانا وميثاقا واتفاقا وتوافقا...

ويرجع ذلك إلى اسباب استطيع أن اقول انها «اسباب عربية».

فقد علمنا تاريخنا العربي الحذر من الكلمات الكبيرة.. النبيلة، حين عرفنا من واقع تاريخنا كيف تتحول الكلمات الكبيرة إلى كلمات كبائر. التجزئة باسم الاستقلال. اجتثاث جذور حضارتنا باسم المعاصرة. الخيانة باسم العقلانية. الاستسلام باسم السلام. الكهانة باسم الدين. الاستبداد الغشوم والتعذيب الوحشي باسم الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي.

لا يشك أحد، ولا نحن نشك، في نبل كلمات الاستقلال والمعاصرة، والعقلانية، والسلام والدين، والوحدة الوطنية، والسلام الاجتماعي مجردة وطالما هي مجردة، أما حظها من النبل أو الخبث فمتوقف على معرفة من قالها، ومتى قالها، وأين قالها، ولماذا قالها..

فنحن لا نستطيع أن ننسى ان أصحاب اعلان حقوق الانسان والمواطن الفرنسي هم الذين لم يلبثوا ـ قبل ان يجف حبر اعلانهم.. ان أعدوا العدة وارسلوا قواتهم بقيادة فتاهم نابليون ليحتل مصر. ولا ننسى ان الأمم المتحدة

قد أصدرت الاعلان العالمي لحقوق الانسان في ذات العام الذي اعترفت به بدولة الصهاينة التي اغتصبت فلسطين وسلبت الشعب العربي فيها كل حق مما ورد في الاعلان حتى حق الحياة . ولا ننسى انها ارادت أن تحرمهم من استرداد حقوقهم ففشلت كل الجهود التي بذلتها الدول لاقناع الولايات المتحدة الامريكية بأن يتضمن الاعلان العالمي لحقوق الانسان ، حقوق الشعوب في تقرير مصيرها فصدر خاليا منها . ونحن لا ننسى انه حينما اعلن كارتر رئيس الولايات المتحدة ان دولته ستتعامل مع كل دولة طبقا لموقفها من حقوق الانسان ، لم يكن يفكر الا في حقوق الانسان الاوروبي في بولندا ، أما نحن العرب فقد كان يقود المؤامرة التي انتهت بفرض اتفاقية كامب ديفيد علينا ، والزامنا الزاما ، لاحق لنا في الرجوع عنه ، بان نكون أصدقاء الصهاينة وذلك بنصوص صريحة في الاتفاقية ، ونحن ـ في مصر ـ لا ننسى انه بعد توقيع الاتفاقية ، والتصديق عليها من مجلس الشعب ، اراد السادات أن يسندها إلى ارادة الشعب ففرضها على الاستفتاء الشعبي ، ولكن مقرونة بموضوع آخر هو أصدار ميثاق حقوق الانسان المصري . وكان على الشعب ان يجيب بنعم أو لا على الأمرين معاً . وقيل ان الشعب قد وافق بما يشبه الاجماع . ولكن احدا لم يقل هل وافق لانه رأى انه لو ردّت اليه حقوق الانسان سيكون قادرا على الغاء الاتفاقية أم وافق لأنه يعتبر الصلح مع الصهاينة من حقوق الانسان المصري . الثابت بدون قول هو أن ميثاق حقوق الانسان المصري كان غطاء نبيلاً لتمرير اتفاقية خبيثة .

نحن لا نستطيع ان ننسى هذا ، وغيره ، فنحذر ونُحذر .

٢ ـ هذا من ناحية ، ولكن من ناحية اخرى ، نحن نقرأ من بين ماجاء في الاعلان العالمي لحقوق الانسان ان لكل انسان الحق في العمل (المادة ٢٣ فقرة ١) ولكل انسان الحق في الحماية من البطالة (المادة ٢٣ فقرة٢) وان لكل انسان الحق في اجر متساوٍ للعمل يكفل له ولاسرته عيشة لائقة بكرامة الانسان ويحقق له ولاسرته مستوى من المعيشة كافيا للمحافظة على الصحة والرفاهية من تغذية وملبس ومسكن وعناية طبية (المادة ٢٥)، وان لكل

انسان الحق في التكلم (المادة ٢٦)... إلى آخره،

فكأننا نقرأ اعلانا باحلام الملايين من العرب افرادا واسراً من الفقراء العاطلين الاذلاء المرضى الأميين المشردين.

ثم نقرأ في الاعلان العالمي لحقوق الانسان ان لكل انسان حرية التفكير (المادة ١٨) وابداء الرأي والتعبير بدون تدخل (المادة ١٨) والاشتراك في الجمعيات والجماعات (المادة ٢٠) وان لكل انسان حقاً في الاشتراك في إدارة الشئون العامة لبلاده (المادة ٢١) وفي المساواة أمام القانون (المادة ٦) وفي الحياة والحرية وسلامة شخصه (المادة ٣) فلا يعرض للتعذيب ولا للعقوبات او المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة لكرامته (المادة ٥)... الخ.

فكأننا نقرأ اعلانا باحلام مئات الالوف من المضطهدين المعذبين في الارض العربية.

فكيف نجرؤ على أن نُحذر او نَحْذَرَ من السير على طريق تحقيق احلام شعبنا، وممَ نحذر، ولماذا نثير بالحذر او التحذير الوهن في عزم المناضلين العرب من اجل حقوق الانسان العربي؟

٣ ـ لاننا في الواقع نريد لشعبنا العربي، ونتمنى له ان يقطع الطريق ويصل سالماً إلى حيث يتملك حقوقه كانسان عربي. لا نريد له ان يتشوه وهو في طريقه ولا نتمنى له أن يكون شائها وقد تملك حقوقه. لا نريد له ولا نتمنى، ان يتوه في الطريق فيفقد هويته العربية وهو يبحث عن حقوق الانسان، لا ولا نريد له ان ينحرف عن الطريق أو ان ينزلق عليها او يتردى دون غايته. اننا لا نصد أحداً يدب أو يمشي، أو يهرول، او يجري على الطريق إلى حقوق الانسان، ولكنا نقيم على جانبي الطريق اشارات المرور. وكلها كما نعلم جميعا مقامة للحفاظ على سلامة السائر والسير والمسيرة.

٤ ـ من أين نجيء باشارات المرور هذه؟ من ذات انفسنا. من حضارتنا العربية التي انشأت الهيكل الاساسي لشخصيتنا القومية. من الاسلام حيث نحن أمة انشأها ونماها واكمل تكوينها الاسلام عقيدة وشريعة وآداباً فقامت حضارتها على اركانه. من هنا لا نريد لحقوق الانسان، ولا لما هو مثلها نبلا

من الكلمات، أن تجرنا على طريق نبدأه عربا وننتهي منه إلى متاهات الاغتراب.

ما هي هذه الاشارات؟

٥ ـ الاشارة الاولى: انتبه إلى مفهوم الحق

ففي بداية الاعلان العالمي لحقوق الانسان يقول إن حقوق الانسان هذه غاية يسعى كل فرد وهيئة ومجتمع إلى توطيد احترامها عن طريق التعليم والتربية واتخاذ اجراءات مطردة لضمان الاعتراف بها (المقدمة). اذن، فحقوق الانسان هذه اولها وعد وآخرها اعتراف، ويضيف الاعلان العالمي لحقوق الانسان في نهايته ان الانسان لا يخضع في ممارسة حقوقه وحرياته الا لتلك القيود التي يقررها القانون ومقتضيات العدالة والنظام العام والمصلحة العامة (المادة ٢٩). اذن فهي وعد بالاعتراف بحق في حدود القانون والعدالة والنظام العام والمصلحة العامة.

إن كانت هذه هي حقوق الانسان، فكل شعوب الارض تتمتع بحقوق الانسان. ذلك لأن كل الدساتير في العالم تتضمن نصوصاً تعترف فيها للافراد بهذه الحقوق. ولما كانت الدول العربية التي وجدت انه من المهم لسمعتها العالمية أن تكون لها دساتير، قد بالغت في عدد وانواع الحقوق التي تعترف بها للانسان العربي، فاننا نستطيع ان نقول ان الشعب العربي من أكثر شعوب الأرض تمتعاً بحقوق الانسان. ولم لا. مادام الامر كله كلاما في كلام. ومادام الحق وعدا أو اعترافاً، ومادامت حدوده موضوعة بقوانين يشرعها اعداء حقوق الانسان، اصحاب الرأي الأخير في تحديد ما هو النظام العام وما هي المصلحة العامة..

الكلام عن الوعد مغرٍ فلا بد من التمسك به، ولكنه كلام فارغ من مضمونه، فكيف الخروج من هذا المأزق؟

بأن نتمسك بمفهوم الحق كما تعلمناه من الشريعة حيث تفرق الشريعة الغراء بين المكنة والحق اما المكنة فهي دَيْن بالحق قبل أن يتملك الدائن محل حقه تمكنا فعلياً، أو رخصة تمكنه من المطالبة به واقتضائه، ولا يقوم الحق الا بتملك محله فعلا أو حكماً اي حين يكون المحل تحت المالك. طبقا لهذا

المفهوم لا يكون الاعلان العالمي لحقوق الانسان مقبولاً الا على أنه اعلان من العالم بشرعية المطالبة بتملك تلك الحقوق. بأن يصبح الحق في العمل عملا فعلا. ان يصبح الاجر المتساوي اجرا مقبوضاً ومساويا للاجر عن العمل ذاته أو ما يماثله وأن يكون بالقدر الذي يحقق فعلاً، طبقا للظروف الاجتماعية والمقدرة الشرائية للنقود مستوى من المعيشة لائقا بالعامل وبكرامته وكرامة اسرته وأن تتحقق له فعلاً المحافظة على صحته والرفاهية من تغذية وملبس ومسكن وعناية طبية وتعليم.

وطبقاً لهذا المفهوم فلا تكون حرية التفكير وابداء الرأي والتعبير حقوقاً للانسان الا اذا توفرت لكل انسان الوسائل اللازمة لممارسة هذه الحريات فعلا بدون تدخل، ولا يكون الاشتراك في الجمعيات والجماعات وادارة الشئون العامة حقوقاً للانسان الا اذا شارك فعلاً وبنفسه و... الخ، حينئذ لن ينخدع عربى بالاعلانات والوعود، ولن تكفيه اساطير الدساتير، ولن يرضى بالاحلام الا بعد أن يصبح الحلم علماً. حينئذ، سيبقى العربي المحروم من حقوقه شاعراً بالحرمان إلى ان تتحقق. ولن يحقق اي انسان شيئاً لا يشعر بالحرمان منه.

٦ ـ الاشارة الثانية: امامك هاوية احذر مصدر الحق

تقول المادة الاولى من الاعلان العالمي لحقوق الانسان: يولد جميع الناس احراراً متساوين في الكرامة «والحقوق». وهو قول بالغ النبل ولكنه بالغ الغرابة ايضا. اذ من الغريب تصور ان للطفل حقوقاً مساوية لحقوق أمه في حين أنه لا يدرك ذاته منفصلة عضوياً عن ذاتها قبل نحو عامين. ومن الغريب تصور أن له حقوقاً مساوية لحقوق والديه مع ان لوالديه عليه حق التربية وليس له هذا الحق، وله عليهما حق الاعالة وليس لهما عليه مثل هذا الحق. لا نحتج على الاعلان العالمي لحقوق الانسان بما نجده في هذا النص من غرابة، لا ولاباستحالة التوفيق بينه وبين قواعد الارث في الاسلام، انما لنسأل: من اين جاءت هذه الحقوق للانسان فور ولادته.

ما مصدر حقوق الانسان؟

هنا تعارض يصل إلى حد التناقض بين الاعلانات العالمية لحقوق الانسان

وبين الشريعة الاسلامية . ذلك لأن ما يسمى حقوق الانسان كما انتقلت الينا من اوربا على متن اعلاناتها منذ الثورة الفرنسية حتى الان تسند حقوق الانسان إلى ما يسمونه «القانون الطبيعي» فهي حقوق متصلة اتصالا عضوياً بالانسان، من حيث هو انسان، قبل أن يوجد المجتمع وخارجه، بل إن المحافظة عليها كانت الشرط الاساسي لتكوين المجتمع اتفاقاً بين الافراد فيما يسمى «العقد الاجتماعي» الذي قامت عليه الحضارة الاوروبية الحديثة كلها. وقد روج لهذه النظرية اولا الهولندي هوجوجرتيوس (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥) ثم تبعه في انجلترا كثيرون منهم توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) وجون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) وديفيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٩٦) وجيرمي بنتام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) وجون ستيوارت مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣) وهربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) وتبعه في فرنسا جان بودان (١٥٧٦) وجان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) وفي المانيا فريدريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) وكثيرون غيرهم نقلوا عن الأولين مثل مونتسكيو ومايزالون ينقلون. وفي العالم العربي مئات أو آلاف لا يكفون عن ترويج مقولة أن للانسان حقوقاً متصلة بذات شخصه لا يجوز المساس بها كما لو كانت تلك المقولة من ابداعهم وليسوا لها ناقلين.

على اي حال إن هذه الاسماء ليست غريبة على المثقفين العرب. انهم يصادفونها في كل ما يقرأون عن الفلسفة والتاريخ والنظم السياسية والاجتماعية. كما ان كل طلاب الجامعات العربية في كليات العلوم الانسانية تلقوا عن اساتذتهم دروساً قيمة تمجد اولئك الفلاسفة والمفكرين وتسميهم فلاسفة التنوير والنهضة ومهندسي الحضارة. الذي قد لا يقوله كثير من هؤلاء الاساتذة ان اولئك الفلاسفة والمفكرين هم ايضا قادة التيار الالحادي الجارف الذي اجتاح اوربا ابتداء من القرن السابع عشر. كلهم ـ بدون استثناء واحد ـ كانوا ملحدين جهاراً. ولم تكن فكرة «القانون الطبيعي» الا البديل الالحادي عن القانون الكنسي، اختاره اولئك المفكرون الملحدون تمرداً على استبداد الكنيسة الكاثوليكية الذي ابقى اوروبا في ظلمات القرون الوسطى..

وهكذا كان «القانون الطبيعي» مصدر حقوق الانسان ومصدر قوتها الملزمة للمجتمع.

ان اي عربي مسلم لا يمكن أن يفرط في اغلب تلك الحقوق إن تحققت له، ولا يكف عن أمل تحقيقها إن كانت مفتقدة. ولكن اي مسلم عربي لا يمكن ان يقبل فكره القانون الطبيعي ويبقى مسلماً.

فكيف الخروج من هذا المأزق؟

برد حقوق الانسان إلى الشريعة الاسلامية مصدراً، فيفهمها ويناضل من اجلها ويكسبها وهو كما هو عربي مسلم بدون تشويه. وهذا يسير. وقد ردها أو ردّ اغلبها كثير من المجتهدين والكتّاب فلم تضق الشريعة الغراء بحق من تلك الحقوق الا ما ناقض الآيات المحكمات من القرآن او المتواتر من حديث الرسول ﷺ أو ما عرف عنها بالضرورة. وقد قبلت كل الدول العربية الاسلامية الاعلان العالمي لحقوق الانسان ـ بدون توقف عند مصدرها ـ لأن الاعلان لا يتضمن مصادر الحقوق التي اوردها. ولكنها تحفظت على نص فيه يقول: «للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس اسرة دون اي قيد بسبب الجنس او الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج واثناء قيامه وعند انحلاله» (المادة ١٦)

حين نرد ماجاء بالاعلانات العالمية لحقوق الانسان إلى الشريعة الاسلامية تكون طاعة الله هي مصدرها ومصدر قوتها الملزمة. ويكون الجهاد في سبيلها جهاداً في سبيل الله. ويكون القتال في سبيلها قتالاً في سبيل الله. ويكون الموت في سبيلها استشهاداً فنصل الى مالم يستطع الاوروبيون حتى الآن الوصول اليه. وهو أن تكون حقوق الانسان حجة على الدساتير والقوانين والنظام العام والمصلحة العامة ولا تكون الدساتير والقوانين.. الخ حجة عليها. فتسقط حجة المستبدين في وطننا العربي الكبير. ويسقط عن العرب واجب الطاعة للحكام المستبدين، اذ، لا طاعة في معصية. ويكون الطريق إلى حقوق الانسان قد انفتح لنا بدون عوائق.

فما الذي يكسبه تلامذة «القانون الطبيعي» لحقوق الانسان في الوطن العربي الا انهم يحولونها إلى مطالب سياسية، وهي في الشريعة حقوق ربانية، وكيف يمكن حشد قوى الشعب العربي المسلم من أجل النضال في سبيل حقوق الانسان اذا فصلنا تلك الحقوق عن عقيدته، وكيف يستمع الشعب

العربي المسلم إلى دعوة ـ اية دعوة ـ تأتيه من المغتربين عن حضارة امته. الآن يعرف اولئك المغتربون لماذا فشلوا ـ بالرغم من نضالهم الطويل وتضحياتهم الجسيمة في كسب ثقة الجماهير العربية العريضة التي مازال القهر يروضها منذ عشرات السنين حتى فقدت المقدرة على معرفة ان عذاب الحياة ليس قدراً بل قهراً. انهم يخاطبونهم من خارجهم، بغير لغتهم، من مواقع متعارضة او متناقضة مع موقع عقيدتهم من انفسهم.

٧ ـ الاشارة الثالثة يمكن ان تصاغ هكذا: احذر امامك منزلق:

حقوق الانسان، كما هي منقولة الينا ـ منذ الثورة الفرنسية ـ هي حقوق «فردية»: انها حقوق للفرد في مواجهة المجتمع. يحتج بها الفرد على المجتمع ويمارسها بصرف النظر عن آثارها الاجتماعية، ويدافع عنها ضد اي نظام اجتماعي يمسها. إن مضامينها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية من اختيار صاحبها وعلى مسئوليته. انه إن يحقق تلك المضامين فقد افلح في حق نفسه. وان يفشل فلا يلومن الا نفسه. ولقد بلغ تقديس هذا المفهوم الفردي لحقوق الانسان انه بعد ان اصدرت الثورة الفرنسية اعلان حقوق الانسان، عام ١٧٨٩، اصدرت فيما بين ١٤ و١٧ يونيو ١٧٩١ مجموعة من القوانين عرفت باسم قوانين شابلبير تحرم اي عمل جماعي من اول الجمعيات والشركات إلى آخر النقابات والاحزاب. وكانت حجة واضعيها انه في العمل الجماعي يتعرض الفرد لضغط الجماعة فيفقد حريته الفردية من التفكير والتعبير والعمل، وهي حرية «مقدسة» بحكم اعلان حقوق الانسان.

هذه الفردية هي التي ادت في التطبيق، على مدى التاريخ الحديث لاوروبا والعالم، إلى أن يكون القانون الاساسي لعلاقات الافراد والجماعات هو قانون «المنافسة الحرة». المنافسة الحرة ـ بدون تدخل من المجتمع ـ إلى التملك بلا حدود ولو ادت إلى ان تتملك اقلية من الشعب اغلبية ما هو متاح في المجتمع وحرمت اغلبية الشعب من ان تملك ما تملكه الاقلية. وتصرف كل فرد في ملكه بدون قيود ولو اهلكه، ولو حمله إلى غير مجتمعه وهناك اكتنزه. واستهلاك كل فرد ما يملك بدون وازع او رادع ولو استهلكه فيما يفسده او يفسد حياة الآخرين. وليست المنافسة الحرة الا قاعدة اللعبة التي قام عليها

النظام الاقتصادي المسمى بالنظام الرأسمالي. وليست المنافسة الحرة الا قاعدة اللعبة التي قام عليها النظام السياسي المسمى بالنظام الليبرالي، حيث يتنافس الافراد في الوصول إلى الحكم والاستبداد به دون الشعب عن طريق التنافس الحر على الحصول على اصوات الناخبين من الشعب بدون التزام عقائدي او سياسي او اخلاقي، اذ انهم فور انتخابهم يكونون غير ملتزمين امام الذين انتخبوهم. المنافسة الحرة التي جعلت من الاغتراب حضارة، ومن الجشع مهارة، ومن النصب شطارة.

فكيف يمكن الخروج من مأزق يحشرنا بين الحرص على الحرية الفردية وبين سلامة المجتمع. كيف يمكن الحفاظ على حرية التملك بدون استغلال، وحرية المنافسة بدون ان يكون البقاء للاقوى كما هو سائد في عالم الحيوان، أو بدون أن تقضي حرية المنافسة على حرية المنافسة بالاحتكار كما هو سائد ومعترف به في العالم الرأسمالي اليوم.

اجابت الشريعة الاسلامية منذ اربعة عشر قرناً جوابا لم تعرفه النظم الغربية حتى اواخر القرن التاسع عشر حين بدأ مجلس الدولة في فرنسا في انشاء نظرية «التعسف في استعمال الحق من خلال تواتر أحكامه» على ان استعمال الحقوق مشروط بالغاية من استعمالها. منذ قرون طويلة وضعت الشريعة قيودا على اكتساب كل حق ولاستعمال كل حق، وحد كل الحقوق وممارستها هو «مصلحة الجماعة» ومثاله الواضح. والمعروف، ان كل ما هو مشترك بين الناس لا يستغني احد عنه لا يجوز تملكه. كان في بداية عهد الناس بالاسلام في الجزيرة العربية الكلأ والماء والملح. فلما فتح الله على المسلمين ارض العراق رأى امير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ بعد ان استشار الصحابة ـ ان الارض الزراعية فيء مشترك بين اجيال المسلمين المتعاقبة فاباح الانتفاع بها لكل جيل وحرم تملك الرقبة.. وهكذا.

فالحق في الشريعة الاسلامية «حق فرد في مجتمع» وليس حق «فرد في مواجهة مجتمع»، أو فلنقل إن الحق في الشريعة الاسلامية حق اجتماعي وليس حقا فرديا.

٨ ـ نستطيع ان نعدد اشارات كثيرة غير ما سبق. ولكنا نكتفي بما سبق من امثلة لأن غاية ما نريد قوله دعوة إلى ان تكون مسيرة شعبنا العربي إلى

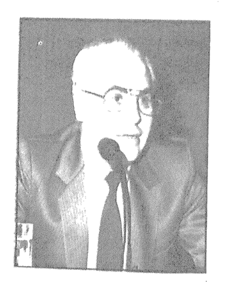
حقوق الانسان على طريق عربي لا ينحرف بنا عن هويتنا الحضارية العربية الاسلامية فنصل إلى حيث حقوقنا ونحن ما نزال حافظين عقيدتنا وتقاليدنا وآدابنا واخلاقنا ايضا .

واننا عندئذ لواصلون إلى الحق .

ذلك لأنه منذ منتصف هذا القرن ، وتحت تأثير دخول الدول غير الاوروبية افواجا افواجا في هيئة الأمم المتحدة ، ومن بينها الدول العربية والاسلامية كافة ، اضيفت إلى ما جاء بالاعلان العالمي لحقوق الانسان حقوق جديدة ، وفرضت حدود على ما جاء به من قبل وتفرعت عنه اعلانات حقوق للانسان متميزة حضاريا ، فثمة الوفاق «الاوروبي» لحقوق الانسان الذي صدر في عام ١٩٥٠ ، وثمة الاتفاق «الامريكي» لحقوق الانسان الذي صدر عام ١٩٦٩ وثمة ميثاق اعلان حقوق الانسان «الافريقي» الذي صدر عام ١٩٦٥ . أما من حيث المضمون فقد اصدرت هيئة الامم المتحدة ميثاقين جديدين لحقوق الانسان عام ١٩٦٦ احدهما لبيان حقوق الانسان السياسية والآخر لحقوق الانسان الاقتصادية والاجتماعية ، وكلاهما يقترب من المفهوم الاسلامي «للحق»، ويضع له حدودا من مصالح المجتمع كما يحددها واقعه الحضاري . انهم يقتربون منا بفعل المعاناة المتزايدة التي يعانيها الفرد في مجتمعاتهم المنفرطة افراداً ، فما علينا الا ان نعي من نحن ، ونحافظ على هويتنا الحضارية ، ونصمد في مواقفنا الصحيحة ، ونسير على طريقنا الذي يتفق مع تضاريس تكويننا القومي .. وغدا أو بعد غد لن يصح الا الصحيح .

المحاضرة الثانية

الشخصية الثقافية العربية والغزو الثقافي



للأستاذ / علي عقلة عرسان






الاستاذ على عقلة عرسان

● من مواليد ١٩٤٠ ـ صبرا ـ درعا ـ سوريا .

● حصل على درجة دبلوم الاخراج المسرحي من المعهد العالي للفنون المسرحية بالقاهرة ١٩٦٣ .

● عمل مخرجاً بالمسرح القومي التابع لوزارة الثقافة في سوريا ثم نقيبا للفنانين ومديراً للمسارح والموسيقى .

ـ رئيس تحرير مجلة الموقف العربي .

ـ نائب رئيس اتحاد الكتاب العرب .

ـ معاون لوزير الثقافة والارشاد القومي .

ـ رئيس اتحاد الكتاب في سوريا .

ـ الأمين العام لاتحاد كتاب اسيا وافريقيا .

ـ رئيس اتحاد الناشرين في سوريا .

ـ الأمين العام المساعد لاتحاد الناشرين العرب .

● أهم وابراز المؤلفات :

ـ الظواهر المسرحية عند العرب ١٩٨٠ (دراسة).

ـ سياسة في المسرح ١٩٧٨ (دراسة).

ـ صخرة الجولان ١٩٨٢ (رواية).

ـ مسرحيات: زوار الليل (١٩٧١)، الشيخ والطريق (١٩٧١)، السجين رقم ٩٥ (١٩٧٤)، الغرباء (١٩٧٤)، رضا قيصر (١٩٧٥)، عراضة الخصوم (١٩٧٦)، الاقنعة (١٩٧٩).

ـ كتب العديد من الابحاث في الصحف والمجلات الادبية كما له عدة قصائد .

ـ كتب العديد من التمثيليات الاذاعية والتلفزيونية .

ـ قام باخراج مايزيد عن عشرين مسرحية .

● أهم المؤتمرات والندوات التي شارك فيها :

- مؤتمرات اتحاد الكتاب العرب، واتحاد كتاب اسيا وافريقيا .
- المؤتمر الدولي للكتاب بصوفيا - مؤتمر الغزو الثقافي .
- ندوة المسرح العربي والتراث .
- ندوات ثقافية في طشقند ، فيتنام، الجزائر ، موسكو ، كالكتا ، برلين .

الشخصية الثقافية العربية والغزو الثقافي

قال علي بن عيسى، أحد الساسة والمتبصرين في العهد العباسي: «ليس يرى مجد الحكمة إلا من كان بصر عينيه في قلبه، لا بصر قلبه في عينيه» فهل ذاك الذي عناه علي هو الحكيم ام المثقف، هو الذي يقرأ كتاب الحياة بالتجربة ويرى دلائل الاعجاز الكوني بنور القلب، أم ذاك الذي يقرأ إنشاء المجربين والمفكرين في الكتب؟! أم من ملك خير ما عند الاثنين؟!

عند بعض الهنود «الإنسان المثقف هو الإنسان الذي خضع لنظام تفرضه الاخلاق»[1] والإنسان بهذا المعنى يعرف نفسه ويسيطر على نفسه، وهذا ما قالته الحكمة اليونانية على لسان سقراط وارسطو قبل الميلاد: «اعرف نفسك» ومن عرف نفسه عرف ماله وما عليه، وحدود شخصيته والآخر، بشراً كان الآخر أو شيئاً، وأقام بدءاً من هذا التجديد حدود التمايز وأوجد الحوار أو العلاقة الجدلية، أخذاً وعطاء، باغناء واغتناء مما يشكل معطى الثراء الثقافي.

والثقافة عند مفكرين في الشرق «جملة الأعمال التي يقوم بها السكان في الميدان العقلي والروحي»[2] ويحاول الاميركي ريشارد ماكيون Richard Mackeon ان يعرف الثقافة فيقول: «يمكن تعريف الثقافة، من ناحية، بكونها ناشئة عن تطور تاريخي، ومن ناحية أخرى، كمجموعة من العادات يعترف بكونها مقبولة في جماعة معينة، كما يمكن متابعة آثارها في كل دوائر النشاط الإنساني كالسياسة والحقوق، والفن والدين، والمعرفة العقلية بمختلف

---

١ ـ أصالة الثقافات. ص ١٤١ ترجمة حافظ الجمالي منشورات الادارة العامة للثقافة ـ وزارة التعليم العالي ـ القاهرة ـ ١٩٦٣.

٢ ـ المصدر السابق ص ١٩٧. سونيتي كومار شاترجي.

صورها»[1] والخلافات في التفاصيل واردة بين من يعرفون الثقافة ولكن الأسس الرئيسية يكاد لا يختلف عليها أحد، ويمكن بسهولة ويسر الاقتناع بالتعريف الذي تبناه المؤتمر الدولي للسياسات الثقافية الذي عقد في المكسيك حيث أورد تعريفا شاملاً للثقافة ينص على «أن الثقافة بمعناها الاوسع هي مجموع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية الخاصة التي تميز مجتمعاً بعينه او فئة اجتماعية بعينها، وانها تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة والانتاج الاقتصادي، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقد»[2] ومجموع هذه السمات التي تكون الشخصية الثقافية لأمة أو لشعب أو فئة، لا تتضح في كيان متمايز مستقل إلا بمرور الزمن وبتأثير عوامل تكوين أو قل مقومات عديدة بعضها رئيسي وبعضها ثانوي، وبخوض تجارب في الحياة، ومع الكون والطبيعة والبيئة تتراكم الخبرة لدى الإنسان وتكون تاريخه الحي الذي تستقرئه الأجيال وتستقي منه الدروس، وتقيم في ظل المعرفة المستقاة ومنها تيار وعي واسلوب تعامل وتفاعل مع الأحداث والأحياء ومعطيات الحياة، مع متغيراتها وثوابتها، وتترسب مع مرور الزمن ثوابت معرفية على شكل عادات وأعراف وتقاليد ومعتقدات، لا تغيرها إلا ثورات (معرفية على الخصوص) وعقائد تكتسب في المجتمع مفهوم الثورات التي تستند إلى قيم، وتسعى إلى إشادة صروح قيم وحضارات على أسس أقرب إلى الثبات ولكنها لا تتعارض كلياً مع التكوين العام للشخصية الثقافية للأمة أو للشعب أو للجماعة، وإلا دخلت في حيز الإستلاب والامحاء، أو في صراع قد يكتب لها فيه النصر والبقاء.

وفي لقاء الثقافات الذي يتم فيه امتزاجها أو تفاعلها او انصهارها في معطى جديد، تبرز قوة الشخصية الثقافية لأمة على التأثير والبقاء، على الأخذ والعطاء، على التمثل والاستيعاب ومنح السمات الخاصة بها للغير في نهاية المطاف، والقوة في هذا المجال لا تعني تعالياً وتقوقعاً وانغلاقاً يعود إلى الجمود والتحنط، وانما تتبدى في الأخذ والتمثل دون امحاء او تبعية، وفي العطاء دون تسلط مريض ومحاولات قهر لاذابة الآخر بالتصفية والإلغاء

١ ـ المصدر السابق ص ٧.

٢ ـ اعلان مكسيكو بشأن الثقافة الفقرة ٤ ص ٢١٨ من النص العربي.

القسريين ..

على ان الاعتداد بما لدى كل ثقافة وبمدى تأثيرها في الثقافات الاخرى قائم ومشروع، والتوجه نحو التأثير في الآخرين بهدف كسبهم واقناعهم أو حتى الظهور عليهم، من الأمور التي برهنت عليها حيوية الثقافات وطبيعة اللقاء والحوار والتفاعل بينها. وهذا بدهي في مضمار التواصل الإنساني على صعيد الافراد والجماعات البشرية.

والثقافات تتفاوت عمقاً وشمولاً وقوة وأصاله وقدرة على الصمود وصلاحاً للبقاء وللحياة في معترك لقاء الحضارات أخذاً وعطاء، تمثلاً ونبذاً، دون ضعف يلغي الخصوصية ويمحو الذات ودون عقد مرضية تضخمها. ويقول الهنود ان ثقافتهم أكثر الثقافات تعدد مكونات وروافد، وأكثرها تمثلاً لما تأخذه من الغير من غير أن تضيع سماتها وملامحها. وقد عبر عن ذلك المفكر الهندي «أتريا» حيث قال: «الثقافة الهندية لا تعارض التأثيرات الأجنبية ولاتخشاها، بل عكس هذا هو الصحيح، فلقد عرفت الثقافة الهندية خلال العصور كيف تقوي نفسها بتمثل خير ما في الحضارات الأخرى، التي اتصلت بها من عنصر ثمين»[1] واعتراف الثقافة الهندية بالثقافات الاخرى، واعتمادها على احترام الآخرين وثقافاتهم، وانطلاقها من نظرة ثاقبة إلى كون الثقافة هي المعرفة العميقة بالانسان والكون، وان المثقف ذلك الذي يملك تلك المعرفة والذي «خضع لنظام تفرضه الأخلاق» جعلها تبدو من أكثر الثقافات انفتاحاً وديمومة وقدرة على التمثيل، لا على التلقيح والصدامية. فهي من حيث مكوناتها وروافدها تجمع شتات ثقافات جماعات وشعوب وعقائد، ولكن السمة النهائية العامة لهذه الثقافة تتصل ببيئة هي الهند وبانسان يمت إلى تلك البيئة، ويحمل عادات وتقاليد حياة ولباس يصعب تجاوز سماتها المحددة، وحتى الثقافة العربية الاسلامية التي تميزت بقوة الشخصية وأصالتها، والتي دخلت الهند بمهابة وصلابة، ونظر ا ليها بعض الهنود بعداء، لأن الاسلام لم يقر ما هم فيه من عبادات، حتى هذه الثقافة عرفوا كيف يستفيدون منها دون أن يمحى وجودهم أمامها فتعايشوا معها ووسموها بميسمهم في بلادهم بحالات، ووسمتهم هي بميسمها.

١ ـ أصالة الثقافات ص ١٣٩.

ونظرة الشرق وشعوبه إلى الثقافات واسلوب التعامل والتفاعل معها، يختلف من بلد إلى بلد، ولكن له سمة عامة هي سمة الشمول الإنساني والإعتراف بالآخر وبقيمة نظرته ورؤياه في الحياة، ويظهر ذلك في اسلوب استيعاب الصين «لهجمات» الآخرين من حملة السمات والمورثات الثقافية الاعلى والادنى.

وإذا تأملنا القول الذي يسوقه المفكر الصيني شيه هسيانغ شين Shih-Hisiangchen «الثقافة ضد القوة العسكرية» لأدركنا بأي أسلوب دافعت الصين عن ثقافتها وعن شخصيتها الحضارية وصمدت للغزاة، ولفهمنا تاريخ الصين وسر استمرارها قروناً طويلة، وربما استعدنا في ضوء هذه المقولة تلك العلاقة الفريدة في التاريخ بين (غالب ومغلوب) بين اثينا وفاتحيها من الرومان، حيث تمكن الفكر اليوناني والثقافة اليونانية الزاهية والمتفوقة بما لا يقاس على الثقافة الرومانية، وخاصة في مجالات الآداب والفنون والفلسفة والعلوم، كيف تمكن من احتلال العقل الروماني في حين احتل جيش الرومان أرض اثينا وأزالوا سلطة حكومتها.

وإذا القينا نظرة سريعة على الانموذج الأوروبي للتعامل والتواصل الثقافيين وكذلك على وليده الانموذج الأمريكي، لوجدنا أن النظرة واسلوب التواصل والتعامل، كل ذلك، يختلف عن الأسلوب الشرقي. فهم لا يرون في الآخرين إلا متخلفين، ولا ينظرون باحترام إلى شخصيات الآخرين الثقافية، ويجدون فيما تركوه من تراث وعطاء حضاري مجرد مشاريع للاستثمار قابلة للقولبة والإستلاب والتهجين والتزييف.

ورغم ان الامريكي Johon Somerville يسوق رأياً بانتشاء وانفتاح وادعاء إنساني عريض، إلا أننا نشتم من هذا القول تلك الروح الاستعمارية الإستثمارية الإستلابية التي أشرت اليها. يقول سمرفيل «إن كل إنسان هو امريكي ممكن ولو لم يكن في هذا الرأي شيء من الحقيقة لما كان هناك أمريكا على الأرجح، إذ أن اصولنا مختلطة اختلاطاً شديداً، وأضيف في الحال قائلاً: إنه ليس ضرورياً حسب رأيي أن يصبح كل إنسان أمريكياً. غير أني أرى بوادر ظاهرة عالمية ذات طابع أميركي جلي، هذه الظاهرة هي أن أكثرنا هنا لا يجدون أي اعتراض مبدئي على أن يصبح أي فرد واحداً من

الأميركيين خلال فترة قصيرة»[1].

ورغم ان هذا القول ينطوي عل امكانات فهم آخر يبنى على محاولة النظر إلى الكاتب وهو يظهر البنية السكانية للولايات المتحدة الامريكية، وإلى وجود مكونات ثقافية أو بالأحرى ثقافات متنوعة في وحدة جغرافية أو حكومية، إلا أن خلفيات هذا القول نفسياً واجتماعياً وتوجهاً توسعياً، تنطوي على دفاع عن نقص يحسه الأميركي في عراقة وتماسك شخصية ثقافية تشكو من التناقض، ونزوع إلى تقويض هذا النقص باحساس بالقوة أو بالتعالي مستمدان من التفوق التقني ويتجسدان في رغبة رؤية العالم أميركياً أو في أن يصبح كذلك. ومنهج منطق العلم والتفكير الذي يضع حقائق التاريخ، ويضع الآخرين ايضا ضمن مقومات تكوين الرأي أو الحكم، يفترضان او يقتضيان عكس ما ذهب إليه سمرفيل، مع التسليم بحسن نيته. كان الأولى به أن يشير إلى الفسيفساء التجميعية، غير المتجانسة أحياناً، للروافد أو المقومات العالمية التي تلتقي على أرض أميركا كجغرافيا، لا في شخصية ثقافية وحضارية لها وجود فعال عبر التاريخ، ونمو مستقر المنابع، اينع مع الزمن وقدم ثقافة بقيم لها نكهة العراقة والتكامل والتماسك والانسجام.

ربما كان القول بوجود عناصر ثقافية، وموروثات حملها المهاجرون في جماجمهم وعاداتهم من ثقافات وحضارات شعوبهم وبيئاتهم، وكذلك بقايا ثقافة - بالمعنى الواسع للثقافة - لجماعات الهنود الحمر الذين أبادهم المهاجرون الاوربيون، وفي مقدمتهم مهاجرون بريطانيون أتوا بهدف الربح والتجارة والإستعمار، ولكنهم لم ينبتوا في تلك البلاد، ولم تنغرس جذورهم الحضارية فيها. وتنمو، انغراس ونمو جذوع الشيح، أقول ربما أمكن القول بوجود هذه العناصر لثقافة مازالت لم تتضح سماتها. وما يهمني من اقتطاف قول سمرفيل والتوقف عنده هو هذا الاتجاه العام الذي يشعرنا به الأوربيون والأميركيون والذي يتجسد في أفعال وممارسات ضد الثقافات والشعوب التي استعمروها واضطهدوها، وضد الثقافات الأصيلة التي احتكوا بها، خاصة في الوطن العربي وفي آسيا وافريقيا.

---

١ - اصالة الثقافات ص ٢٥٨ - جون سمرفيل: ملاحظات حول ثقافات الولايات المتحدة الامريكية.

ولقد كان ومازال الحقد والخوف يحركان العقل واليد والاداة الأوروبية والاميركية للسيطرة على الثقافات الاخرى او تشويهها، وقد وصل الحد مع بعض الثقافات أو الاجناس البشرية، ليس إلى الاستسلام في هذه المعركة فقط وانما إلى نوع من التبرؤ من الذات وهجرانها ليلحق بالمثل الأعلى للثقافات الغازية، كما حصل مع فئات من الزنوج. وقد قال مارسيل جريول عن سبب اختفاء تقاليد الزنوج التي هي جزء من تكوينهم وشخصيتهم الثقافية قال: «إن اختفاء التقاليد يرجع إلى أن أصحابها يخضعون لعقدة نقص فرضها عليهم المعلم، وهذه العقدة تبلغ في بعض الاحيان من السعة أن صاحبها يمضي حتى إلى انكار اسلافه، بل وحتى إلى انكار لون جلده»[1] وذهب بعض أصحاب تلك العقد، أو بالأحرى أصحاب الوعي المهزوز بثقافاتهم واصالتهم من الزنوج حد القول: «حين أصبح غير زنجي أصير إنساناً» وقد سمعت شيئاً من هذا على لسان بعض حمقى العرب.

وأكثر ما يتجسد ويزداد ذلك الخوف والحقد والنزوع إلى التشويه والمسخ شراسة من الثقافات الاوربية والأميركية نحو الثقافات الاخرى، مع الثقافة العربية الإسلامية. وقبل أن أشير إلى شيء من ذلك أود أن اقف عند بعض مقومات الشخصية الثقافية العربية قليلاً.

أول ما يبرز من مقومات الشخصية الثقافية العربية «اللغة العربية» وفضلاً عن كونها عامل الوحدة ولغة العقيدة السماوية، فإنها اطول اللغات الحية عمراً وأكثرها تواصل قديم بحديث، وقد استوعبت وتستوعب معطيات التجربة الفردية والجماعية العربية عبر التاريخ وفي جميع الميادين، وحفظتها ومكنت من تطويرها، وكانت لغة الحضارة والتقنية والعلم الاولى للإنسانية طوال قرون الظلام التي لفت العالم، وعبر بواسطتها العربي عن شواغل الفكر، ونقل ثمرات الفكر الإنساني اليها فحفظته ونمته، وبواسطتها عبر عن تأملاته في الكون وعن تفسيراته للوجود ومشاعره حياله، وعن تعامله مع الشعوب ومع الطبيعة، بما فيها من اشياء وجمادات وأحياء، كما عبر بها عما توصل اليه من قوانين وصيغ نتيجة تجربته مع تلك الأشياء والاحياء ومعايشته

---

١ - فلنقارن هذا بما آل اليه حال بعض العرب في اوروبا وامريكا، أو بعض المقتدين بهم بعد حرب ١٩٦٧ و١٩٧٣ مثلاً وكيف يتصرف كثير منهم، ولا أشير إلى تغيير الملابس والسلوك والقيم!؟

لها وعيشه في دنياها .

واللغة العربية تملك فرادة التوصيل البديع المستمر المستوعب عبر التاريخ العربي كله ، والذي يحمل هو بحد ذاته متعة ونشوة خاصتين . وفي الوقت الذي نجد فيه في الصين والهند واليابان لغات وثقافات تمازجت ، لأقوام اختلطت فكونت دولة .

ونجد في أوربا لغات حملت حضارات وماتت واعقبتها لغات اخرى قد لايفهم مدلول كلماتها بين قرنين متتاليين إلا بالتراجم والمعاجم ، وكذلك شعوباً تجمع في دولة قد تبلغ لغاتها الثمانين لغة تفرض عليها كلها لغة تفاهم وتعليم مشتركة لا تنضج ثقافة واحدة وإن قدمت نوايا وشعارات ، ولهجت بمنطق ثقافة غازية لتلك اللغات . في حين نجد ذلك كله في العالم ، نجد لغتنا العربية متمايزة ومتفردة في جمع اثنتين وعشرين دولة في لغة ، وفي حمل ثقافة لأمة واحدة عبر قرون طويلة ، وقد حفظت هذه اللغة القرآن الكريم ووعته وحفظت بفضله ومازالت .

والعربية حملت وتحمل معارف العرب وتجاربهم ، وتشكل حافظتهم التاريخية منذ الجاهلية ، واللهجات التي انقرضت سابقاً في الجاهلية الأولى او في الممالك المتناهية في القدم ، تلك التي حملت معظم الحضارات السامية ، أفرغت حمولتها الحضارية في اللغة الأم الباقية ، وحضارات الساميين باللغات أو قل بالخطوط التي كتبت فيها ، تشير إلى مراحل تطور اللغة العربية وبالتالي تكون مقومات الشخصية الثقافية ، التي تحمل اللغة منها اشياء ، وتتواجد في اعراف الناس وتقاليدهم وعقائدهم وقيمهم ، وكذلك في آثارهم وموروثهم مقومات منها متواصلة ومتنامية على نحو ما ، فلدينا اليوم عادات وتقاليد وقيم وربما آثار اعتقاد ، كانت سائدة في الجاهلية .

والمقوم الثاني من مقومات الشخصية الثقافية العربية : هو الإسلام الذي أسست به وعليه المعتقدات والقيم والعلاقات ، وارث طويل من الانتاج الأدبي والفكري والفني ، وكذلك علاقات الناس وضوابط سلوكهم وتعاملهم ، وفلسفات تأملهم للحياة والطبيعة والكون ، والتي مازالت هي مرتكزات تكوين الفرد وقيمه وتفكيره وعناصر توجيه معرفته وسلوكه ، والإسلام ذلك النبت العربي الذي يلخص جهد الحضارة بله جهد الثقافة والعمل البشري في قول

الرسول العربي محمد بن عبدالله ﷺ «انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق» الاسلام ذلك النبت الكريم الذي غرسه العرب في أرجاء الأرض، وسقوه دماً حتى زكا ونما وساد، فسادوا به الدنيا واعزوا به البلاد، الاسلام الذي عز بهم وعزوا به، هو المحور الرئيسي من مكونات ومقومات الشخصية الثقافية العربية.

وتأتي عوامل مساعدة ليست هامشية، وانما هي مكملة لهذه الشخصية تتجلى في طبيعة العربي الفرد ومزاجه وعواطفه وعاداته وارتباطه بالجماعة واخلاقه، وما توراثه عبر التاريخ من خبرة وعادات وأصول هذبها في ضوء تعاليم الاسلام أو أقحمها عليه، وادخلها عن طريق اللغة أو سواها لتحتل مكان النفس أو جزءاً منها في تلك الشخصية التي يمكن أن تكون لها مع ذلك الرصيد كله رؤياً متجددة في الوجود وللوجود تتطور فيه وتحاول أن تخضعه لمنطقها، وترى الحياة من خلاله وتوظف الجهد والزمن والمعطيات فيها، توظيفاً ملائما لتلك الرؤيا أو مبنيا عليها.

والشخصية الثقافية العربية بعواملها تلك وبما قدمه لها التاريخ من وعي وعبر، وبما استندت إليه من منطق مع مرور الأيام، وبما حققته عن طريق انتصارات الأمة عسكرياً واقتصادياً وعلمياً واجتماعياً وثقافياً، هذه الشخصية التي ابدت تماسكاً كبيراً وقوة تأثير ملحوظة النتائج أثناء لقائها بالثقافات الاخرى وصمدت لهجمات شرسة وخرجت منا سالمة - من هولاكو إلى الصهيونية - جعل الآخرين ينظرون اليها نظرتهم إلى خطر يدنو منهم فيغزونها في عقر دارها حتى تذل، ويتناوبون ساحتها حتى تمل.

وكان للاحتكاك الذي ولدته مع بيزنطة زمناً طويلاً، ثم مع أوروبا على وجه الخصوص، وللتأثير الذي حملته، وكانت عند ذلك تحمل قوة الحضارة الأعلى يصنعها الإنسان الأعلم والأرقى في المجالات جميعا وعلى الصعد جميعاً - لنتذكر العصور الوسطى في أوروبا - كان لذلك تأثير على السكان وعلى الشخصية الثقافية لهم، وخاصة جانبها الروحي والمادي. فحملت أوروبا ضغنها على هذه الشخصية منذ الفتح الأول - كما حملته شعوب اخرى لفترات ثم أزاله الاسلام نسبياً - وبدأت هجومها المرافق لحملاتها العسكرية منذ أول حملة صليبية دعا اليها (بيوس) حتى يوم الناس هذا. ودعاة

الحملات فيهم سياسيون ورجال دين وتجار ومتعصبون وغير ذلك.

وكان حقد الغرب على الشخصية الثقافية العربية، والذي يتجلى دائماً مصحوباً بعنف وشراسة ومكر وتزييف، موجهاً إلى: الدين - اللغة العربية - تماسك الأمة في وحدة (أو ملاحقة أحلامها في تحقيق ذلك) - إلى التراث والقيم الاخلاقية - الكيان الروحي العربي - وتماسك مقومات شخصية الفرد والجماعة في الأمة.

والتأمل البسيط في ممارسات الاستعمار الاوروبي للوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين، تقودنا الى الحقائق التالية:

- تمزيق الوطن العربي تمزيقاً مدروساً، وتوازع النفوذ الاستعماري على ارضه وشعبه - بعد تمزيق الامبراطورية الاسلامية - وهذا ما فعلته كل من: فرنسا وبريطانيا وايطاليا - بموجب اتفاقية سايكس بيكو للاولين - وتم تقسيم جغرافي وسكاني يخدم التمزق، ويرمي إلى اضعاف القوة عن طريق ضرب الوحدة والتواصل واشاعة الجهل واثارة النعرات الطائفية، وتأسيس دويلات حتى في جسم الدويلة الصغيرة الواحدة[١].

- محاولة الحاق أجزاء من الوطن العربي، الجغرافيا والسكان، بالبلد المستعمر، وتمهد لذلك وتليه عمليات عديدة في مقدمتها: تغيير اللغة والقضاء على اللسان العربي (الجزائر - المغرب - تونس - ليبيا) لاضعاف التواصل مع القرآن وقيم الدين وقطع جذور التواصل بين العربي وتراثه عامة[٢]. إضعاف قيم العقيدة والدين والقيم الاخلاقية - خلخلة البنية الاجتماعية واشاعة الأمية والجهل - افقار السكان وابهارهم بما هو وراد من الوطن «الأم» أو بما يقوله ويعرفه ويتصرفه ويلبسه القادم من البلد «الأم» وذلك المنتمي اليه، ليغدو المرء مقلداً ومستهلكاً في كل شيء.

- قطع الصلات بين السكان الواقعين تحت الاستعمار في القطر الواحد، وإقامة دويلات لهم، وخلق مشكلات يتنازعون فيها (سورية - لبنان)

---

١ - قسمت فرنسا سورية مثلاً إلى: دولة العلويين - دولة الدروز - الخ واقامت في لبنان حكماً يستند إلى الطائفية وينميها.

٢ - انظر تجربة الاستعمار التي نفذها بواسطة سيطرة على عقليات في تركيا حيث غيرت الحرف العربي فمنعت تواصل الاتراك مع العرب ومع تراثهم المكتوب بالحرف العربي والذي لا يملكون اصالة من دونه.

(مصر). وقطع صلاتهم بوسطهم الثقافي العام «عربي واسلامي».

- شن حملات التشويه والتزييف على التراث واللغة والحضارة العربية، واشاعة عدم الثقة بذلك المعطى العربي وبقدرته على مواكبة العصر واحداث النقلة الحضارية الضرورية، وتسريب الشعور بدونية تلك الثقافة ومقوماتها وحصيلتها، وبعجزها - وعلى الاخص اللغة - عن أن تنقل إنساناً إلى مستوى حضاري ما، وعجزها التام عن نقل المعرفة الدقيقة والعلم على وجه الخصوص. والحاق الاهانة، بشكل غير مباشر، بناطقيها.

- تشجيع البدع الدينية والمشعوذين وتنصيب الجهلاء والإمعات أئمة لتسود العقول غباوة وتغلفها غشاوة، فتذبل الإرادة، وتبطل منها الاستفادة، ويسلم الناس لذلك القوى القادر بما يريد، وينتمون اليه، على طريقة ذلك الزنجي الذي اراد أن يتخلص من لونه ليصبح سيداً كالبيض فوضع يديه في ماء النهر وردد ثلاثاً أنا أبيض وظن أن سيصبح كذلك. معتبرين ما كان لهم من حضارة أو عز أو ثقافة شيئاً من التاريخ مر وانقضى وطواه النسيان، ومن الأفضل عدم نبش التراب عنه إن لم يكن ردمه عليه.

- خلق النزاعات الطائفية وتشجيع الروح القبلية، وخرق كل ما هو أهل للتقديس والإحترام، من عادة أو قيمة أو عرف أو عقيدة، ومن شأن ذلك كله ضرب القيم العليا والاخلاق ونماذج القدوة في الوطنية والصلاح، وبالتالي ضرب تماسك البشر وتماسك الفرد في كيان، تلك التي ترسخها الثقافات أول ما ترسخها وتقيم على أسس من تماسكها وتكاملها أسس الشخصية الثابتة.

وفي ظل هذا التآكل على الصعيد الفردي والجمعي، على صعيد الاقليم والوطن، الفرد والجماعة والأمة، تآكل الماضي والحاضر، ذلك الذي يحدثه الاستعمار بوسائلة وأدواته، والذي حرص على احداثه زمناً طويلاً وأسس له، في ظل ذلك يحقق الغازي ما يريد من اطماع اقتصادية وعسكرية وسياسة واجتماعية وثقافية باحتلال الشخصية والارادة بعد أن أصبح احتلال الأرض انموذجاً قديما وغبياً ومكلفاً إذ يدعو إلى المقاومة والرد عليها.

والغزو كما نعرف جميعاً فعل قوة ضاق بها محيطها ونمت اطماعها، فخرجت من بيتها متجاوزة ذلك المحيط إما لسد ضرورات أو لتحقيق طموحات. وهذا الفعل فعل بشري جماعي بصفة عامة ينزع إليه نظام أو

شعب مستخدماً طاقاته وقدراته العسكرية والثقافية لتحقيق غاياته . ولا تخرج تلك الغايات عادة عن استعمار او استثمار ، وقد تكون في حالات استثنائية ، ارواء لشعور متضخم بالتفوق او بالعظمة ، يأخذ سبيله إلى الإرتواء باخضاع الآخرين .

والسائد بعد أن تبرز الاطماع ويمهد لها ، أن يتم الغزو أولاً باستخدام القوة العسكرية التي تعلي راية وقرار الغالب فوق ارض المغلوب وارادته ، ثم تحاول أن تقهره وتفقده الثقة بنفسه وبقدرته على تجاوز ما هو فيه ، وتحقيق غلبة على غالبه ، وبالتالي تيئيسه من إمكان تحقيق تفوق منقذ . وبعد انجاز مرحلة تفوق القوة التي تؤدي إلى احتلال الارض والحصول بالقوة على ثروات الغير وثمرات جهودهم ، تأتي مرحلة احتلال الإرادة ، وآخر معاقل مقاومة الشخصية لكيان غاز او لرغبة مفروضة أو مرفوضة . واحتلال الإرادة يعني احتلال الشخصية والتوطن فيها من الداخل وتسييرها لخدمة مصالح ورغبات وارادة الاقوى ، وهذا لا يتم دون إضعاف قوى المقاومة الذاتية جميعاً ، واحداث الخلل في تناغم وتساوق مقومات الشخصية ، وتشويه مثلها وقيمها ، واحداث اهتزاز في المعايير والروائز والثوابت لديها ، وتغيير الاقتناعات واسلوب النظر إلى الأمور والوقائع ، وغرس معايير وقيماً مغايرة لتلك التي كانت تحكم سلوك الشخصية وتميز مسلكها .

والتمهيد بذلك كله إلى نشوء أسس تقوم عليها اقتناعات ومعايير هي من غرس وصنع الكيان الغازي ومن فعل ارادته ، تتماشى مع مصالحه ورغباته وتطلعاته ، وتستجيب لايحاءاته ، بل وتنفذ تلك الايحاءات دونما اعتراض . وربما كان هذا أعلى مراحل التخطيط لاستعمار الإرادة والتوطن فيها وتحريكها آليا وذاتياً ، مع الحفاظ على مظهريات وشكليات استقلالية تشبع وهماً أو تشيعه .

وهذا النوع من أنواع استلهام الضعيف لقوة القوى وتقمصه رغباتها بما يحقق له اشباع تطلع ظامىء إلى النجاح في تنفيذ عمل دونما احباط ، والامتثال لارادة الغير طوعياً وتبني أهدافه والإرتياح إلى آلية صدورها عن الذات كارادة مستقلة ، يؤدي إلى شيء من الارتياح من جهة ويجعل الإرادة الغازية المتوطنة ، أي الاستعمار باشكاله يصل إلى تحقيق أهدافه بأقل التكاليف

والجهود .

وهـذا النـوع الأرقـى مـن أنـواع الاستعمـار الإستلابـي ، أو الاستلاب الاستعماري ، يتطلب عمليات تمهيد دقيقة وخفية وشاقة ، واتباع اساليب حذرة ومجربة خاصة عند ما يكون المغزو ذا رصيد من القوة والثقافة والوعي ، يدرك معه أنه في وضع المغلوب فعلاً ولكن قواه وطاقاته وامكاناته اقوى من تلك التي للغالب فيما لو استخدمت استخداماً موفقاً . وفي هذه الحالة تتم عمليات معقدة تشبه أو تفوق عمليات «غسل الدماغ» الفردية وفق الاساليب الحديثة .

وفي وضعنا نحن العرب ، ونحن أمة تتعرض للغزو فعلاً ـ بأشكاله المختلفة وبأساليبه المتطورة جميعاً ـ الإشكالية قائمة والمشكلة كبيرة . ذلك أننا نملك رصيداً كبيرا من مقومات القوة بمعناها العام : بشرياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وعقائدياً ، ولكننا نسيء استخدام هذا الرصيد ، مما يجعل حملات الغزو المختلفة التي تشن ضدنا منذ آماد طويلة تنجح في مواقع وتفشل في مواقع اخرى ، وتكتسح في عصور وتخفق كلياً أو جزئياً في عصور .

فنحن منذ أن عز العرب بالإسلام ، ونشر العرب الإسلام وغذوه بالدم وأعزوه ، أضفنا إلى مقومات شخصيتنا القومية الواضحة المعالم ، بعداً إنسانياً وعقائدياً وثقافيا عزز مكانة الشخصية العربية ودروها الحضاري ، وقوى ثقتها بنفسها ، فحققت انتصارات باهرة على الصعد العسكرية والإقتصادية والثقافية لم تحققها أمة من قبل ، وفي زمن قياسي نسبياً . وهذا الرصيد التاريخي الضخم الذي لا يغذيه الوهم ، ولا يقوم على افتعال أو فورة انفعال ، جعل المنعة شبه تامة على جبهة القناعات الفكرية والبنى الثقافية ، مما أدى إلى تماسك المقومات الثقافية للشخصية العربية عبر التاريخ ، رغم تزعزع وانهيار مستويات أو مقومات اخرى .

فمنذ الفترة الراشدية ، ورداً على الفتن التي بثها مندسون في الدين وفكر الأمة وسياستها ، على شاكلة عبدالله بن سبأ وكعب الأحبار وسواهم ، ممن حملوا فكراً توراتياً ليبذروه بأشكال مختلفة في الأذهان ، اشرعت ابواب اجتهادات وفلسفات وعطاءات فكرية وثقافية ايجابية كونت رداً على مثيري الفتن ومروجيها ، ومكنت دعائم الشخصية في مجالات الثقافة عامة من النمو

والشباب، ودفعت عجلة الابتكار والتفتح الفكري التي كانت مهيأة أصلاً للانطلاق، ودفعتها إلى الأمام، مما أدى مع الزمن إلى تفتح خلاق أنتج نهضة العلوم والآداب والفنون في فترات الازدهار الحضاري (الأموية وامتدادها في الاندلس ـ والعباسية حتى المأمون) الأمر الذي اقام صرح ثقافة أنارت سبل الهداية والتقدم والتطور الفكري والثقافي والتقني بنور الإسلام أمام العالم كله.

وقد صمد هذا الكيان الثقافي والحضاري الضخم لأشكال الغزو الشعوبي والصليبي من بعد، وفعل فعله البناء في تماسك شخصية الأمة، نتيجة لسلامة وصلابة مقوماتها ومنطلقاتها ووبنيتها الثقافية والفكرية ، الأمر الذي يسر لها اعادة بناء قوتها واستعادة ثقتها بنفسها على جبهة القوة العسكرية. فكان نصر على الصليبية رغم التمزق والتشرذم في مجالات القوة. وأدى ذلك بدوره إلى استعادة شيء من الصحة والسلامة والثقة للأمة. بشخصيتها وبقدرة تلك الشخصية على الانبعاث وامتلاك مقومات القوة والامل، تواجه بها مستقبلاً لم يكن يملك العرب وحدهم زمامه ومقاليد صنعه، وان كانت ثقافتهم وعقيدتهم ماثلتين في تكوين من يملك أمره بدرجة أو بأخرى.

في ظل عهد المماليك والعثمانيين كانت المقومات الثقافية والفكرية والعقائدية التي بقيت المنهل الثر للامة العربية، هي مصدر الصحة والقوة، وهي التي يعود اليها الناس حين تعصف بهم تصاريف الدهر، وتضطرهم إلى ذلك تقلبات الأحوال وتداول الدول، لم يكونوا يضيفون على ذلك الرصيد شيئاً يذكر، وانما كان العود إليه والإغتراف منه بل قل اجتراره، يعيد اليهم بعض الثقة وتجدد في فترات من تلك المرحلة عزم الممالك والشعوب، وأحرزت انتصارات أو قاومت أشكال غزو عنيف كان يشن عليها دون هواده. بقي شيء من التوازن بين الامبراطورية العثمانية ـ والعرب في ظلها ـ تلك التي ورثت حضارة العرب والمسلمين وعاشت عليها وأغنت بعض حواشيها، وقاومت بوحي من مقومات الثقافة العربية وجوهرها الإسلام وصمدت ما وسعها ذلك إلى أن تمثل الغرب علم وفكر وثقافة العرب والمسلمين، وما حمله اولئك إلى الغرب من ثقافات الأمم وعلومها سيما اليونانيين، وسار في طريق النهضة الحديثة بعد أن بنى على تلك الأسس والمعطيات الثقافية والعلمية والفكرية بنياناً راسخاً طوره وجدده باستمرار متبعا المنطق ومناهج البحث

والاستقصاء العلمية التي ثبتها العـرب والمسلمـون وحفظـوهـا وطـوروهـا . ومستفيداً من العلم الذي اخذه عنهم في مجالات شتى .

ولم يكن العرب الذي عاشوا في ظلال التجهيل والظلم العثمانيين والتخلف المفروض عليهم أيام الامبراطورية العثمانية ، لم يكونوا على تواصل بناء وخلاق لامع تراثهم الثقافي الغني ، ولا مع قيمهم السليمة ، ولا مع عقيدتهم السمحاء بمقوماتها ومفاهيمها الثورية النضالية الإنسانية ، الصافية والمتفتحة ، سيما خلال القرون الأخيرة . بل كانوا على حالة من التواكل والتآكل جعلتهم يتنادون خلاصاً من الظلم والانهيار العثمانيين - إلى بعث ما يمكن بعثه من روح وقيم وثقافة وفكر الماضي المشرق ، ليتمكنوا من جمع الشمل وتوثيب الهمم واستلهام الأصالة علها تقيم الأمة على حق وقوة لتواجه الليل الذي يخيم في سوحها ، وهكذا كان بدء الطريق ولكن الإستعمار الأوروبي المنتشي بتفوقه وتقدمه العلمي ، والمبطن لأحقاده وأطماعه التاريخية ، لم يسمح لهذه الأمة بأن تتماسك وتستعيد تواصلاً بناء وخلاقـا مـع مقـومـات شخصيتهـا بـدءاً مـن المقومات الثقافية لتلك الشخصية ووصولاً إلى مكونات القوة والصحة العامتين عسكرياً وجغرافياً واجتماعياً واقتصادياً ، فبادر إلى تمزيقها واقتسام أرضها وولاءات ابنائها ، وأخضعها لسيطرته المباشرة .

في ظل السيطرة المباشرة (الاحتلال) التي فرضها الاستعمار الأوروبي (فرنسا - بريطانيا - ايطاليا) في النصف الأول من القرن العشرين على الخصوص تطورت أساليب الاستعمار وتنوعت وسائله ومدارسه ومناهجه في السيطرة على الشعوب وسلب ثرواتها وتسخير قواها وطاقاتها لصالحه . وأخذ يفكر في النصف الثاني من القرن العشرين ، وتحت ضغط القوة الشعبية واليقظة التي حققت الاستقلال الوطني لبعـض الاقطـار العـربيـة ، واعلنـت تصميم ابنائها على تحرير بقية الارض العربية وعلى تحرير الارادة والقرار السياسي والاقتصادي والعقل بدءاً من تحرير الإنسان وتثويره . في ظل هذه السيطرة المباشرة وتحت ظروف القهر والجهل والتخلف وصلف القوة التي مارست عنجهيتها وهمجيتها وجبروتها على شعب أمي فقير مقهور ، بدأت خطط المستقبل ترسم وتفرض وتهيأ لها المناخات والعناصر البشرية من قبل الدوائر والأجهزة الاستعمارية في صيغتهـا المعصرنـة ، صيغـة الزمـن النـووي

(صيغة الامبريالية والصهيونية وامبراطوريات الاحتكارات العالمية) لتحويل الناس إلى مجرد أفواه وسواعد، وأخذت تلعب لعبتها تلك بزرع قواعد قوة وفرض مناخات رعب تمهيداً لنجاح مشاريعها في احتلال الإرادة واستباحة حمى الفكر والتوطن ثقافياً وقيمياً في أعماق تكوين الشخصية الثقافية للإنسان العربي، وتسييره وتسخيره وتهيئته سلوكاً وتطلعاً وطموحاً، ليكون في خدمة المشروع الاستثماري الاستعماري مع الحفاظ على جوّ وهم الحرية من حوله في مناخ قفص لا يضرب سقفه رأس الطائر الذي يعلف. ولتلك الدوائر والاجهزة اخطر وانجح الوسائل والاساليب في تحقيق ذلك.

إن دراسة الطبيعة البشرية، والسلوك الفردي والجمعي، ونتائج علم النفس وعلم الاجتماع بميادينها المختلفة تستنفر للوصول إلى نتائج تخدم تلك المشاريع.

فالمعروف ان القوي مرهوب الجانب، منظور اليه باهتمام، يملك فيما يملك هالة باهرة مبهرة تجعل لما يقول ويفعل، ولما يسلك ويلبس ويستعمل، تأثيراً أكبر بكثير من القيمة الفعلية لقوله وفعله ومسلكه وملبسه ولما يستعمل، إنه الغالب الذي يقلده ويقتدي به المغلوب، والمتفوق بقوته وعلمه وفكره، ذاك الذي قهر المتفوَّق عليه قهراً يكاد يكون شاملاً بقوة السلاح والعلم، واستباح ارضه وجهده وعقله وقيمته، فلم لا يكون في مقام التقديس أو التأليه او في أبسط الحالات وادناها، في موقع المقتدى به الفائق الإحترام؟!

إنه يملك فيما يملك إلى جانب الثروة والمصانع والتقدم التقني والتخطيط المتقدم والعقل العلمي يملك:

- الاساطيل التي تتحرك بالطاقة النووية.
- الصواريخ العابرة للقارات.
- الاقمار الصناعية ومركبات الفضاء التي تصل إلى القمر والمريخ والتي تتربع في كل مساحة من الكون فاتحة آذانها وعيونها على الخليقة.
- القنابل الذرية والنووية والنيترونية والاسلحة الجرثومية.
- قطعانا من الطائرات لا حصر لأنواعها وقدراتها ترعى سماء الله وتلقي فضلاتها المهلكة على عباده في الارض.
- عقولاً الكترونية.

● عسكرة كاملة للبر والبحر والجو والفضاء.

● فئات وأنظمة عربية او في البلاد العربية، موالية أو عميله له متواطئة معه ضد مصالح العرب جميعاً، وضد وجودهم الحيوي ثقافة وعقيدة على وجه الخصوص.

● ما لاحصر له من الأموال والشركات والمواد الأولية اللازمة للصناعات المختلفة.

● جيشاً من العملاء والجواسيس في الاختصاصات والفعاليات المختلفة.

● أنظمة ورثت معاهدة (سايكس ـ بيكو) وسواها وحافظت على تلك التركة الاقليمية القطرية التي على بركتها اصبح وطننا العربي الواحد اثنتين وعشرين دولة، والحبل على الجرار.

الم يحقق هذا كله ويوظفه ويسخره لمصلحته عقل علمي، وعلم متطور، وتخطيط دقيق يكاد يوقف الأنفاس المتلاحقة؟ إذاً كيف لا تكون هذه القوة طاغية في تأثيرها على الاخرين، وفي تدميرها لاقتناعاتهم وملكياتهم الثقافية ومقولاتهم الكلامية؟!

إن الجاهل الذي يمسك بندقية قديمة ويستعملها دون ضمير، يستطيع أن يجبر عدداً لا بأس به من المثقفين والعلماء والصالحين والمتحضرين على أن يروا الأبيض أسود ويطوعهم لارادته ويسيرهم لما يريد؟! هذا إذا كان يعرف ما يريده أصلاً فكيف بعقول تخطط لقوى عظيمة ـ ليس من الضروري ان يحكمها الضمير ـ وتستخدم اسلحة فتاكة وطاقات كبيرة، وتوجه قوتها بكل مالتلك القوة من مقومات وابعاد، ضد شعب لا يملك ما تملك من قوة وعلم وثروة، لا يرتاد الفضاء ولا يفجر الذرة ولا يستغل العلم استغلالاً حسناً؟ ألا يمكن لتلك القوى المهيمنة أن تضع جموع الضعفاء، بالمنطق أو بالقوة تحت ظروف وأساليب القهر والاستلاب، في الفلك الذي تريد، وان تحتل ارادتها وتكوّن قناعاتها وتشكلها كما تريد؟ إنها تحاول على الأقل، وتنجح في اشياء وتلقى مقاومة عنيفة في حالات، وهذا هو الغزو باشكاله العامة، والغزو الثقافي بتجلياته خاصة، الذي يظهر عندنا في صور شتى من التقليد والتبعية والانبهار والاقتداء والاستهلاك الثقافي خاصة، والذي أدى إلى أن نصبح رصيداً بشرياً مستهلكاً لبضائع ومنتوجات وسلع الغير حتى تلك التي تهلكنا، وان نصل إلى

أشكال من الانهيار امامه، والمضحك المبكي اننا نطلب منه سلاحه لنقاومه. ذلك الغزو الذي يتم بوسائل واساليب متنوعة، وتتبع خطط دقيقة وطويلة الامد، للوصول إلى نجاحات ملموسة في مجالاته.

لا أريد أن اعود إلى اشياء قديمة وحوادث في أعماق التاريخ القديم أو المتوسط للعرب أقدمها كنماذج على التزييف، كأحد أساليب تشويه الشخصية تمهيداً للغزو وتحقيقاً له، ولا أود أن أقف عند توظيف الاستشراق (كلاً أو جزءاً في مراحله الأولى أو المتأخرة) لتحقيق أطماع الاستعمار ومخططاته من جهة ولاحتلال الارادة العربية عن طريق احداث الفراغ ثم اعادة ملئه (ثقافياً وفكرياً) من جهة أخرى. سوف أكتفي بومضات اشارية إلى مراحل في الكيفية الغزوية التي تتم على الجبهة الثقافية العربية بعد أن مهدت العوامل الأخرى لنجاح الحرب على هذه الجبهة أو على الأقل لخوضها بآمال عراض في تحقيق النجاح.

- بعد أن تم الاحتلال المباشر للأرض العربية، والذي سبقه تطلع متلهف معجب جاء نتيجة لتبشير - فكري وثقافي واجتماعي وديني - بتفوق المجتمع الغربي وتقدمه علينا في مستويات وعلى صعد شتى، سرق الغرب المستعمر بشكله القديم ورموزه، وتابع الانموذج الاستعماري الارقى، الإمبريالي الصهيوني - سرق كمية كبيرة من تراثنا الفكري والعلمي والثقافي، ومن آثارنا وموروثاتنا، وأخذ يعيد تصدير بضاعتنا التي سرقها منا إلينا - على نحو ما في أشكال صياغة جديدة للتاريخ - مختومة بخاتمه ومفسره على هواه.

- أخذ ينشر كنوز تراثنا فأخذتنا الدهشة من حرصه على ذلك التراث وتفوقه علينا في معرفة ماهو لنا، وفي حفظ التراث والعناية به واستيعابه فأكبرنا فيه علمه من جهة وتكريمه للفكر والعلم من جهة أخرى.

- أطلعنا على آثارنا في متاحفه (اللوفر - الملكي البريطاني - برغامون... الخ) وأصدر لنا الدراسات والتفسيرات والقراءات المعتمدة لذلك الموروث والتراث الاثاري، فأعجبنا به وعجبنا من أنفسنا ومن اهمالنا لما يخصنا، ومن ضعفنا في معرفته وفهمه، فتراكم ذلك ضعفاً فينا على ضعف، وقلة ثقة على رصيد سابق من قلة الثقة، ولم ينس الغرب الاستعماري والامبريالي الصهيوني في المجالين السابقين أن يدس سمومه وأن يسخر الثقافة

القديمة ويوظفها لغرس جذور استعمار استيطاني، وافتعال حقوق تاريخية لصنائعه وركائزه في ارضنا على حساب شعبنا وثقافتنا ووجودنا. وكيف لا يفعل ذلك مستشرقون يهود وصهاينة استطاعوا أن يفرضوا حتى على المسيحيين عبر التاريخ تقديس تاريخهم هم في الصيغة التي قدموها للتوراة، وان يبرئوهم من دم المسيح؟!

- قدم لنا الغرب تجاربه السياسية والعلمية والإجتماعية ونظمه وصناعاته فبهرنا. وشرح لنا، او اطلعنا على فهمه للحرية واسلوب ممارسته لها فاستهوانا ذلك، وحين جربنا الخلاص من ظلمه والحصول على حريتنا منه بقوة السلاح، فصار للتجربة وللتعامل مع (العلم والقوة والتفوق) منعكسات شرطية (بافلوفية) في النفس. إذا استهوتك الحرية والديمقراطية وتقدم العلم وحياة حرة كما ترى في الغرب فأحببت أن تحقق نمطاً مستقلاً خاصاً بك لاقيت قهراً وظلماً وقتلاً. إذاً لم الطموح ولم التفكير ولم التعب؟! وحتى عندما تجاوزنا ذلك وصنعنا الاستقلال وطمحنا الى الحرية قيض لنا من انفسنا صنائع شوهت فهم الحرية ومناخها وفرضت علينا عسفا فصرنا نرى ان ذلك ليس منا وليس لنا على حين ان اجدادنا هم الذين قالوا وثبتوا في الشرائع والممارسة حقيقة جوهر القول: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً. حتى الفهم الصوفي المنصرف عن الدنيا ثبت في الدنيا فهما متفوقاً للحرية في اطار الفهم الادنى عند الصوفية لها حيث قال: «الحرية إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبداً وعند غيره حراً».

وحتى حينما رأينا في شعار التقدم منقذاً ومخرجاً قيض لنا من يشوه التقدم ويسخره ويفرغه من محتواه ويجعله تبعياً والتقدم ليس شعاراً يرفع ونشيداً ينشد، ولا هوية تمنحنا إياها دائرة أحوال مدنية خارج حدود الوطن، أو قائم بأعمالها داخل حدوده، وليست تشكلاً على نحو ما من التفكير والتعبير والتصرف، تجعلنا مصبوغين بصبغة اسمها «التقدم» بل هو ممارسة واعية لما هو أفضل للإنسان في بيئته وللأمة في تربة حضارتها وتاريخها وفي نزوعها المستقبلي، يكرس فعلاً بعد فعل، يوماً بعد يوم.

وناذر نفسه للتقدم ينبغي له أن يفهم ماهية التقدم أولاً وشكل تطبيقه في بيئته، وكيف يكون وفي أي المجالات، بعد أن يصل إلى استخلاص ما هو

التقدمي في ضوء استقراء التجربة الإنسانية ومعايير القيم، ومن ثم يبدأ التطبيق في سلوكه وعمله بمالا يمحو نفسه وخصوصيته، ويختار لمحيطه ومجتمعه ما لا يسحق محيطه أو يهجن مجتمعه، فيرضى للغير ما يرضاه هو لنفسه ويقيم في مجتمعه ما ينسجم مع روح ذلك المجتمع وشخصيته.

ولا بد من ملاحظة ظاهرة خطيرة يعيشها مجتمعنا ومجتمعات بلدان العالم النامي في علاقتها بالتقدم والتقدمية. فالتقدم ليس استيراد صرعات وتحلل من اخلاقيات، وإقامة علاقات على أسس ثبت فسادها في مجتمعات اعتبرت ذلك من التقدم، وليس التقدم نمطاً لاستهلاك ما يستهلكه المتقدم، ولا هو استيراد العقائد والفكر بعماء، ذلك الشيء الذي نكبنا به في عبادات عمياء لأفراد وأفكار، ولا هو تصنيع لمفاهيم وقيم ومعايير الغاية منها افساد تكوين القيم والمفاهيم والمعايير في هذه البلدان لاحداث الفراغ العقائدي والفكري والروحي فيها ليسهل التسلل إلى داخلها والاجهاز عليها وتصل الأمور في ظل استيراد الفكر والمعايير إلى تظاهرية تصنيعية للمفاهيم غريبة ومريبة. فالوطنية مثلاً عند فئات: ليست اخلاصاً للشعب الذي ننتمي اليه في حدود جغرافيا الوطن وتاريخه وشخصيته الثقافية، ولا تمثلاً لآمال الأمة وتطلعاتها القومية والمحافظة على مصالحها والدفاع عن استقلالها على الصعد جميعاً؟! وانما هي حسب المفاهيم العجيبة التي أشرت إليها تنكر للجغرافيا والتاريخ والشعب والثقافة. من أجل انتماءات أبسط ما يقال في الحكم عليها: انها مريضة ومنافية لأبسط مفاهيم الوطنية، وقس على هذا مفاهيم مثل الحرية والديمقراطية وسواها، حيث نجد أنفسنا أمام نوع من إرتماء المبهور أو المذعور على حد نصل عدوه في انتحار معنوي غريب وغير مبرر موضوعياً. وفي ظل هذا التضاؤل أو التخاذل أمام شخصية الغير الثقافية أو التمثل لاغراضه التي تكتسي كساءاً ثقافياً تضيع جميع القيم والمفاهيم الإنسانية التي راكمتها وأنضجتها التجربة البشرية على مر التاريخ في دوامة رخيصة من التزييف والتقليد، من الكذب والدعاوى المضللة.

إن الأدب الحق والفكر الإنساني الحق عدوان لهذا كله، وموقفهما من الوطنية والحرية والديمقراطية من التقدم والانسانية وغير ذلك من المفاهيم يتصل بالإنسان وبالحقيقة، بالمنطق والعلم والضمير، وبالارض والتاريخ

ومقومات حضارة الأمة وشخصيتها . ولا يكون رهين فهم مريض ونظرة ضيقة يمليها الانحراف والارتباط، أو الضعف والاحباط تحت أي شعار كان الانحراف والارتباط.

في هذا المستوى من التعامل ارادت القوى الاستعمارية في اوروبا واميركا أن تشعرنا بالدونية، وبأننا نحمل تشوهاً خلقياً ربما كجنس بشري (كعرب) ووجدت من أنفسنا ظهيراً لدعاواها ومقولاتها، ومن أبناء هذه الأمة مروجين لتلك الدعاوي والمقولات ولنظريات أخذت تبثها، ولجأت أولاً إلى حملات التشكيك في مقومات الشخصية الثقافية عموماً، ومن ثم في مكونات هذا الكيان وأصالته في بعض الأحيان وفي قيمته في أحايين أخرى، ووصل الامر حدود التشكيك بقدرة العقل العربي وبامكاناته، وبالجنس العربي الذي رأته محدود القدرة والعقل، فخرجت علينا بمقولات: الفكر العربي فكر تجريدي - العرب أمة بيان لا أمة برهان أي أمة كلام انشائي لا تملك العقل والعلم والمنطق الذي يحكم انسياب الكلمة توقاً لاجترار الكلمة - الشخصية العربية شخصية عاطفية لا يحكمها العقل - العربي شرقي روحي صوفي ولا يتعامل مع المادة ولا تهمه إذاً فهو يبارك نهب أرضه وشعبه، تلك الأرض التي عرفها كأحد الرحل فيها ولا فرق عنده بين مرعى ومرعى، والشعب الذي يشق عصا الطاعة عليه فيخرج عنه ويرحل بعيدا.

وواكب هذا المستوى مستوى آخر يكمله: أرض العرب لا تصلح إلا للزراعة - العرب فيهم طباع البدو الرحل لا يحبون الارض ولا يتمسكون بها ويسهل عليهم تسليمها ونسيانها - العرب بلا مدنية - اللغة العربية ليست لغة علم ولا تواكب العصر وهي جامدة مغلقة لا تتطور - التراث العربي كتب صفراء لاتفيد الإنسان العصري ولا تسهم في صنعه ولا قيمة لها ولا خير فيها - العودة للتراث سلفية رجعية تعيق التقدم، والتمسك بالدين رجعية لا تلائم العصر - كما واكبت ذلك ممارسات ارادت أن تضع العروبة مقابل الإسلام تنفيذاً لتوجهات ومخططات استعمارية وجدت منا أرضا صالحة فصنعناها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخذت (موضات استعمال الحرف اللاتيني - ودعوة العاميات، الدعوتان اللتان روج لهما مستشرقون منهم فلهلم

سبتا في مصر، واشترط بعضهما الاستعمار الفرنسي في مراحل الصراع والتفاوض معه حول الاستقلال في بعض الاقطار العربية) ـ أخذت هذه «الصرعات» تطعن اللغة العربية، وتبنى الترويج والتطبيق لذلك انصار لهذا في أوساط انعزالية معروفة في الكتائب اللبنانية ـ الفرعونية في مصر ـ البربرية في شمال افريقيا ـ وبدأت الاقليات التي سبق أن ذابت في الثقافة العربية منذ زمن بعيد تحيي موات لغات ويقدم الاستعمار خدمات لها كما فعل مع البربر والأكراد.

وليكتمل الحشد، أو قل لتكثر السكاكين حول البقرة الواقعة، أخذ أنصار الحداثة ـ وبعضهم واع ـ القافزة فوق كل أصول وتأصيل يطعنون التراث والأدب العربي الحديث ومقومات الفكر والثقافة، على طريقتهم وبمنهجيات غربية، وأخذوا يشتدون في اتهامهم للتراث وقدرته على التأصيل وفي تشكيكهم بجدوى الاصالة كلها، دون اطلاع أو دراية من معظمهم على كنوز التراث متجاهلين حقيقة ان الحكم دون اطلاع ضرب من عماية.

وبدا أن التخلف العربي العام والعلمي منه خاصة يواكب ذلك ويشكل خلفية مصداقية له، ويشير إلى مصداقية الطروحات الغربية. الأمر الذي أحدث خللاً ما في الوقائع. وتناسي الجميع ان مرحلة التراث العربي المجيد كانت مرحلة تقدم وازدهار مجيدة على الصعد جميعاً، وأن ما نحن فيه من تخلف علمي سببه نحن أعني أجيالنا سياساتنا تربيتنا مجتمعنا، لا التراث الذي لا يعرف الكثيرون منه القليل، والذي لا يتداول معظم المنشور منه إلا بين مختصين فضلاً عن وجود معظم الكتب العلمية منه كمخطوطات في غياب تام خاصة: الرياضيات والطب والحكمة، ولا تؤثر في ساحة التداول ولا في علم الأجيال، في حين أنها يمكن ان تشكل بمكانتها التاريخية في زمنها حافزاً على التحصيل، وتصحح كوثائق مسار التاريخ للعلوم ولمكانة أو دور العرب في النهضة الانسانية.

إن هذا الذي عرضته بعامة، آخذه في اطار مقارنة مع ما يحرز الغرب من تقدم كبير ومع الحوافز التي يضعها للتقدم، ومع ما نقوم به من عمليات تجريح الذات وغرس الاحساس بالدونية فيها. وكل هذا بنظري يقدم ادلة على نجاح حملات وأساليب التشكيك التي تهدف إلى زعزعة ثقة العربي بنفسه

وبثقافته وبأصالته وبقيمة ما يملك من مقومات فكرية وثقافية وعقائدية تمنحه الإستقلالية والهوية والعصرنة في آن معاً، وذلك يتم لاجتثاث الانسان العربي من تاريخه بعد أن مهدت الطريق لاجتثاثه من أرضه، ونجحت تجربة الاستعمار حتى الآن في غرس كيـان استعمـاري استيطـانـي صهيـونـي في فلسطين.

وتراكمت حملات التشويه والتشويش كلها بفعلنا قبل فعل سوانا لاحداث فراغ ثقافي في الساحة العربية إن لم يكن فراغ وجود عربي حي يتجسد في:

١ ـ رفض العربي لتراثه واتهامه اياه بانه أكوام من الكتب الصفراء ميتة الفاعلية ولا نفع فيها ومثل ذلك الموروث.

٢ ـ تشكيك بقيمة وجدوى ما قدمه اعلام ثقافة عصر النهضة العربية الحديثة وسواهم، لأن العصر تجاوزهم، ولأن ثقافتهم لم تخلق جيلاً عربياً تقدمياً مناضلاً يحمي الارض ويقيم مجتمع الحرية (متناسين التحرير الذي بذلت فيه تضحيات وقدمت دماء وشهداء بما يفوق بمراحل تلك التي قدمها شعبنا عند دخول الاستعمار بلاده، ومعروف جداً ان إخراج المستعمر أصعب وأرهب بكثير من فترات احتلاله ودخوله».

٣ ـ تسويغ وتلميع تجارب و(تقليعات) فكرية وأدبية لا تحمل سلامة اللغة ولا أصاله الثقافة ولا مشاكل الواقع وتجارب إنساننا وتطلعاته، وجدية معالجتها، والتي تطغى فيها تهويمات لا يقبلها القارىء ولا تؤثر فيه تأثيراً ايجابياً إذا ما أقبل عليها، كما انها لا تصمد للنقد الواعي لوظيفته ودوره ولمتطلبات المرحلة والتطور، والمتحمل لمسؤولياته جميعاً.

الأمر الذي يشير إلى فقدان التواصل الثقافي بين الأجيال والتراث من جهة، وبين المثقفين والواقع بجماهيره، وبين القارىء والانتاج الثقافي من جهة أخرى، وحتى بين الناقد والكاتب. وإلى موجة تشكيك عامة يصاحبها فقدان الثقة وفقدان الأمل في الوصول إلى مخرج أو خلاص.

٤ ـ تمزق سياسي عربي مزر، أودى بالقوة والهيبة العربيتين ووصل بالآمال الوحدوية والتحررية إلى أدنى مستوى.

٥ ـ زحف عربي للإستسلام وتصفية القضايا مع وجود لاءات كبيرة لا تملك رصيداً متحقق المصداقية لتنفيذ الطموح الكبير إلا في استثناءات مراحل

وحالات ومواقف لا تشكل ارضية جديدة تترسخ عليها الاقدام باطمئنان .

٦ ـ عدم تحقيق تقدم فعلي في مجالات ايجاد البنية الإجتماعية المتطورة ، ونزوع أنظمة الحكم العربية إلى اهمال الجماهير وقطعنتها ، وإلى اعتماد ديمقراطيات شكلية ، وعدم احترام الإنسان وحقوقه العامة وحرياته الأساسية ، وعزله أحياناً عن ساحة الفعل السياسي ، وإنتشار الفساد في حياته وقيمه العامة إجمالاً ، وتسطح مفاهيمه واهتماماته ، وسيادة قيم مجتمع استهلاكي مصحوب بغياب قيمة العمل وشرف الانتاج .

٧ ـ استمرار تواجد العدو في الارض العربية ، وازدياده قوة وشراسة وبطشاً دون اي حل عادل ، ودون قوة حقيقية قادرة على مواجهته مواجهة شاملة ، ونفاذ رأي العدو وتهديداته وسيطرته دون أدنى رادع عربي ، مع تراكم ما يتركه ذلك من تأثير في النفس ، واثقال للضمير وفتك في الإرادة لدى الافراد والجماعات ، وتأثيره على نمو أجيال عربية في ظل هذا الوضع المتخاذل وهذه الوقائع الفضاحة .

٨ ـ حملات اعلامية (عربية ـ عربية) لا تحترم العقل ولا العلاقات الأخوية العربية ، ولا تقيم وزناً لمقومات وأخلاقيات العقيدة الواحدة ، والصلات القومية والآمال الوحدوية المشتركة ، فضلاً عن عدم احترامها للإنسان المتلقي لها والمتفاعل معها ، والذي لا تتورع عن ادخاله في دوامة التناقضات التامة في فترات متلاحقة ومتقاربة تماماً ، وتأثير ذلك على ذهنه ومحاكمته وتكوين مواقفه وعواطفه وآرائه ، وزرع بذور مصداقية مالديه ، فضلاً عن انطلاقها ، قاصدة أو غير قاصدة ، من عدم احترام للانسان وعقله ودوره بله حريته واختياره وارادته . منطلقة في ذلك من الغاء الأمة واعتماد سياسة : الفرد والأمة .

٩ ـ تراكم حملات الاعلام المضاد (امبريالي ـ صهيوني ـ استعماري .. الخ) ضد الانسان العربي بهدف خلق مناخ يستفيد من حالة عدم الثقة التي هو فيها ومن انعدام المصداقية . بتقديم مصداقية مسممة إليه وتنمية الشك السلبي وغير المنهجي فيه وفيما يقدمه اعلامه اليه . واستلابه التام من كل ما يبني ارادته وثقافته وثقته بنفسه وتعمد التركيز على تيئيسه .

١٠ ـ فقدان الكلمة لمصداقيتها أو لبعض مصداقيتها في الحياة العربية مما

أدى إلى غياب دورها ومفعولها المؤثرين في معركة التصدي لحملات الغزو ، سواء كان ذلك في الثقافة أو في الأدب أو في الصحافة ، أو في خطب الساسة وتصريحاتهم . فغالباً ما ننتصر في الإعلام ونكتفي بتقديم وعود لا رصيد لها . الأمر الذي انعكس سلبيا على دور المثقفين ودور الكلمة ومفعول وسائل الاعلام العربية في مواجهتها ، ذلك لأنها ارتبطت في الاعلام بالتضخيم وحتى بالكذب على عكس ما هو عليه حال الكلمة في الإعلام المعادي المسموم والمخادع الذي اكتسب مصداقية عند الجماهير العربية ، لأنه يقدم حقيقة ولكنه يوظفها لصالحه باسلوب ما ، ويثبت مصداقية ما يقول ، ويقدم سيلاً من الأكاذيب فيما بعد على شكل حقائق ،فيعجب مستمعنا بالحقيقة التي يفتقدها في أجهزته ويتوق اليها في حياته ، ويغيب عنه التوظيف المغرض الخبيث في الاعلام المعادي ، ولكنه يقع تحت تأثيره غير المباشر في النتيجة .

١١ ـ الإستيراد العربي العام لسلع الغرب ومنتوجاته (وتقليعاته) من صغيرها إلى كبيرها ، المادي منها والمعنوي ، النافع والضار ، واستيراد القيم والمعايير والفاسد من السلوك بوجه خاص . دون مراعاة لما يصلح لنا وما يصلحنا ، باعتبار أننا مجتمع له كيانه وشخصيته المستقلة والمتمايزة عن سواها .

ان الجهات والمؤسسات التي تعمل على احداث الفراغ الثقافي عندنا وتحمله بيد (إن صح التعبير) تحمل باليد الأخرى ثقافة بديلة تزرعها يومياً في اعماق تكوين المواطن العربي وترعاها ، ثقافة مستوردة ، غازية ، تهدف إلى تطويع العقل العربي والتوطن فيه ، واحتلال الارض بأدوات بشرية مسخرة وتحريك ارادتهم بما يخدمها وجعل الانسان العربي يفقد مع الزمن كل صلة له بحضارته وثقافته وأصالته ، بفكره وباستقلاليته ، ويفعل كما يريد له الطامعون به وبأرضه وبخيراته ، الغازون لشخصيته ، المحتلون لارادته ان يفعل لتنفيذ مخططاتهم وخدمة مصالحهم . والخطورة في هذا الوجه من وجوه الغزو والتوطن ان بعض دعاته من أبناء الأمة والمنتمين إلى ثقافتها ، وان الجبهة الموكلة بالمواجهة هي الجبهة الثقافية التي تأتي في آخر سلم الاهتمامات لدى الأنظمة العربية .

فما السبيل أو السبل للخروج من هذا وامتلاك انفسنا ومقدراتنا فعلاً ؟

لا أملك وصفة طبية شافية ، وانما أملك أن أجتهد وقد اخطىء أوأصيب . ليس العلاج في إن نقفل على انفسنا الأبواب والنوافذ فنتقوقع خوفاً أو ظناً منا أننا افلسنا ولسنا أهلاً . ولا في أن نكتفي بالعودة إلى التراث عودة تغيبنا فيه عن العصر الذي نحن فيه وعن حقائقه ومعطياته ، وتحرمنا من التطلع إلى الثقافات الاخرى وإلى المستقبل الذي يمر بنا ولا يحملنا معه إذا لم نركض لنواكبه أو نكونه .

وليس العلاج في أن تتكرم الثقافة ـ أو الثقافات ـ الغازية بأن تكف بلاءها عنا وتتركنا وشأننا ، لأن عقلنا لن يقبل ذلك من جهة ، ولأن حيويتها ومصالح حامليها ومطامعهم لن تفعل ذلك ، فهي ترمي إلى التلاقح مع الآخرين ، كما يرمي الآخرون إلى التلاقح معها ، ونحن لنا مصلحة في حوار الغير لنغني ونغتني .

وليس الحل في أن نهجر القديم كله لأنه أصل تخلفنا وسبب بلوانا كما يحاول البعض أن يقول فلم يكن كذلك أبداً ، بل انه فيه جوهر أصالة ونار ثورة ونبع قيم وحوافز نضال نحن أحوج ما نكون اليها جميعاً . لا أدعى أنني ساكتب هنا وصفة سحرية فيها العلاج وفيها الشفاء ، ولكنني استطيع أن أؤكد هنا حقيقة ان الإنسان العربي ليس فيه نقص خلقي من أي نوع ، وأن ارثه الحضاري من أغنى المواريث الإنسانية ان لم يكن اغناها ، وهو ارث لم يتجاوزه الزمن كله ، وفي كثير منه خير كثير ، وان تاريخه الطويل على كثرة ما فيه من نكبات وكوارث وظلم وخضوع لانواع من الاضطهاد والاستعمار ، لم يشهد الذوبان أو التلاشي او حتى محدودية فاعلية المقومات الثقافية للشخصية العربية ، ومقاومتها وقدرتها على الانبعاث بحيوية وفعاليتها في استنبات مورثات ومحرضات ومكونات الارادة الصلبة الواعية والمقاومة العنيدة .

وان الثقافة العربية لم تكن في يوم من الايام معزولة عن الثقافات الإنسانية فقد عايشت ثقافات الأمم منذ اقدم العصور ، وصمدت للقائها ، وتفاعلت معها تفاعلاً ايجابياً ، فثاقفتها في فترات ازدهارها وانحسارها اخذت منها واعطتها ، واغتنت بها وأغنتها بحيوية وانفتاح واقتدار دون عقد ، ودون أن يؤثر ذلك سلبياً في ملامح هويتها أو في مقومات ومكونات اصالتها وكانت في لقائها الخصب مع تلك الثقافات تتواصل وتتفاعل بحيوية من موقع الثقة ، تتمثل ما

تأخذ ولا تمتثل له، فلم يتزعزع نزوعها الإنساني، ولم تكن يوماً تابعاً ذلولاً، ولا متعالية قتولاً.

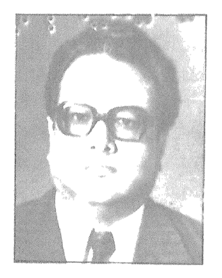
وان الاستجابة للغزو استعداد في الاصل للتخلي عن الذات عند المغزو وتآكل في كيان الثقة ومناخ الحرية، وتقييد لانطلاقة قدرات الفرد والمجتمع. فما الذي يمنع الإنسان العربي اليوم من أن يستعيد تواصلاً واعياً مع تراثه الثقافي من جهة، ومع معطيات واقعه وثقافة عصره وموحيات نضاله من جهة أخرى؟ ليواكب التقدم بأصالة، وليكون ذاته بعمق، وليحرز خصوصيته ويكرسها في ثقافة هي رفد واغناء للثقافة الإنسانية، كما هو عليه أمره في معركته وواقعه وظروفه ومع الظلم الفريد الذي يحيق به؟! ما الذي يمنعه من تحقيق الأمن الثقافي الذي هو صمام أمن الأمة حتى لو بقيت على أرضها سيدة حرة؟

هل يكون هذا عبئاً من أي نوع عليه هو؟! لا فيما أظن انما العبء يصبح ثقيلاً وغير محتمل، فيما يبدو لي، على من يريدونه عبداً سطحياً غفلاً من كل معرفة ووعي، على من يريدونه مكبلاً لا يمارس حريته ولا تحفظ له حقوق ولا حريات، على أنظمة ودوائر استعمارية وامبريالية وسواها من أصحاب المصالح الذين تضافرت جهودهم وتتضافر لمنع الشعوب من التحرر والتحرك، من الانتصار على اشكال الظلم والاستلاب، سيكون العبء ثقيلاً على فئات وأنظمة عربية، تعمل على تفتيت الشخصية الثقافية العربية من الداخل لتحقيق وجود فردي وقطريات لها ثقافات وخصوصيات ثقافية وحضارية على حساب الأمة، ولتحقيق مشروع الحاق الأمة بأمم اخرى وجعلها حقل مصالح يستثمره الغير ولهم منه الفتات.

فأن يكون الإنسان العربي مثقفاً فعلا ومتأصل الجذور في أرضه وتربته الثقافية، ومتواصلاً بحيوية مع عقيدته وواقعه المعيشي، ان نكون كما قال رجالاتنا أحراراً كما ولدتنا أمهاتنا، وأن نطبق ديمقراطية سليمة، وان يقوم البدوي منا بسيفه «عمرنا» إذا أخطأ. أن يكون الشعب العربي هكذا أمر يشكل كارثة على أعدائه وعلى الطفيليين الذين يمتصون دماءه، ويشكل طريق النهضة والتحرر والنصر والتقدم. ولكن هذا الذي يبدو لجهات ودوائر وفئات طفيلية على الحياة والتاريخ، رهيباً ومرعباً، آت لا ريب فيه، آت لا ريب فيه.

المحاضرة الثالثة

الإسلام والشعر



للأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن



الاستاذ الدكتور ابراهيم عبدالرحمن محمد ابراهيم

● من مواليد بنها القليوبية في ٣٠ / ٤ / ١٩٢٩ بجمهورية مصر العربية.

● حصل على ليسانس الاداب جامعة عين شمس ١٩٥٤.

ـ درجة الماجستير في الاداب جامعة عين شمس ١٩٥٩.

ـ درجة الدكتوراه في الاداب جامعة لندن ١٩٦٤.

● عمل كمعيد بكلية الاداب من ١٩٥٧ ـ ١٩٦٣ ثم مدرس ٦٣ ـ ٧١ واستاذ مساعد ٧١ ـ ٧٦ ثم استاذ للادب والنقد اعتبارا من ١٩٧٦.

ـ رئيس قسم اللغة العربية وادابها بكلية الاداب جامعة عين شمس ٧٦ ـ ٧٩ ومن ٨٣ إلى الآن.

ـ مدير مركز الخدمة العامة بجامعة عين شمس اعتبارا من ١٩٨٤.

ـ استاذ معار بجامعة الكويت من ٦٧ إلى ٧٠ ومن ٧٩ ـ ٨٣.

● أهم وابرز المؤلفات:

ـ ابن قيس الرقيات: حياته وشعره.

ـ الشعر الجاهلي: قضاياه الفنية والموضوعية.

ـ الادب المقارن بين النظرية والتطبيق.

ـ بين القديم والجديد: دراسات في الادب والنقد.

ـ له سلسله من المقالات والبحوث نشرت في المجلات المصرية والعربية.

● أهم المؤتمرات والندوات التي شارك فيها.

ـ مؤتمر المسلمين بالهند.

ـ ندوة القاهرة للابداع العربي.

الإسلام والشعر

حين نترك العصر الجاهلي إلى العصرين الإسلامي والأموي، فأننا ننتقل بذلك مع الشعر العربي إلى مرحلة جديدة من حياته الفنية، وهي مرحلة جدت فيها ظروف مختلفة: دينية وسياسية وحضارية، كانت لها آثارها الواضحة على قضايا هذا الشعر الفنية والجمالية. وقد كان ضعف الشعر في صدر الاسلام، لغة وأسلوبا من أكثر هذه القضايا إلحاحاً وأشدها خطراً. وقد تجلى موقف القدماء من إثر الإسلام في ضعف الشعر، أكثر ما تجلى في ثلاثة من النصوص التي وصلت الينا منسوبة إلى ثلاثة من أعلام القدماء، اثنان لغويان وراويتان معروفان هما: ابن سلام والأصمعي والثالث مؤرخ هو ابن خلدون وننقل هنا هذه الروايات الثلاث بترتيبها التاريخي، وفي نصوصها التي وردت فيها، لنرى ما فيها من حق، وما يشوبها من باطل:

١ ـ يقول الأصمعي في تعليقه على شعر حسان بن ثابت بسبب ما غلب على بعض نصوصه من الضعف الفني: «الشعر نكد، بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره! وقال مرة أخرى: «شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه في الإسلام، لحال النبي ﷺ»!

٢ ـ ويقول ابن سلام معللا ما أصاب الشعر الجاهلي والإسلامي من وضع وتزييف: «فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم، ولهت (العرب) عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا اقل من ذلك وذهب عليهم منه كثير. فلما راجعت العرب رواية

الشعر، وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلّت وقائعهم واشعارهم وارادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الاشعار التي قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون».

٣ ـ وقد ترددت هذه الآراء في مقدمة ابن خلدون حيث جاء فيها قوله: «انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من اسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً، ثم استقر ذلك وأوتي الرشد من الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره. وسمعه النبي ﷺ، وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه».

وقد اخذت هذه المقولة عن أثر الاسلام في ضعف الشعر، تتردد هنا وهناك في أقوال القدماء والمحدثين، حتى بلغت مبلغ العقيدة الراسخة التي لا تكاد تقدر على نقضها أية حقيقة اخرى مهما كانت شواهدها وأدلتها! وقد ذاعت في اقوال المستشرقين خاصة، الذين راحوا يسوقون بين يدي هذا الزعم اسباباً مختلفة، ويرتبون عليه نتائج خطيرة تتصل بموقف الإسلام من الفنون بعامة.

ونقف هنا عند واحد من هؤلاء المحدثين هو الأستاذ «جب» الذي يذهب إلى حد القول «بأن الإسلام والرسول الذي كان له شاعره الخاص به، حسان بن ثابت قد وقف منذ البداية موقفا معاديا للفن الشعري، ذلك أن هذا الشعر كان سجلاً للقيم والمثل الجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عليها».

ومن هنا فيما يرى «جب»، «نبعت هذه الحقيقة التي تصدمنا وهي أن ظهور الإسلام لم يخلق شاعراً واحداً في أمة الشعراء! وأن تسجيل الشعر الإسلامي لأمجاد الإسلام بالقياس إلى أمجاد الماضي في الشعر الجاهلي، لا يتعدى قصيدة واحدة هي قصيدة كعب بن زهير «بانت سعاد» وحتى هؤلاء الشعراء المعروفين الذين كانت لهم مكانتهم الشعرية في الماضي قد أمسكوا عن قول الشعر فلا يعرف مثلا شعر إسلامي للبيد، ذلك الشاعر العظيم الذي كان شعره كما تصوره معلقته المعروفة من خير اشعار الجاهلية جميعاً على الرغم من أنه عاش بعد إسلامه ما يقرب من ثلاثين عاماً».

وواضح أن «جب» يكاد يلخص في هذه الفقرة التي اجتزأناها اجتزاء من كتابه، الآراء والتفسيرات المختلفة التي أخذت تتردد في أقوال القدماء والمحدثين حول أثر الإسلام والقرآن في ضعف الشعر وانصراف الشعراء عن نظمه.

ونستطيع ، حين نضم هذه الأقوال بعضها الى بعض، أن نلخص الأسباب التي يعلل بها القدماء والمحدثون ضعف الشعر الإسلامي: في أن الإسلام قد وقف في وجه الشعر وشغل العرب منذ ظهوره بالنبوة والوحي، وبالحروف والفتوحات، مما دعا أكثر الشعراء إلى الانصراف عن نظمه، وأن تغير القيم الجاهلية إلى قيم إسلامية، وسمو النص القرآني وارتفاع مستواه الفني، قد ترك في نفس الشاعر القديم آثاراً حادة من الحيرة بين قيمه القديمة وتعاليم دينه الجديد، بحيث انتهت به الحيرة الفنية والدينية إلى جمود عاطفي وفني، تجلت آثاره في الاشعار المبتذلة من شعر حسان وغيره من شعراء المسلمين، كما تشخصها النصوص الشعرية الوفيرة التي دونها ابن إسحاق في كتابه عن «سيرة الرسول» وأن الوضع والتزييف في رواية الشعر القديم عامة قد أصاب رواية الشعر الإسلامي بالضعف والاضطراب والابتذال.

وفميا يتصل بموقف الإسلام من الشعر، فإنه من الواضح أن هذه الآراء قد تأسست على فهم غير صحيح لمغزى الآيات القرآنية المتصلة بالشعر والشعراء، وهو فهم كما سوف نرى يمسك بالمعنى الظاهر دون أن يتعمق أصحابه في معرفة الدوافع الحقيقة التي حدت بالقرآن، في هذه الآيات، أن يقف هذا الموقف أو ذاك من الشعر والشعراء، وهذا يدل على أن هؤلاء الدارسين من القدماء خاصة، كانوا يصدرون عن «تحرج ديني» في تحديد موقف الإسلام من الشعر، أكثر من صدورهم عن نظر صحيح في آيات القرآن ومعانيه! ونظرة سريعة في هذه الآيات وما حشده المفسرون حول مناسبات نزولها من أخبار، لتدلنا على أن القرآن لم يقصد في هذه الآيات أو غيرها، إلى التقليل من قيمة الفن الشعري، ولم يدعُ إلى الانصراف عن نظمه. فقد ارتبطت هذه الايات، كما ترتبط غيرها من النصوص القرآنية بظروف خاصة تتصل اكثر ما تتصل بالدفاع عن الرسول والقرآن والإسلام بحيث يستحيل علينا فهمها وتفسيرها تفسيرا صحيحاً منعزلة عن هذه المناسبات التي نزلت بسببها. فأما

هذه الآيات فهي قوله تعالى:

١ ـ ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ .

٢ ـ ﴿بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ سورة الانبياء ٢١ .

٣ ـ ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون، بل جاء بالحق، وصدّق المرسلين﴾ .

٤ ـ ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون. قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ .

٥ ـ ﴿إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين﴾ .

٦ ـ ﴿هل انبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل افاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ .

وأول ما نلاحظه أن هذه الآيات جميعا قد نزلت في مرحلة بعينها من مراحل الدعوة الإسلامية، هي تلك الفترة المبكرة التي انشغل فيها الرسول وانشغل ا لمسلمون معه، بمجادلة الكفار حول النبوة وحقيقة القرآن ـ أو هي إذا اردنا تحديد ذلك تحديداً دقيقاً آيات مكية تتصل بهذا الصراع الجدلي بين الرسول ومعارضيه من كفار مكة ـ وهي لذلك تكاد تدور، بما فيها الآية الاخيرة حول قضية واحدة، هي تأكيد نبوة الرسول وتصحيح النظرة للقرآن من حيث هو نص ديني قد اوحي به إلى الرسول الكريم. وقد حرصت هذه الآيات لتحقيق هذه الغاية الدينية، على نفي صفة الشعر عن القرآن وصفة الشاعر عن الرسول الكريم. وتدلنا اخبار هذه الفترة على أن المعارضين للرسول قد عمدوا للتشكيك في النبوة والقرآن، إلى إلصاق صفة الشعر به. وقد وهم كثيرون من القدماء فذهبوا إلى الاعتقاد بأن هذا يدل على أن هؤلاء المعارضين قد فتنوا ببلاغة القرآن وعجزوا عن معارضته، فوصفوه بأنه شعر ووصفوا الرسول بأنه شاعر! ولا نظن أن مثل هؤلاء المعارضين للدين في مثل

هذه المرحلة من حياة العرب كانوا لا يقدرون على التمييز بين النص القرآني والنص الشعري، أو أنهم قد اثاروا في هذه المرحلة، على الأقل هذه القضية البلاغية على نحو ما يعتقد هؤلاء القدماء من الرواة واللغويين والمفسرين، ولكن كان أمر الدعوة الإسلامية بالنسبة إلى ماضيهم وحاضرهم أمر ماض ديني عاشت فيه الجاهلية واطمأنت اليه وأمر تقاليد اجتماعية وخلقية كانت قد استقرت في نفوس هؤلاء القوم، وانتهت بهم إلى فلسفة بعينها في الحياة وعقيدة في الموت أخذ الشعراء يدورون حولهما في اشعارهم، فلما جاء الإسلام اخذ ذلك كله ـ بفضل الحاح القرآن على تأكيد وجود الله الخالق ووحدانيته وتأكيد البعث وما يتبعه من الثواب والعقاب، ومن الجنة والنار ـ يتهاوى تحت ضربات العقيدة الجديدة للدين الوثني القديم. ومعنى ذلك أن الصاق المعارضين للإسلام صفة الشعر بالقرآن، وصفة الشاعر بالرسول، إنما ينبع من حقيقة اخرى أشد خطراً وابعد أثرا مما يتوهم أكثر الدارسين، هي أنهم كانوا يقابلون بين عالمين، عالم الشعر وعالم القرآن، فقد هالهم ما جاء به القرآن من وصف للبعث والجنة والنار، وغير ذلك من أنباء العالم الآخر، وهو عالم كان بالنسبة إليهم مجهولا، فقد خلصت فلسفتهم في الموت إلى أنه نهاية الإنسان، ومن ثم فقد بدا لهم هذا العالم كما جاء ذكره في القرآن غريبا عليهم فرأوا فيه لذلك عالما شعريا بكل ما يمتاز به هذا العالم الشعري من خيال ومبالغة وبعد عن الحقيقة. ونريد أن نصل من هذا كله إلى القول بأن منحى الإسلام في نفي صفة الشعر عن القرآن، وصفة الشاعر عن الرسول الكريم، لا يدل على معاداة الإسلام لهذا الفن القولي، ولكنه في حقيقته محاولة غايتها تنزيه القرآن وتنزيه الرسول عن مثل هذه المبالغات التي تعد من الصفات الغالبة، بل قل الأساسية للفن الشعري. ونستطيع حين نعود إلى هذه الآيات ان نجد القرآن، في اكثرها يقرن بالشعر والشعراء صفات بعينها: وهي صفات تعكس هذا الانطباع الذي كان يصدر عنه الناس في ذلك الوقت بل لا يزالون يصدرون عنه اليوم في وصف الشعر والشعراء، وهو الإغراق في الخيال والانفصال عن الواقع، أو قل خلق هذا الواقع خلقا جديداً تستحيل فيه الحقيقة الواقعية إلى حقيقة فنية أو شعرية، إذا جاز هذا الوصف، فهو ينفي عن القرآن ان يكون «أضغاث احلام» أو قول كاهن كما ينفي عن الرسول

أن تتنزل عليه «الشياطين». وهذه كلها أمور تتصل بالصناعة الشعرية على نحو ما كان يعيها اصحابها من الشعراء، بل على نحو ما كانت تعيها هذه البيئة الجاهلية عند ظهور الإسلام.

ولا حاجة بنا إلى التدليل على ذلك فقد تواترت أقوال القدماء عن الخيال الشعري والمبالغة فيه، وعن ميل الشعراء الى العبث واللهو والخروج عن تقاليد القبيلة وقيم الحياة الخلقية، والاجتماعية، مما جعل منهم طبقة خاصة تتميز بسلوك خلقي شاذ. كما تواترت أقوالهم عن الشياطين الذين كانوا يلهمون هؤلاء الشعراء قصائدهم في شكل حكايات اسطورية مستمدة من عالم الجن الذي رايناهم فيما مضى يخلقونه على مثال عالمهم ويكونونه من قبائل تعيش في أودية بعينها مثل وادي «عبقر» ووادي «وبار».

ومغزى هذا كله أو قل يعنينا من هذا كله أمر واحد، هو أن هؤلاء الشعراء كانوا يزعمون أنهم على اتصال بعالم الجن وهم لذلك، كانوا يأتون في اشعارهم بما لا يتأتى معرفته لغيرهم من ابناء بيئتهم مما حدا بهذه البيئة أن تحاول عن هذا الطريق تعليل ما يعرف في النقد الحديث «الإلهام الشعري» وهي قضية قديمة قدم الفن الشعري ذاته. وفي أقوال القدماء ما يؤكد هذه النظرة الخاصة إلى طبيعة الفن الشعري وكيفية صدوره عن الشعراء - وهذه المكانة أو هذا الفهم لطبيعة الشعر وسلوك الشعراء يفسران لنا وصف المعارضين للرسول بأنه شاعر وللقرآن بأنه شعر، فقد كان ذلك كما قلنا محاولة لنقض هذا العالم الديني الذي يتحدث عن البعث والجنة والنار على نحو لم يألفه العرب ولم يسمعوا به من قبل.

ولدينا من أقوال القدماء أنفسهم ما يؤيد ما نذهب اليه، فأبو حاتم الرازي يجمع في كتابه «الزينة» مادة إخبارية واسعة حول هذه الايات ومناسبتها، وهي مادة نراها تتكرر في تفسير القدماء - فيقول: «إن القرآن قد نزل بتهجين الشعر حين شبه الكفار والمنافقون ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ بالشعر، فأنزل الله عز وجل تكذيبا لقولهم: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ يعني أن القرآن هو كلام الله عز وجل، هو الحق الذي لايشوبه باطل، والصدق الذي لا يخالطه كذب، حكمة بالغة منزهة عن قول الشعر وتخرص الشعراء. وصان عز وجل رسوله صلوات الله عليه عن إنشاء الشعر

فضلا عن قيله، لكي لا يختلط كلام الله بالشعر، فلم يقل شعراً قطا ولا رواه».

ويستطرد ابو حاتم فيقول: «إن الذي أنزل الله عز وجل في تهجين الشعر قوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ وقوله عز وجل﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ فهذا في الشعراء الذين هجوا رسول الله ﷺ مثل: كعب بن الأشرف، وعبدالله بن الزبعرى قبل دخوله الإسلام، وهبيرة بن ابي وهب وغيرهم ممن آذوا الرسول بهجائهم اياه، والغاوون هم الذين اتبعوه من كفار قريش وغيرهم ممن رووا ذلك الشعر معاداة له وتعصباً عليه. ثم استثنى عز وجل المؤمنين من الشعراء، فقال عز اسمه: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني عبدالله بن رواحه وحسان بن ثابت وكعب بن مالك الذين نصروا رسول الله ﷺ بالسنتهم ودافعوا عنه بشعرهم. ولولا ما في الشعر من النفع والنصرة لما استثنى الله عز وجل المؤمنين من الشعراء، ولا جعلهم ممن انتصروا لرسول الله ﷺ ممن ظلمه بشعره وآذاه بهجائه، ولما سماهم منتصرين بالشعر، فقال ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾. فهجن ما تخرصوه من الكذب، وما لفظوا به من الكفر، بهجائهم النبي ﷺ، ولم يهجن غيره من الشعر ولا أسقط ما فيه من النفع ولا أبطل ما فيه من الحكم».

ولم يكن أبو حاتم الرازي هو وحده الذي راح يفسر هذه الآيات القرآنية تفسيراً يكشف عن الدوافع الحقيقية وراء نزولها، ولكنا نجد «الطبري» المؤرخ والمفسر والراوية المعروف، يرى في هذه الآيات ما أشرنا اليه، من أن القرآن لم يقف قط موقف المعارضة من الفن الشعري، إلا في حدود ما يتصل منه بهجاء الرسول ومعارضة الدين الجديد. ولعل اطرف ما يذكره «الطبري» في تفسيره لقوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ انها نزلت في رجلين لعهد الرسول، «أحدهما من الانصار، والأخر من قوم آخرين، وانهما تهاجيا وكان مع كل منهما غواة قومه، وهم السفهاء» ـ ثم عاد الطبري فذكر أن حسان ابن ثابت وعبدالله بن رواحه وكعب بن مالك، جاءوا رسول الله وهم يبكون فقالوا: ﴿ألا قد علم الله حين انزل هذه الآية انا شعراء»! فتلا الرسول: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

ومن العبث ان نمضي في تسجيل آراء هذين العالمين حول تفسير هذه الآيات التي عرضت للشعر والشعراء، فهي جميعاً تدور حول أصلين مهمين: الأول تنزيه الرسول والقرآن وتخليصهما من تلك الشبهات التي كان يثيرها المعارضون من كفار قريش من أن الرسول شاعر: ومايتلوه من القرآن شعر.

والثاني، مهاجمة شعراء الكفار الذين آذوا الرسول وآذوا المسلمين بألسنتهم وتحريض شعراء المسلمين على الرد عليهم.

ومعنى هذا كله ان القرآن في موقفه الصحيح من الشعر لم يعرض لهذا الفن من حيث هو فن خالص، ولكنه عرض بوصفه سلاحا كانت تستغله فئة ظالمة للتشكيك في نبوة الرسول، والغض من قيمة القرآن.

وحين نترك موقف القرآن إلى موقف الرسول، فإنه ينبغي أن تتوقع منذ البداية، أن تكون سنة الرسول موافقة لما في القرآن، وقد حفظ أبو حاتم الرازي، كما حفظ غيره من الرواة، قدراً لا بأس به من الأخبار والأحاديث والروايات التي تعرض لموقف الرسول من الشعر، وتكشف عن صلاته بشعرائه من المسلمين الذين كانوا ينافحون عن الدعوة الاسلامية. وتعكس هذه المادة الاخبارية امرين لهما خطرهما: الأول، أن الرسول كان يتذوق الشعر، وهو لذلك يحرص على أن يستمع إلى شعرائه ويأمرهم أن ينشدوه بين يديه. والثاني، أنه كان يحرص على أن يتخذ من هذا الفن سلاحاً يستغله في مهاجمة الكفار والدفاع عن الدين.

(١) ولدينا مما يصور احتفال الرسول بالشعر، وتذوقه لنماذجه الجيدة ومشاركته في نقد معانيه، ما يروى من أن بعض الشعراء أنشده قوله:

فحـــي ذوي الاضغـــان تَسْـــبِ قلـــوبهـــم
تحيتـــك الأدنـــى فقـــد يـــرقـــع الثغـــل

وإن دحســـوا للـــود فـــادحس بمثلـــه
وإن خنســـوا عنـــك الحـــديـــث فلا تســـل

وإن الذي يـــؤذيـــك منـــه سمـــاعـــه
وإن الذي قـــالـــوا وراءك لـــم يقـــل!

فقال: «إن من الشعر لحكمة، وان من البيان لسحرا».

(٢) ويروي ابو الفرج خبرا عن «أنس بن مالك» يقول فيه إن رسول

الله جلس في مجلس ليس فيه إلا خزرجي واحد، ثم استنشدهم قصيدة قيس ابن الخطيم، يعني قوله:

أتعرف رسما كاطّراد المذاهب
لعمرة وحشا غير موقف راكب

فانشده بعضهم اياها، فلما بلغ قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا
كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ فقال: «هل كان كما ذكر» فشهد به ثابت ابن قيس بن شماس، وقال له: «والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد خرج الينا يوم سابع عرسه، عليه غلالة وملحفة مورسة فجالدنا كما ذكر».

(٣) وكان كعب بن زهير قد هجا الرسول، فكتب إليه بجير بن زهير: إن رسول الله ﷺ قد قتل رجلا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه بشعره فاقدم عليه، فإنه لا يقتل احدا جاءه تائباً مسلما، أو اهرب إلى نحاياك من الأرض. فقدم عليه مسلماً ودخل المدينة متنكراً، فلما صلى النبي قام اليه فقال: «يا رسول الله! هذا مقام العائذ بك، أنا كعب بن زهير «فتجهمته الانصار وغلظت عليه لما كان من هجائه رسول الله ﷺ، حتى أمنه. ثم امتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

أنبئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول

لقد اقوم مقاما لو يقوم به
أرى واسمع ما لو يسمع الفيل

لظل يرعد الا أن يكون له
من الرسول بإذن الله تنويل

فأنشده اياها، فلما انتهى الى قوله:

في فتية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما اسلموا: زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقاء، ولا ميل معازيل

لا ينفـــع الطعـــن إلا في نحـــورهـــم
ومـــالهـــم عـــن حيـــاض الموت تهليـــل

قال: فنظر النبي إلى اصحابه كأنه يومىء لهم ان اسمعوا! انما عنى بذلك المهاجرين ومدحهم بصبرهم على الحرب، وأنهم لا يولون الأدبار، وكان ذلك تحريضاً منه لهم على نصرته... فلما انتهى إلى قوله:

يمشـــون مشي الجمـــال الزهـــر يعصمهـــم
ضرب إذا عـــرض الســـود التنـــابيـــل

يعرض بالانصار لأنهم وثبوا عليه حين قدم متنكراً! فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرون ما قال، وقالوا: ما مدحتنا اذ هجوتهم! وأمره أن يمدح الأنصار فقال فيهم:

مـــن سره كـــرم الحيـــاة فلا يـــزل
في مقنـــب مـــن صـــالـــح الأنصـــار

وهي كلمة طويلة فكساه الرسول بردة اشتراها من بعد ذلك معاوية، وهي التي كان يلبسها الخلفاء في الأعياد.

(٤) وفي أخبار الرسول ما يدل كذلك على أنه كان يستمع للشعر وهو في المسجد فيروى ان عبدالله بن رواحة مر بالرسول وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه فأجاب القوم، فقالوا: ياعبد الله بن رواحة، فعلمت أن رسول الله ﷺ دعاني فانطلقت اليه فسلمت، فقال: ههنا، فجلست، فقال، كأنه يتعجب من شعري: كيف تقول الشعر إذا قلته؟ قلت: أنظر في ذلك ثم أقول: قال: فعليك بالمشركين، فقال: فانشدته، فلما قلت:

وخبـــرونـــي أثمـــان العبـــاء متـــى
كنتـــم بطـــاريـــق، أو دانـــت لكـــم مضر!

قال: فكاني رأيت الكراهة في وجهه صلى الله عليه وسلم أن جعلت قومه «أثمان العباء» فقلت:

نجـــالـــد النـــاس عـــن عـــرض بـــأسرهـــم
فينـــا النبـــي، وفينـــا تنـــزل الســـور
وقـــد علمتـــم بـــانـــا ليس غـــالبنـــا
حـــي مـــن النـــاس، إن عـــزّوا وأن كثـــروا

يـــاهـــاشـــم الخيـــر إن اللـــه فضلكـــم
على البـــريـــة فضلا مـــالـــه غيـــر
إنـــي تفـــرســـت فيـــك الخيـــر أعـــرفـــه
فـــراســـة خـــالفتهـــم في الذي نظـــروا
ولـــو ســـألـــت او استنصرت بعضهـــم
في جـــل امـــرك مـــا آووا ولا نصروا
فثبـــت اللـــه مـــا أعطـــاك مـــن حســـن
تثبيـــت مـــوسى، ونصرا كـــالـــذي نصروا

قال: فأقبل عليّ بوجهه، وقال: واياك فثبت الله.

(٥) فاذا تركنا هذا كله إلى ناحية اخرى اشد خطراً وابعد دلالة على موقف الرسول من الشعر والشعراء، ونريد بها اختيار الرسول لشعراء الدعوة واعدادهم للدفاع عنها وتوجيههم إلى مواطن الضعف في اعداء الاسلام والمسلمين، وجدناه يعرف للفن الشعري قيمته واثره في المديح والهجاء، ويعرف للشعراء مذاهبهم وقدراتهم في هذه الناحية او تلك، فيروي الاغاني بسنده عن ابن سيرين، أنه كان «يهجو رسول الله ﷺ ثلاثة رهط من قريش: عبدالله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو ابن العاص.. فقال رجل يارسول الله: ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا، قال: «ليس عند ذلك» ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا الرسول ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: «والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء» فقال: «كيف تهجوهم وأنا منهم؟» فقال: «اني اسلك منهم كما تسل الشعر من العجين!

فقال: أذهب إلى ابي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك». قال: فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والايام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر. قال: فكان في ذلك الزمان اشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة. فلما اسلموا وفقهوا

الاسلام، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة!

ولعل فيما قدمناه من روايات واخبار ما يكفي بأن نقتنع بأن الرسول عليه السلام كان «في منزلته من الله عز وجل، ومحله من النبوة، وفضله على جميع الانبياء، يستحسن الشعر ويستنشده ويقول فيه: «إن من الشعر لحكمة»، ويعفو بالشعر عن المخطئين، ويقبل منهم التوبة، ويعطي على قيل الشعر، ويهش لاستماعه، ويأمر بتقريظ الإسلام وتحريض العرب على الدخول فيه، ويأمر حسان بن ثابت وغيره بهجاء اعدائه، ويرغبهم فيه ويعدهم على ذلك من الله عز وجل.

فاذا ما تركنا هذا الى ما جاء في آراء ابن سلام وغيره من القدماء من ان ظهور الاسلام وما تبعه من صراع بين المعارضين لدعوته قد شغل العرب عن الشعر وصرفهم عن نظمه وجدنا، على العكس من ذلك، أن احداث هذه الفترة المبكرة من حياة الاسلام والمسلمين قد هيأت للفن الشعري ميداناً خصباً، ينمو فيه ويترعرع، وهو ميدان لم يختلف عن ميادين الشعر القديمة، والحرب التي ثارت بين الرسول وبين المعارضين للدين الجديد لم تكن في حقيقتها مجرد حرب دينية بين المسلمين والمشركين فحسب، وإنما أتخذت في كل بيئة نشب فيها هذا الصراع الديني طابعا قبليا متعصباً: فكانت في مكة، وفي مراحلها الاولى، حربا بين القرشيين المعارضين للدين وبين بني هاشم، وهي حرب اتخذت كما تقص بعض الروايات، شكل حصار عنيف قيل ان قريشاً فرضته على بني هاشم حين حصرتهم في شعب من شعاب مكة، وحالت بينهم وبين الاتصال بغيرهم من القرشيين. واستحالت هذه الحرب في المدينة، بعد هجرة الرسول إليها، إلى صراع بين الانصار وقريش، وقد كانت بينهما عداوة قديمة. كما استحالت إلى حرب بين المسلمين، مهاجرين وانصاراً، وبين اليهود الذين كانوا يتآمرون على الدين الجديد، والذين كانت تحركهم منازعاتهم القديمة مع الأنصار قبل الاسلام.

وقد ظل هذا الروح القبلي مسيطراً على حياة العرب لفترة طويلة بعد ظهور الاسلام، ولدينا مادة تاريخية ضخمة تكشف، اذا ما فهمت فهما دقيقا، عن هذا الجانب الجاهلي في حياة العرب، وتؤكد إلى أي مدى ظلت حياتهم بعد الاسلام وابان القرن الاول الهجري على الاقل، تستوحي بعض قيم الجاهلية

وخاصة ما كان يتصل منها بالعصبيات القبلية، وتصدر عنها ولا يعنينا كثيراً ان نقف هنا من هذه الروايات التاريخية عند ما يتصل منها بسلوك المعارضين للدين، فمن الطبيعي أن يبقى امثال هؤلاء العرب لفترة طويلة على تقاليدهم الجاهلية وقيمهم القبلية، وأن تظل معرفة الكثيرين من الذين اسلموا منهم فيما بعد بالدين وفهمهم لروحه معرفة وفهما بسيطين لا يتعمقان فلسفة هذا الدين الحقيقية - وانما يعنينا، للكشف عن خطر هذا الروح الجاهلي الذي ظل يحكم سلوك العرب في هذه المرحلة المبكرة من حياة الاسلام، أن نقف عند بعض الاخبار المتصلة بهذه الصفوة من المسلمين الأولين من المهاجرين والانصار، وهي اخبار لها قيمتها وخطرها في ان هذه الطائفة من صفوة المسلمين لم تستطع، على الرغم من عمق ايمانها وصدق فهمها للدين ان تنجو، في سلوكها العام، من سطوة هذه التقاليد، واسر تلك القيم القبلية فيروي ابن اسحاق في السيرة ان سودة بنت زمعة زوج الرسول لم تملك نفسها حين رأت أسرى بدر وفيهم سهيل بن عمرو، وقد ربطت يداه إلى عنقه بحبل، فصاحت: «أي أبا يزيد. اعطيتم بأيديكم، ألا متّم كراماً»؟ فلما سمع الرسول قولها أنبهها قائلاً «يا سودة! أعلى الله ورسوله تحرضين» فقالت: «يارسول الله! والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت».

ويروي أبو الفرج في الاغاني أنه كان من أصحاب الرسول رجل يقال له «جهجاه» فخرج بفرسين احداهما لرسول الله والأخرى له ليسقيهما، فوجد على الماء فتية من الانصار فتنازعوا فاقتتلوا، فقال عبدالله بن ابي سلول: «هذا ما جزونا به، أويناهم ثم هم يقاتلوننا!» وبلغ حسان بن ثابت ما حدث، فقال وهو يريد المهاجرين من القبائل الذين قدموا على رسول الله ﷺ في الاسلام:

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا
وابن الفريعة أمسى بيضة البلد
يمشون بالقول سرا في مهادنة
تهددا لي كأني لست من أحد!

قــد ثكلــت أمــه مــن كنــت صــاحبــه
أو كــان منتشيــا في بــرثــن الأســد
أمــا قــريش فــانــى لســت تــاركهــم
مــن ديــة فيــه أعطيهــا ولا قــود
أمــا قــريش فــانــي لســت تــاركهــم
حتــى ينيبــوا مــن الغيــات بــالــرشــد
ويتــركــوا اللات والعــزى بمعــزلــة
ويسجــدوا كلهــم للــواحــد الصمــد

قال، فقال رسول الله ﷺ: «يا حسان نفست علي اسلام قومي»!

(٣) وقد تجلت هذه الروح بوضوح في شعر هذه الفترة، ولم يكد يسلم منها ما كان يقوله شعراء الرسول فيه من شعر، فان قارىء هذه المدائح ليحس بأنه، من خلال وصفهم للرسول وطبيعة ثنائهم على أعماله أنهم يمدحونه بمثل ما كانوا يمدحون به عظماءهم أو قريباً منه. وإن جاءت بعض المعاني الدينية في هذه المدائح فانها كانت تجيء على استحياء وكأن الشاعر كان يتكلفها حتى لا يعري اشعاره من هذه الصبغة الدينية.

ولا نستطيع بالطبع أن نقف، لايضاح هذه الجانب، عند كل ما قيل في مديح الرسول ولكنا نقف وقفة سريعة عند قصيدة لها شأن في تاريخ الدعوة الاسلامية، هي قصيدة كعب بن زهير التي قالها بعد أن عفا الرسول عنه وقبل إسلامه.

وقد بدأ كعب قصيدته بالغزل على عادة الشعراء الجاهليين، فوصف جمال صاحبته «سعاد» وصفاً حسيا خالصاً، شبهها فيه بظبي صغير مكحول العينين في صوته غنة، وبأنها هيفاء اي ضامرة البطن، دقيقة الخاصرة، ضخمة الارداف بين الطويلة والقصيرة. كما وصف أسنانها بالرقة والبياض وعذوبة الريق، ووصف ثغرها بطيب الرائحة كأنه قد سقي الخمر مرة بعد مرة. ثم أخذ في وصف هذا الخمر ووصف الماء الذي مزجت به لكسر سورتها، فقال انه ماء بارد، بل هو شديد البرودة، لأنه أخذ في وقت الضحى من مسيل واسع مملوء بدقائق الحصى، بعد أن ضربته ريح الشمال فازالت قذاه وزادت من برودته، ثم أخذ في الابيات التالية يصور حبه لهذه المرأة ولهفته

عليها ورغبته فيها، ويشكو من كذبها وتلونها وسرعة هجرها، وهو لذلك لا يثق في وعودها ولكنه مع ذلك لم يقطع الرجاء في انصلاح حالها وقرب مودتها:

بـــانـــت سعـــاد فقلبـــي اليـــوم متبـــول
متيـــم إثـــرهـــا لـــم يفـــد، مكبـــول

ومـــا سعـــاد غـــداة البيـــن إذ رحلـــوا
إلا أغـــن غضيـــض الطـــرف مكحـــول

هيفـــاء مقبلـــة، عجـــزاء مـــدبـــرة
لا يشتكـــى قصر منهـــا ولا طـــول

تجلـــو عـــوارض ذي ظلـــم اذا ابتسمـــت
كـــأنـــه منهـــل بـــالـــراح معلـــول

شجـــت بـــذي شيـــم مـــن مـــاء محنيـــة
صـــاف بـــابطـــح أضحـــى وهـــو مشمـــول

تنفـــي الريـــاح القـــذى عنـــه وافـــرطـــه
مـــن صـــوب غـــاديـــة بيـــض يعـــاليـــل

فيـــالهـــا خلـــة قـــد سيـــط مـــن دمهـــا
فجـــع وولـــع واخلاف وتبـــديـــل

فمـــا تـــدوم على حـــال تكـــون بهـــا
كمـــا تلـــون في اثـــوابهـــا الغـــول

ومـــا تمســـك بـــالعهـــد الذي زعمـــت
الا كمـــا يمســـك الماء الغـــرابيـــل

فلا يغـــرنـــك مـــا منـــت ومـــا وعـــدت
ان الامـــانـــي والاحلام تضليـــل

وقد انتقل الشاعر في الابيات الاخرى إلى وصف رحيل هذه المرأة عنه إلى بلاد لا تقدر على نقله اليها الاّ ناقة قوية صلبة - ثم أخذ على عادة الشعراء القدماء، يصف هذه الناقة في قوتها وسرعتها وقدرتها على قطع الصحارى المخيفة، مستخدما اسلوبا ولغة مألوفين في الشعر القديم الذي يعرض لوصف الناقة، وهي لغة غريبة في مفرداتها وصورها تختلف عن لغة القصيدة في

المواقف الاخرى، أو قل أنها لغة وصور مألوفة في الشعر القديم الذي يصف الناقة، من حيث غرابتها ونمطيتها، واطرادها في قصائد الشعراء المختلفة، وقد طال وصف الشاعر لناقته وحديثه عن قوتها، فلما جاء إلى مديح الرسول رأيناه يصور خوفه وهلعه من عقاب الرسول وبطشه لما كان من هجائه اياه، ثم يأخذ في مديح اصحابه بتلك المعاني المألوفة في شعر الجاهليين من القوة والبطش والكرم والحلم وعراقة النسب إلى غير ذلك من القيم القديمة ويطيل في ذلك، فيقول:

لا تـأخـذنـي بـاقـوال الوشـاه ولـم
اذنـب، ولـو كثـرت في الاقـاويـل
لقـد اقـوم مقـامـا لـو يقـوم بـه
ارى واسمـع مـا لـو يسمـع الفيـل
لظـل يـرعـد الا أن يكـون لـه
مـن الرسـول بـاذن اللـه تنـويـل
فلهـو اخـوف عنـدي اذ اكلمـه
وقيـل انـك منسـوب ومسئـول
مـن ضيغـم بضراء الارض مخـدرة
في بطـن عثـرة غيـل دونـه غيـل
يغـدو فيلحـم ضرغـاميـن، عيشهمـا
لحـم مـن النـاس معفـور خـراديـل
اذا يسـاور قـرنـا لا يحـل لـه
ان يتـرك القـرن الا وهـو مغلـول
منـه تظـل سبـاع الجـو نـافـرة
ولا تمشّـى بـواديـه الأراجيـل
ولا يـزال بـواديـه أخـو ثقـة
مضرجُ البـز والدرسـان، مـأكـول
ان الرسـول لنـور يستضـاء بـه
مهنـد مـن سيـوف اللـه مسلـول

وينبغي ان نلاحظ هذه الصورة التي يشبه فيها الرسول باسد قوي من

أسود «عثرة» المعروفة بضراوتها وولعها بسفك الدماء، وهو اسد بلغ من شراسته وولعه بكثرة الصيد انه يترك ضحاياه لكثرتها معفرة في التراب، ولا يلقى قرنا الا قتله ومثل به والقى بثيابه التي مزقها، امعانا في التنكيل به وتخويفاً للناس منه. وقد بلغ الشاعر بهذه الصورة غايتها حين وصف السباع والناس في وادي هذا الأسد بالضمور لجوعها وعدم قدرتها على الصيد خوفاً منه وهذه الصورة بصرف النظر عن قيمتها الفنية الدالة، فإنها تناقض ما هو معروف عن الرسول من العطف والرحمة والتسامح، او قل تناقض صورة الرسول في القرآن تلك التي رسمها الله له في مثل قوله تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وقوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، وقوله تعالى: ﴿وما ارسلناك الا رحمة للعالمين﴾، إلى غير ذلك من الايات الكثيرة التي تصف خلقه الكريم، كما تخالف صورته التي تعكسها الاخبار العديدة عن حلمه وعطفه ومسارعته إلى العفو.

ولا تختلف الصور التي يرسمها كعب لصحابة الرسول من المهاجرين عن صورة الرسول فهو يصفهم على عادة الشعراء الجاهليين، بالقوة والمنعة، والصبر في الشدائد والقدرة على ضبط النفس في مواقف النصر والهزيمة، وكانه لم يكن في حياة الرسول وصحابته من المهاجرين الا هذا الجانب من «القوة» التي فتن بها القدماء فتنة شديدة، ورأوا فيها ضمان حياتهم ومصدر ثروتهم. وقد تجلى هذا الروح الجاهلي في تعريضه بالانصار لما كان منهم من كراهته وتحريض الرسول على قتله حينما جاءه تائبا مسلما، وهو جانب لم يرض الرسول ولا المهاجرين فقال له: «لولا ذكرت الانصار بخير، فانهم لذلك أهل». وقال المهاجرون: «ما مدحتنا اذ هجوتهم»! فقال، فيما يروي ابن اسحاق، يمدحهم ويذكر بلاءهم مع الرسول ابياتا نذكر منها قوله:

مـــــن سره كـــــرم الحيـــــاة فلا يـــــزل
في مقنـــب مـــن صـــالحـــي الانصـــار
ورثـــوا المكـــارم كـــابـــرا عـــن كـــابـــر
ان الخيـــــار همـــــو بنـــــو الاخيـــــار

المكـــــرهيـــــن السمهـــــري بـــــاذرع
كســــوالف الهنــــدي غيـــــر قصـــــار
والنـــاظـــريـــن بـــاعيــــن محمـــرة
كـــالجمـــر، غيـــر كليلـــة الابصـــار
والبـــائعيـــن نفـــوسهـــم لنبيهـــم
للمـــوت يـــوم تعـــانـــق وكـــرار
يتطهـــرون يـــرونـــه نسكـــا لهـــم
بـــدمـــاء مـــن علقـــوا مـــن الكفـــار
قـــوم اذا خـــوت النجـــوم فـــانهـــم
للطـــارقيـــن النـــازليـــن مقـــارى
في العـــز مـــن غســـان مـــن جـــرثـــومـــة
اعيـــت محـــافـــرهـــا على المنقـــار

وهو هنا، مثلما رأيناه في مديحه للرسول والمهاجرين، يردد هذه الصفات القديمة ويقف منها بصفة خاصة عند الشجاعة واكرام الضيف وعراقة النسب.

وتدلنا اخبار القدماء على أن هذه القصيدة، قصيدة «بانت سعاد» قد ظفرت باعجاب الرسول والمسلمين في المدينة فأهداه بردته وعفا عنه، وأن الشعراء قد فتنوا بها في العصور التالية، فراحو يعارضونها وينسجون مدائحهم للرسول على منوالها، حتى خلفوا من القصائد التي تعارضها عددا ضخما يصلح لدراسة تحليلية تكشف عن هذا الجانب من المبالغة في اثار قصيدة بعينها من بين هذا التراث الشعري الضخم الذي خلفه الشعراء في مديح الرسول وتسجيل انتصاراته ـ ولعل في هذا ما يدلنا، من بعض الوجوه، على ان الذوق الشعري القديم لم يتغير عما كان عليه في العصر الجاهلي، وأن المعاني والقيم الاسلامية الجديدة لم تكن، في هذه الفترة المبكرة من حياة الاسلام، قد اخذت طريقها بعد إلى شعر الشعراء.

وهذا كله، ما رويناه من اخبار أو ما وقفنا عنده من اشعار، يؤكد ما نذهب اليه من ان حركة الشعر في هذه الفترة فترة صدر الاسلام، كانت امتداداً للشعر في العصر الجاهلي، وان الشعراء، لاسباب عديدة، لم يكونوا قد استوعبوا بعد فلسفة الدين الجديدة وروحه استيعابا صحيحاً، فظلوا، بسبب

ذلك، يقولون الشعر على طريقة القدماء وهذا شيء طبيعي فلم يكن من الممكن أن يتطور الشعر وتتغير اساليبه به بمجرد ظهور الاسلام، فان مثل هذا التطور كان يحتاج إلى وقت اطول تتغير فيه الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية تغيرا يفرض آثاره على التعبير الشعري ـ وهو أمر لم يحدث الا بعد فترة غير قصيرة من ظهور الاسلام، كانت العرب فيها قد استقرت، وأخذوا تحت تأثير الدين الجديد والحضارة الوافدة، يحدثون تغييرات واسعة في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية مما ترك آثاره على اساليبهم الشعرية على نحو ما سوف نرى.

وخلاصة ما نريد ان نصل اليه، ان هذا كله يقودنا إلى رفض ما يقوله ابن خلدون وغيره مثل ابن سلام من انصراف العرب «عن الشعر أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من اسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن ا لخوض في النظم والنثر زماناً» فقد رأينا كل شيء في هذه الفترة من حياة الإسلام يدعو إلى قول الشعر: الحروب بين الكفار والمسلمين، وكثرة معاركها، وكثرة ما كان يقع فيها من قتلى الفريقين، وسيطرة العصبيات القبلية وحاجة اصحابها إلى الذب عن احسابهم. او قل، إذا اردت ان توجز الاسباب المختلفة التي دعت إلى خصوبة حركة الشعر في صدر الاسلام، إن الصراع القبلي، والديني والسياسي في هذه الفترة قد هيأ لهذا الفن ميداناً خصباً يصول فيه الشعراء ويجولون، مما كان سببا في ظهور طبقة من الشعراء، وخاصة من شعراء اليهود وقريش، لم تكن معروفة في العصر الجاهلي ـ ومن الطريف أن ابن سلام الذي رأيناه فيما مضى يعزو قلة الشعر في صدر الإسلام إلى انشغال العرب بالإسلام وحروبه وفتوحاته، يعود فيقرر في موضع آخر، أثر الحرب في خصوبة الحركة الشعرية، فيقول في حديثه عن شعراء الطائف في الجاهلية: «وبالطائف شعر وليس بالكثير، وانما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الاحياء، حرب الاوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم والذي قلل شعر قريش (في الجاهلية) انهم لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا، وذلك الذي قلل شعر عمان....»

ومن يقرأ السيرة النبوية لابن هشام، يرى مصداق ما يقوله ابن سلام، فقد امتلأت بأسماء الشعراء القرشيين الذين شاركوا في هذا الصراع بأيديهم

والسنتهم، ومنهم كثيرون لم يكن لهم، كما قلنا نشاط شعري في العصر الجاهلي، وتبلغ النصوص الشعرية التي صاحبت الاحداث ووصفتها، درجة كبيرة من الكثرة والتنوع، بحيث تملأ ديواناً ضخماً يصح أن نطلق عليه «ديوان شعر السيرة»، وهو ديوان يغري بدراسته وتحليل نصوصه. فاذا اضفنا إلى هذا الديوان الشعري ديوانين اخرين، احدهما حصيلة الفتوحات الاسلامية في الشعر، والثاني حصيلة الحروب الأهلية التي ثارت بين المسلمين حول «الخلافة» منذ مقتل عثمان حتى قيام الدولة الأموية، امكننا ان نتصور إلى أي مدى كان ظهور الاسلام، وما صحب ذلك من صراع سبباً في نمو الحركة الشعرية على نحو لم تعهده من قبل، ولم يكد يحدث في العصر الجاهلي، على الاقل بمثل هذه الخصوبة التي تحققت في هذه الفترة القصيرة من تاريخ المسلمين.

وقد كان موضوع هذا الشعر جميعاً: الهجاء والفخر والرثاء، وهي موضوعات غلبت على شعر العصر الجاهلي، وكانت صدى لهذه الحياة القبلية القلقة وما كان ينشأ فيها من حروب طويلة وخصومات مضنية، تستثار فيها العواطف وتغيب الأحلام.

ونريد ان نصل من هذا كله الى القول بأن غلبة الروح القبلي وكثرة الحروب واتساع الفتوحات الاسلامية وما نتج عنه من خصوبة الحركة الشعرية في صدر الاسلام وكثرة شعرائها وتنوع قصائدها من شأنه أن يحملنا على معاودة البحث عن اسباب أخرى نعلل بها ضعف الشعر في صدر الاسلام، غير تلك الاسباب التقليدية التي لم تعد تثبت للنقد.

(٢)

وينبغي لكي نتبين هذه الاسباب على حقيقتها، او قل لكي نفهم قضية ضعف الشعر الاسلامي فهما صحيحاً أن نبدأ بتحديد ما نعنيه «بالشعر الاسلامي»، فقد درج القدماء والمحدثون على اطلاق القول بضعف الشعر الاسلامي اطلاقا عاما، وكأن هذا الضعف كان ظاهرة غالبة على شعر هذه الفترة في مختلف بيئاته المدنية والبدوية وعلى اختلاف موضوعاته ومعانية، وهم

حين يذهبون هذا المذهب، ويتوخون ذكر الامثلة الدالة على هذا الضعف الفني لا يخرجون عن دائرة ما اسميناه «بديوان شعر السيرة»، وهو الشعر الذي قيل في الحروب التي ثارت بين المسلمين وكفار مكة، والتي رأيناها تتخذ، في مراحلها المختلفة، طابعا عصبياً بالاضافة إلى الطابع الديني الذي يتمثل في معارضة القرشيين للاسلام. ومثال هذا التضييق في تحديد دائرة الشعر الاسلامي هو الذي ورط القدماء والمحدثين في هذا الخطأ المنهجي في تحديد موقف الاسلام من الشعر، وتحديد الاسباب الصحيحة التي ادت به إلى الضعف الفني - والواقع اننا نفهم مصطلح «الشعر الاسلامي» فهما تاريخياً وفنيا مختلفاً، فليس هو نتاج هذه الحرب الطويلة المضنية التي ثارت بين القرشيين والمسلمين فحسب، ولكنه هو نتاج الحرب التي ثارت بين المسلمين والمعارضين للدين الجديد، قبل فتح مكة وبعد وفاة الرسول، في داخل الجزيرة العربية وخارجها - او قل اذا اردنا تحديد ذلك تحديداً اقرب إلى الدقة والموضوعية - ينبغي ان نفهم من مصطلح «الشعر الاسلامي» انه يعني شعر تلك الفترة التاريخية التي تلت العصر الجاهلي بظهور الاسلام، واستمرت حتى بداية تكوين الدولة العربية على ايدي الخلفاء الأمويين - فقد اختلفت هذه المرحلة التاريخية عن مرحلة العصر الجاهلي بما أحدثه الاسلام من تغير، وما ارساه من قيم وما ثار حوله من حروب، كما تختلف عن المرحلة التي تلتها والتي اصطلح الدارسون على تسميتها بالعصر الأموي مرة، وعصر الدولة العربية اخرى، تلك التي كانت، على نحو ما سوف نرى، مرحلة تطور فني حقيقي للشعر بسبب ما أخذ يجدّ على الحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية من تغير وتطور.

ويتبين لنا حين نقيس الأمور بهذا المقياس التاريخي والفني الدقيق، أن القول بضياع الشعر الاسلامي وضعفه انما يصدق على نتاج نوع بعينه من الشعر الاسلامي، في بيئة بعينها من بيئاته العديدة، وفي مرحلة بعينها من مراحله التاريخية التي شهد فيها صراعاً عنيفاً بين الاسلام ومعارضيه.

وفي عبارة مختصرة، انه شعر هذه السنوات الاولى من حياة الاسلام، التي شهدت هذا الصراع العنيف بين الرسول والمسلمين من المهاجرين والانصار، وبين معارضيه من كفار مكة، وقد رأينا فيما مضى أن دواوين الشعر

الاسلامي، اذا صح ما نذهب اليه من تحديد، ثلاثة: شعر السيرة، وشعر الفتوحات، وشعر الفتنة الكبرى، الى غير ذلك من الاشعار الاخرى التي لا تتصل بأحداث الاسلام وحروبه، وانما تتصل بهذه الجوانب الذاتية والقبلية التي ظلت تشغل كثيرا من شعراء هذه المرحلة من تاريخهم، دون غيرها من الاحداث. وان نظرة سريعة في شعر هذه السنوات الاولى، شعر الصراع بين الرسول ومعارضيه، لتطلعنا على تلك الحقيقة التي اشرنا اليها فيما مضى، وهي انه يكاد يدور حول غرضين لا يتعداهما، هما الفخر والهجاء على طريقة «المنافرات الجاهلية» وقد افضى ذلك كله بروواة القرن الاول: هجاء الكفار للمسلمين وهجاء المسلمين للكفار، وفخر هؤلاء وأولئك باحسابهم وانتصاراتهم، إلى التحرج من رواية هذه الاثار الشعرية، خاصة بعد فتح مكة ودخول قريش في الاسلام، ووفود القبائل على الرسول في المدينة تعلن اسلامها وقبولها للدين الجديد، فقد كان سلوك الرسول في فتح مكة ايذانا منه بنسيان هذا الماضي تألفا للقلوب، ودفعا للضغائن وحقنا للدماء ـ فقد نهى المسلمين عن قتل اهل مكة يوم الفتح، واذن لابي سفيان بان ينادي في قومه بأمان الرسول لهم في قوله: «من دخل دار ابي سفيان فهو آمن، ومن أُغلق (عليه) بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» ـ ثم قال: ياأبا سفيان اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله فيه قريشاً»! وخطب فيهم قائلاً:

«لا إله الا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، الا كل مأثرة او دم يدعى فهو تحت قدمي هاتين الاسدانة البيت وسقاية الحاج.... يا معشر قريش، إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء... يا معشر قريش ما ترون اني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، قال: اذهبوا فانتم الطلقاء». وكان هذا السلوك من الرسول كما قلنا ايذانا منه بنسيان الماضي، فقد اصبح المجتمع الجديد اسلاميا صرفاً، ودخلت في الاسلام شخصيات جديدة كانت لها مواقف عدائية قبل فتح مكة، واصبحت لها مكانتها الدينية والسياسية في هذا المجتمع الاسلامي الجديد، وكان يؤذيها من غير شك أن تروى اشعارها القديمة في هجاء الرسول واصحابه من المسلمين، أو تروى اشعار المسلمين في هجائهم وهم الذين حسن اسلامهم، وعلت مكانتهم، وأخذوا يلعبون، منذ فتح مكة، دورا

بارزا في حياة الدولة الاسلامية الناشئة، فلما قتل عثمان وانفتح بموته باب الحروب الاهلية على مصراعيه واصطرعت بيوت قريش حول خلافة المسلمين، اخذ كل فريق يحاول اصلاح ماضيه، بوضع الاشعار ونسبتها إلى الذين كانوا يشاركون في احداث هذه الفترة الاولى من حياة الاسلام والمسلمين ـ وقد حمل على حسان بصفة خاصة اشعار كثيرة لمكانته من الرسول والانصار.

وتسلمنا هذه النتيجة إلى المجموعة الثانية من «إشارات ابن سلام» واشارات غيره من رواة الشعر والاخبار، إلى الوضع والنحل في الشعر. ولن نقف من هذه الاشارات الكثيرة الا عندما يتصل منها بما اسميناه «ديوان شعر السيرة». ومن المؤسف أن رواية «ابن اسحق» للسيرة النبوية لم تصل الينا في نصها الاصلي، وانما جاءت في صورة مختصرة ومهذبة من صنع «ابن هشام» مما يجعل حديثنا عن رواية «ابن اسحاق» مجرد تصور نستخلصه من تعليقات «ابن هشام» و«ابن سلام» اللذين حرصا على تعقب «ابن اسحق» في رواية الاشعار خاصة والأخبار عامة، والتنبيه على ما وقع فيها من الخلط والتحريف والاختلاق.

١ ـ وقد وقف ابن سلام «عند هذا الجانب من التزييف، ثلاث وقفات في كتابه (طبقات الشعراء) فقال معقبا على رواية «ابن اسحاق»:

« ... وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن اسحق بن يسار، مولى آل مخرمة بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير... فقبل الناس عنه الاشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر اوتى به فاحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السير اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، واشعار النساء، فضلا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم اشعارا كثيرة وليس بشعر، انما هو كلام معقود بقواف، افلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن اداه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ اي لا بقية لهم».

وقال: «قال ابو عمرو بن العلاء: ما لسان حمير واقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا، فكيف بما على عهد عاد وثمود، مع تداعيه

ووهيه، فلو كان مثل ما وضع لابن اسحاق ومثل مارواه الصحفيون، ما كانت اليه حاجة، ولا فيه دليل على علم».

وقال: «ولابي سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية فسقط ولم يصل الينا منه الا القليل. ولسنا نعد ما يروي «ابن اسحاق» له ولا لغيره شعراً، ولأن لا يكون لهم شعر، أحسن من أن يكون ذاك لهم...»!

٢ ـ ويلخص ابن هشام عمله في نص السيرة الأصلي الذي وضعه ابن «إسحاق» في قوله: اني تارك بعض ما يذكره «ابن اسحق» في هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيرا له، ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، واشعاراً ذكرها لم ار احدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، واشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره..»

واذا كان «ابن هشام» قد اختصر كثيراً من اخبار السيرة، وحذف من اشعارها ما لم يثبت له صحة روايتة او نسبته إلى اصحابه من الشعراء، فانه قد ترك كثيرا من الاخبار والاشعار التي شك في صحة روايتها، مكتفياً بالتعليق عليها أو التقديم لها بمثل قوله: «وبين اضعاف هذا الحديث رجز لم يصح عندنا عن أحد من أهل العلم» أو قوله: «وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له»، وقوله: «قالها رجل من المسلمين غير علي بن ابي طالب، فيما ذكر لي بعض اهل العلم بالشعر، ولم ار احدا يعرفها لعلي...» إلى غير ذلك من التعقيبات التي راح يصحح فيها نسبة النصوص، أو يلاحظ فيها ضعف الشعر وابتذاله من مثل قوله: «هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة، ليست بصحيحة البناء، ولكن انشدني ابو محرز خلف الاحمر وغيره، روى بعض مالم يرو بعض...» ثم عاد فاثبت القصيدة في روايتها الصحيحة ـ كما أنه، في مواضع اخرى من السيرة، راح يذكر روايات اخرى فات «ابن اسحاق» ذكرها، وهي اضافات، بصرف النظر عن جدتها بالقياس إلى روايات «ابن اسحاق» فانها لا تقل عنها غرابة واسطورية!!

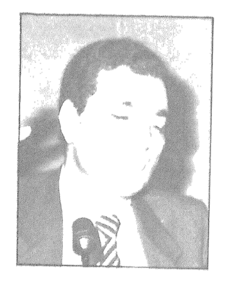
ومهما تكن قيمة هذه الملاحظات المنسوبة إلى هذين العالمين حول ما جاء في «السيرة» من الاخبار الزائفة والاشعار الضعيفة، فلا تزال فيها اخبار واشعار اخرى كثيرة لم يقفا منها مو قف الشك على نحو ما رأينا في تعقيبنا

على بعضها ، كما انهما لم ينفيا عنها هذا الجانب الاسطوري الذي يصاحب بعض الاخبار ويخـــلق حول حياة الرسول والمسلمين الاولين ، قصصا شعبياً طريفاً ، ولكنه على طرافته لا يقدم ، في بعض الاحيان ، الصورة التاريخية الصحيحة للصراع الخطير الذي ظل يصاحب الدعوة الاسلامية منذ هجرة الرسول إلى المدينة حتى عاد إلى مكة بعد فتحها - وهذه النزعة الاسطورية والشعبية التي غلبت على بعض الاخبار كما قلنا ، من آثار هذه العادة التي جرى عليها العرب ، سواء في الجاهلية او في الاسلام ، عادة قص الاخبار والتغني بالبطولات وتجميلها برواية الاشعار التي تؤكدها وتدل عليها ، وهي عادة رأينا ، من خلال ما سقناه من اخبار ، أن الخلفاء الامويين ، كانوا يعنون باحيائها في الاسلام عناية شديدة ، كانت تحملهم على طلب رواة الاخبار من المشهورين من شتى الامصار الاسلامية ، مما مهد لنشوء طبقة من القصاص الاسلاميين ، الذين كانوا يتصرفون بهواهم الشعبي والقبلي ، وميلهم إلى المبالغة ورغبتهم في التكثر في الرواية ، في تاريخ هذه الفترة الاسلامية خاصة والجاهلية عامة ، تصرفا واسعاً اضفى كما قلنا على اخبارها مسحة اسطورية غريبة على حقائق الاحداث ، واضاف إلى الشعراء ما لم يقولوه من الشعر ، ولعل من بين مايدل على اثر الهوى القبلي في رواية الاخبار ما يرويه ابن شهاب الزهري (المتوفي سنة ١٢٤ هـ) من أن خالد بن عبدالله القسري طلب اليه ان يكتب له النسب والسيرة ، فقال:

«اكتب لي النسب ، فبدأت بنسب مضر وما أتممته ، فقال: اقطعه قطعه الله مع اصولهم ، واكتب لي السيرة ، فقلت له: فانه يمر بي الشيء من سيرة علي بن ابي طالب فأذكره؟ فقال: لا ....»

المحاضرة الرابعة

أمسية شعرية







للشاعر فاروق شوشة

الاستاذ فاروق محمد البغدادي شوشة

- من مواليد دمياط في ٩ / ١ / ١٩٣٦ بجمهورية مصر العربية.
- حصل على ليسانس كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٥٦.

ـ ودبلوم كلية التربية جامعة عين شمس عام ١٩٥٧.

ـ دبلوم الدراسات العليا في التربية جامعة عين شمس ١٩٥٨.

- عمل في عدة وظائف بالاذاعة المصرية.

ـ المدير العام للبرامج الثقافية باذاعة القاهرة.

ـ نائب رئيس الشبكة الرئيسية باذاعة القاهرة.

ـ استاذ الالقاء الاذاعي والتذوق الادبي بكلية الاعلام ـ جامعة القاهرة.

ـ محاضر في الادب العربي بالجامعة الامريكية بالقاهرة.

ـ عضو لجنة الشعر بالمجلس الاعلى للثقافة في مصر.

- أهم المؤلفات:

ـ إلى مسافرة ١٩٦٦ (شعر).

ـ لؤلؤة في القلب ١٩٧٢ (شعر).

ـ العيون المحترقة ١٩٧٣ (شعر).

ـ لغتنا الجميلة ١٩٧٣ (دراسة).

ـ احلى ٢٠ قصيدة حب في الشعر العربي ١٩٧٣ (شعر).

ـ في انتظار مالا يجيء ١٩٧٩ (شعر).

ـ لغتنا الجميلة ومشكلات المعاصرة ١٩٨١ (دراسة).

ـ العلاج بالشعر ١٩٨٢ (دراسة).

ـ الدائرة المكملة ١٩٨٢ (دراسة).

ـ احلى ٢٠ قصيدة في الحب الإلهي ١٩٨٣ (دراسة).

- أهم المؤتمرات والندوات التي شارك فيها:

ـ تمثيل اتحاد كتاب مصر في مؤتمر الادباء الشباب في المانيا الديمقراطية ١٩٧١.

- تمثيل شعراء مصر في مهرجان الشعر الدولي يوغوسلافيا عام ١٩٧٣ .
- تمثيل شعراء مصر في مهرجان جرش - الاردن ١٩٨٣ .
- تمثيل شعراء مصر في مهرجان الشعر الدولي في يوغوسلافيا عام ١٩٨٤ .

(١)

المغني، والشيخ نظام الدين

كان يُغني،
يعول في صحن المسجد
يجأر بالصمت المخنوق، ويجهش بالدمعِ الأسود
ينسكب الحزنُ،
وتنغرز اللحظاتُ القاطعة النفلِ
تغوصُ السكين،
الجرحُ يسيلُ
الرأس يميلُ
الخطوُ المشدودُ المتوتر يصغي، يتأملْ
يدنو من قلب المشهدْ
غمغمة الصوت تبينُ، ترددُ
يثربُ
مكةُ
ومحمد...
ضائعة في سيل العُجمةِ، في لفح مباخرَ وعطور
يا الله...
صوت يتردد في الصحن المهجور
فتميلُ مآذن توشكُ أن تركعْ
وتئن منابر، كانت تسْعى صوب امام الدنيا والدين
تهرولُ بين يديه،
تلامسُ موطىء قدميهِ

وتسبحُ في كلماتِ النور
تنكمشُ الآن، وتُقعي في الديجور
أخطو،
نخطو،
نتأملُ قصر القلعة من خَلَلِ المحراب
هذا بهو الديوانِ العامِ، وبهو الديوان الخاص،
وساح الرقص، وحمامُ الملكةِ، وقِيان القصر
والنهر الجاري تحت القومِ يعانق متكأ المستعصم باسم اللهِ، يحبّل حبوة سرواله
وتفيضُ مباخرُ بالندِّ وبالعنبر
ويرن صدى في ساحِ البهو الخالي يتردد
ياشيخ نظامَ الدين
ياوتدَ الارضِ ويا أمن الدنيا
يا من نورُ الحلوةِ شمع مجالسه المشهورة
كاسك مفعمة بشراب العشق الاسمر
وبراقك يحملنا في دهليز الرؤيا
يُنجينا من أسر الظلمة في ساح اللقيا
أيقظنا يا شيخ نظامَ الدينِ
إنا موتى
وسباتُ الموت طويلٌ.. ما أقساه
حدثنا يا شيخ نظامَ الدين
إنا غرباء بهذا العصرِ،
نضيع وراء زحامِ لُغاه
أدركنا يا شيخ نظامَ الدينِ
فدروبُ الحق تقودُ إلى كنفك
هذا المتحلي بالياقوتِ وبالعسجد
فمتى نلقاه؟
الصوتُ المعول في صحنِ المسجدْ

ما زال يردد:
يا الله!

●●●

حين يصير الحجرُ غريباً
ينتصبُ مهيب القامةِ، لكن في استحياء
يتسمعُ لغو رطاناتِ الأقوام المبهورين بوقفته
الاسطورية
وأصابعهم تتعرى ما أبقت أيامُ الهولِ على صفحة خديه
تطالع في عينيهِ وميضا من خيلاء
تتحسس نقشاً كان،
حروفاً نقشت بالتبر،
رسوماً طال العهد بجلوتها
أثراً مازال يبوحُ
ويبقى الحجرُ الجامد وجه عزيز ذلَّ
يطالعُ شمت المشدوهين، يكفكفُ من عدسات التصوير
البلهاء
وينهنه بالصمت الراعفِ، بالاصداء
كوقعِ الطبل الأجوفِ، ملء غضونِ الذعر القابعِ
في الشفتين الملجمتين
ويرقبُ دورة هذى الافلاك
الخط المعكوس تردى في الخذلان
وغاب النصل بقاع القلب المثقلِ بالتذكار
العاشق لا ينطق بالسر
إن باح يمتْ
في السند، الهند، وراء النهر،
وفي قرطبة... سيان...
أطلال تبكي
تُقلع بحثاً عن غفران

الطَلَلُ الجاثمُ يرتاحُ على صدر الطلل ِ الإنسان
يتنقلُ بين شعابِ الدنيا ،
عُمراً طال ،
زماناً موصول الأحزان
فمتى ، يا شيخ نظام الدين
الكون مريض بالاوثان
الكون مليء بالبهتان
أدركنا . . .
قبل الطوفان !



(٢)

الدائرة المحكمة

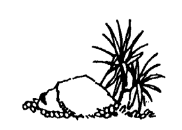
أجيئُكِ ،
مزدحماً بالوعودِ ،
مضيئا كدائرةِ البرقِ
منتظراً لانهمار السواقي
ألاصق عريي بجدران عزلتك الموحشة
تلوّح للعابرين الحيارى
ان انغمسوا في رحابي
ولوذوا ببابي
وسيحوا ،
دروبي ممتدةٌ مدهشة
وانشطرُ اثنين :
بعض يلاعنُ يوم قدومي لديكِ
وبعضي يبارك يوم انتسابي اليك
وأمضي ،
تلاحقني دمدمات انشطاري
ويصلبني في الميادين جوعي وعاري
وذل انتظاري
وارجعُ مختنقاً بانكساري

● ● ●

أجيئكِ ،
تعلمنى صهواتُ الرؤى المعلمة

بكفيَّ سيفكِ،
أحمله عن ميامين قبلي
مضوا في هواكِ
وغطوا ثراكِ
وفاحوا مباخَر تمسحُ بالعطرِ احزانكِ المُظلمة
ومازلتِ شاخصةً،
كالشواهد فوق القبورِ،
كوجه الخرائبِ في ليلةٍ معتمة
وأنزل في المعمعانِ،
اطاعنُ ثبت الجنان،
وظهري إليك،
أمنتُ فجاءات هذا الزمانِ،
تلبستُ جلد الامانِ،
عرفتُ اختلاطَ المسالكِ
بَلبلة المُدلجين،
وطعْمَ المرارة في طعناتِ الجبان
ظننتُ بأنك في الروع حصني
ملاذي وأمني
وزادي إذا جُعت
كهفي إذا خلعتني القبائلُ
واختطفتني الاسنّةُ
وانهرت في ساحةِ الملحمة
وها أنتِ
عاريةً تسترين البقايا
تكشّف وجهكِ لي
وتساقط جلدكِ
هذا الخبيء وراء مدى الأقنعة
وجدتكِ راجمة الانبياء

وقاتلة الشعراءِ
ومخرسة الالسنة
وجدتكِ عاتية القهرِ
شامخةَ العُهر
فاسدة الأمكنة
وارتدُ،
أين المفرٌّ
وأين براءة حُلمٍ تقصّف
خطوٍ توقف
عُمرٍ تجاعيده مُبهمة
وأسقطُ،
تتسعين فماً لازدرادي
ولحداً عميق القرارِ،
وفخاً،
ودائرةً مُحكمة!



(٣)

الليل والمشانق

تململ ليل الخنادقْ
وأعولَ صمتُ البنادق
وطاشت رصاصاتُ من صوبوا
بكل اتجاه
ومازال وجه الحياة
قبيحاً
وعمرُ الطغاةِ
فسيحاً
وفي آخر الليل يقبع وجه المشانق!

●●●

تموجُ المدينةُ بالقهر ،
تخرج احشاءها ،
تجوع فتأكل ابناءها ،
وتقعي ،
ليعبر من فوقها الفاتحون
يراودها الصحو
ترفع رأساً
وتطلق همسا
تُلاحقها عربدات الغزاة

وتسقط تحت صهيل الطغاة
تخور المدينة ،
تلفظُ انفاسها في سكونْ
ويندِاحُ في الأفق لحن حزين
يغنيه في الظلمةِ العابرون
تموجُ المدينةُ بالعُهرِ
تكشفُ سوءتها للعيون
وتخرج عاريةً
تتناثر ، حيث تسير الظنون
وتبدعُ ،
هذا زمان التثني
وهذا أوان التغني
وعصرُ جميع الفنون
وتبدعُ
قبل انطفاء الشعاعِ
وإيقاعها صرخات الجياعِ
تدمدمُ عارمةً لاتبين
وتبدعُ
تهتز مثل الجواري
توغل فيها خيال العبيد
يسيلُ لعابهمو من بعيد
ويضرى سعارهمو بالمزيد
وتجحظ أعينهم في جنون
ويملكها ـ آخر الليلةِ ـ المتخمون!
وكيف تنام؟
وكفك فوق الزنادِ
ورأسك مشتعل بالحريق
تشعب سيل الفصائل

وحان شتاتُ القبائل
فكلٌّ بوادِ
وكل يُنادي
وكل لغايته في طريق
فكيف الاكف الشتيتة تهتز كفا
وكيف الصفوف البديدة ترتج صفا
وكيف تنام ؟
وأنت الرفيق تحاذر الرفيق
وهجس الشقيق
وحارسك المرتجى لايفيق
وماعدت تدري
وسيل الرصاص بكل اتجاه
أيأتيك من خائنٍ أو صديقْ
وكيف تنام ؟
وكل الهموم وساد
وكل الحشايا سهادٌ
وكفك فوق الزناد
مُصوبة وحدها للمضيقْ

• • •

يظل الطغاة طغاة
لأنا نطيل لهم في الحياة
ونلعق اقدامهم بالجباه
وندعو لهم في الصلاة
وحين يدوي النفير
نطير خفافا
ونعدو ارتجافاً
ونصبح نحن الضحايا ، ونحن الجناة
يظل الطغاة طغاة

ونحسب ان الزمان الوليد عقيم
وأن البلاء مقيم
وانا صغار
تضعضعنا قسوة التجربة
فتفجؤنا حين نغفي الزلازل
وتوقظنا دمدمات القنابل
مُصوبة في الصميم
فيسقط وجه الظلام الدميم!



(٤)

مدُّ البحر

أ ـ أصوات متقاطعة

جثم الحزن على كل البيوت
وتدلى من خيوط العنكبوت
وجه إنسانٍ
تغشيه ارتعاشاتٌ ورعبٌ وابتهال
وبعينيه سؤال
جاحظ، يهتز في يأسٍ صموت:
ما الذي ألوى بأعناقِ الرجال؟
وأحال الالق الكامن في وجه العيون
سُحبا تمطرُ أحزاناً
وتثوي في الرمال؟
وتدلى... فدنا
عاري الصدرِ... مسجى
وحواليه زحامُ الناسِ يمضي ويفوت
لم تلاحق سمته عين،
ولا اهتز فضول
ـ مالنا والشارعَ الصاخب؟
ـ سارع باجتيازِ الوقتِ ما بين رصيفٍ ورصيف
واعبر الخلق فما ثم مكانٌ لوقوف
أو زمانٌ لانتظارٍ وعكوف
ـ يسقط الناس،

يقومُ الناسُ،
يحيون،
يموتونَ،
يجيئون، يروحون، غيابٌ أو قفول
والتزام أو عدول
ـ لا التفات للذي يجري
ولا تُبصر إلا مايرى المدلج في ليل الكهوف
ـ لا،
ولا تشغلنا حتى الحتوف

● ● ●

خيم الحزن على كلِّ البيوت
وتدلى من خيوط العنكبوت
وجه إنسانٍ صموتْ
وجهُ إنسانٍ يموتّ!

● ● ●

ب ـ ساعديني:

هجمت من كل صوب دمدمات العاصفة
والربيع الكاذبُ الوجهِ تعرى عن رمالٍ
سافيات
وتداعى المجهدون
كلهم يحمل اياماً وأعباء ثقالا
ومرايا كاشفة
شققتها أوجه نافذة السهم،
وداستها قلوب واجفة
المدى لا يتكشف
والأماني تتوصف
ويد الإعصارِ تحتد، وتذرو

كل ما فوق الرمال
من قصور زائفة
ساعديني . . .
وامنحيني من عطاياكِ الذي يمسك نفسي
ويرد النور للعينْ
شعاعاً ووعوداً جارفة
لست اشكوكِ إلى شيخ القبيلة
لا ، ولا أدعوكِ للثأر ،
ولا أرجوك لليوم الذي يفجؤنا
من غير حيلة
نحن مطعونان والسهم بقلبينا مدمى
فاركضي في الساح ياليل الهموم
واقدحي في ليلنا المغلولِ في سود الرؤى
برق السنابك
واهبطي كالرعد ،
فالقوم المرجَّون نيام
وانظري ،
خلف الخوان الضخم أيتامٌ
وفي الباحة أضياف لئامٌ
ومع الخيمة اشباحٌ هزيلة !
ساعديني ، كي اراكِ
نحن في وجه ليالي الرعب نساقط
في قلبِ الشراكِ
كوة واحدة تكفي كلينا
إن ثقبناها نجونا
واشتعلنا كالبروقِ الخاطفة
ساعديني
ها أنا أخطو

فتنحلّ غيوم الكونِ ،
تسّاقط من فيك رضابا وغضبُ
ها أنا أدنو ،
فينداج اتساع العمر ،



(٥)

مضحك الملك

«الملكُ لك
الملكُ لك
فكلٌّ ما تقوله صواب
وحكمة لم يحوها كتاب»
وينحني المسامرُ الأنيس
وبهجة الندي والجليس
والحافظ الاسرار والاخبارِ والحكايا
يخرجها من كُمه النفيس:
«يا سيدي
ما أجملك
ما أعدلك
لولاك مادار الفلكْ
ولانتهى التاريخ من بلادنا ... بلا جدال
ألست اشجع الرجال
والطاهر النقي في خلائق الملك»
وينتشي الملكْ
منتفخ الأوداجِ ، كثّ الحاجبين
مُحدقاً إلى البعيد
مُصطنعاً تكشيرة أو اندهاشة
أو راسما على الجبين سحنة الملائكة
وعندما يهم بالكلام

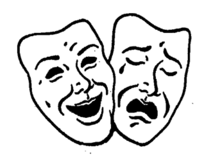
تسّاقط الالفاظ من فمه
قعقعة تذوب في الصدى
يظنها القلوب تنخلع
لأن شيئاً قادما كانه الردى
وضاع ظنه سدى
فقد تمخض الزئير عن هشاشه
ويسقط المسامر الأنيس بين بين
يحار كيف يبتدىء
أو يشبك الكلام من جديد:
«يا سيدي
الملك لك
لم يقدروك قدرك العظيم
ولم تطل قاماتهم ليبصروا ما أبصرت عيناك من خبيء
وليس فيهم حيلتك
ومكرك المراوغ المداور
كأنه نسيم
حين تصوغ من عجائب القرارِ فعلك الجريء
وسعيك المباركَ البريء
مستلهما شمائل الرسول
ونفحة الملك
الملكُ لكَ
المُلك لكْ»

• • •

يجتمع الصغار حول تحفة المسامر الأنيس
يُسمعهم مادار في مجالس السمر
مُطأطئين في ذهول
محدقين في العجائب التي يقول
وفي الغرائب التي لم يحوها كتاب:

«نشهدُ أنك المقرب الاثير
والصاحب الخطير
وأننا بين اصابعك
تملكنا، كيف تشاء»
فيستحيل شاعر الربابة
رباً، يُجالس المسوخ
في سمته المنفوخ
والقامة التي اعتادت صنوف الانحناء
انتصبت فارعة تهتز كبرياء
وتستدير في شموخ
لتمنح الصغار لفتة أو لفتتين
وينتهي الكلام
تسكتهم إشارة من اليدينْ
أو نظرة بطرف عين
ويزحف الصغار ظامئين للمزيد
ما ضر أن يكونوا تابعين للتبيع
فليحسنوا الصنيع
لعل في عطائه ما يشمل الجميع
وليهتفوا،
وليطلقوا البخور والاشعار
أليس سيّد السّمار
والواحد المعدود في غرائبِ الاسفار
والآمر المطاع في بوابة الرجاء
فمن يلامس حوضه ملك
ومن يخالفْ ورده هلكْ
ومن تزُغْ عيناه ساعة اللقاء
أغرقه التيار!
الآن يخرجُ المذعور من مكامنه

مُفتشا عن وجهةٍ اخرى، وعن سماء
تُظله من غضبة البشر،
ومن شماتةِ الذين عاينوهُ في الرغام
قولوا له... إذا لقيتموه هائما بلا دليل
فلم يزل يعيش في غيابة الحلك
منتشيا بجهله العظيم
وسره المجرب القديمِ
وقفزه من غاية لغاية
وفنه في لعبة الكلام،
أفق، فإن من ظننته الملك
قد كان يوماً مضحك الملكْ
فهل وعيتَ مقتلك؟



(٦)

جاء عصر الشتات

أحبكِ
كل الكلام معادٌ
وكل الحكايا بلادٌ
سجنت بداخلها
واصطدمت بحاجز عزلتها
واغتربت وراء دهاليزها
وأشتهيت زماناً
له جرأة وامتداد
أحبك،
واخجلي حين اهتف باسمك
كلّ النداءات لغو تكرر
وصوت قديم تناسخه العابرون
وعرس تقلص ضوء الذبالة فيه
وعشش وجه السواد
فكيف اوافيك في سحنة الاخرين
وفي لغة من دم العاشقين
وهذا دمي في شعابِ البلاد
يسيل انتحاراً وعشقاً
ويومض في جلواتِ الشروق
وينسل في لغة تتخلق عبر المنافي
وتمرق من رحم القهر،

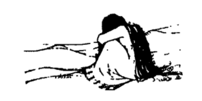
من قبضة الذكريات السجينة
من زخرفاتِ الطقوسِ العقيمةِ
تفلت من اسن في الحلوق
وترمي بنا في خضم ليالي الحداد

●●●

أحبكِ
كيف اصطخاب الرياح
وكيف اعتناق الصباحِ
وكيف اشتباك الرماحِ
وكيف انخلاع القلوبِ
على ومضةٍ من ثنايا الشرر
وكيف اندفاع الغريق
يطل على حافة الموج
يرفع رأساً
وينهار يأساً
ويثوي على صخرة في شعاب المضيق
تلاطمها دمدمات الرياح
احبكِ،
ضاقت بساكنها الكلمات
فلم يعد البيت مأوى
ولا الحلم ظلاً
ولا الزمنُ المحتوينا مساحة
ولا الوعدُ مُتكأ للحزانى
وقد جاء عصرُ الشتات
فهل تسعف الذكريات
وحيدين،
يثقل رأسيهما الاسن المستعاد
وهل تسعف الصبوات

نداءاتنا
حين يرتج خفق الزناد
يدوسُ على لغتينا السلاح
فيخرسُ صوت الكلام
ويخرس صوت الكلام المباح
أحبكِ،
مازال مُتسع للوقوفِ
ومُتسع لاختيار الحتوف
ومأوى
لمن يؤثرون العراء
على لغةٍ في ظلال الكهوف
ومأوايَ أنتِ
تشعبت حول سواحلك العنبرية
جاوزت احراش ليلكِ
تاخمتُ خلجان بحركِ
كشفت أصداءك اللؤلؤية
حلقت عبر التخومِ
وطوقت بالشعب المرمرية
ومازلت عبرَ السواحلِ
ارقب سير القوافلِ
ارتادُ شِعب المجاهلِ
ارجع بالتحفِ الموسمية
واجتازُ نحوكِ كل المسافاتِ
أعبر كلَّ الصفوف
أحبكِ،
أصبحت الكلامُ منافي
واللغة المستعارة سجنا
واقنعة الشعراءِ طلاسمْ

فكل الكلامِ مُعادٌ
وكلّ الحكايا بلادٌ
وكل الحشايا سهادٌ
فلا تسمعيني!
حُلما وشبابا ولهبْ
الربيع الكاذب الوجه تعرى
فلماذا نتوارى
خلف أوراق الشجيرات العليلة
بعدما اهتزت الينا آسفة
ها أنا أرنو
وفجر كاذب يمضي
وبعد الفجر تدنو الراجفة
ساعديني
إن ينبوعاً من الاسرارِ لا يكفي
وطوفاناً من الاشواقِ لا يشفي
ومد البحر،
لا يروي نفوساً تالفة!



(٧)

كلاسيكية

هــذى طــريقــي، وهــذا منتهــى أمــدي
وأنــــتِ أمسي، فلا تستمسكــــي بغــــدي
وقفــتُ عمــري على وهــمٍ ظفــرت بــه
والآن يــاوهــم مــا أبقيــت مــلء يــدي
وقفــت صحــوي على افــقٍ طلعــت بــه
شعــاع مستــدفــىء يــدنــو لمرتعــدِ
وقفــت خطــوى على درب بــه اشتجــرتْ
هــوج الريــاحِ وعــض القيــد في جلــدي
وصــوحــت لحظــات كنــت احسبهــا
زاداً وريــاً لمخــذول المتــاع صــدي
كــانــت جنــاحيــن مــن نعمــى ومــرحمــةٍ
ومــن تمــازج أرواح ومعتقــدِ
رفيــف أنســامهــا أنفــاس عــافيتــي
وبــرد انــدائهــا ينســاب في كبــدي
اطبقــت عينــي، يــارؤيــا بهــا اكتملــتْ
ملامــح الابــدِ الغــافي، بلا أبــدِ
حتــى صحــوت علــى دنيــا بلا أفــقٍ
ولا شعــابٍ ولا فجــرٍ ولا عمــدِ
تــزاحمــت فيــك أضــداد الحيــاة، فلا
نجــاة مــن صــدمــاتِ القهــر والعقــدِ
وأفــرخــت فيــك أوهــام الطــريــق، فلــم
تــدن السبيــل لنــائــي العيشِ، مُفتقــدِ

توقف الزمن العاتي، وخلفني
طريح حُلمٍ، بعيد المنتأى، بددِ
هذا صهيل الليالي في محابسها
وتلك حمحمة الأيام في الوتدِ
وأنت أسطورة في اليم غارقة
تشي بها فورة الأمواجِ بالزبدِ
ورشفة من شرابٍ سائغ عذبت
تناقلتها يد الاقداح كالرصدِ
لا تتبعيني كفاني خطو مبتئسٍ
أو تسبقيني، كفاني نأيُ مبتعدِ
لم يبق من غايتي وعد يُعللني
ومن سراب الرؤى كشف لمجتهدِ
اليومَ أحكمت الافلاك دورتها
هيهات يرجع عمر بالحنان ندي
يا ويلتاهُ وظل العمرِ مرتعش
والكون خالٍ، وما في البعد من أحد
إني دفنتكِ في نفسي وفي خلدي
إني بعثتك في روحي وفي جسدي!

(٨)

قطار الجنوب

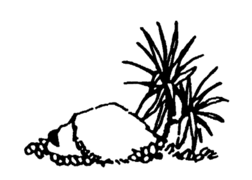
(في وداع الشاعر المصري امل دنقل)

في عيون المحطاتِ يرقد بوح انتظار
ويقلع برق انخطاف
تستطيل المسافة بين المودَّع والمترجلِ
بين المغامر والمتوجس
بين الشجاع المحاذر والغر، ذاك الذي لا يخاف
والصبايا افترشن المساء،
واشعلن اشواقهن دخاناً صعد
جئن هيأن كنز الصدور الخبيء
لحلمٍ جرىء تدثرنه
ولوعدٍ تنظرنه،
وليالٍ مجهزةٍ للقطاف
ياقطارَ الجنوبِ المسافرِ،
مخترقاً صبواتِ المدى،
طائراً بالرشد
لا الوجوهُ الحبيبة عادت
ولا الشوق منطفىء في عيون البلد
الصبايا احتشدن،
انتظرْنَ،
انطفأن،
وأوشكن يبكين
أوشكنَ يرحلن

مازال خيطٌ رفيعٌ
وصبرٌ وجيعٌ
ودائرة من شعاع بعيد
يلوح فيها ولد
امه ودعته
انحنت فوقه، جذع صبارةٍ،
ضمة للذى،
هل تراه يعود
وهل يسعف العمر،
وانداح ليلُ السفر
وانحنت خلفه شجراتٌ تعودن ان يستمعن حكاياته
وهو ينشدها للقمر
وبعثر جدول ماء
تمنى يلاحقه،
كان يمرح فيه ويشغب منذ الصغر
ياقطار الجنوبِ تمهلْ
فهذا صغيرك مندفع للمصير الذي ينتظرْ
صفرة في الجبين
دمع بعينيه
والصوت لا يسعف الآن،
يا مهجة لا تقرِ
يستدير الزمانُ
ويساقط العمر،
راحت تغيمُ الوجوه القديمة
ترحل شيئاً فشيئاً الى الظل
تبحر حتى ضفاف النهر
ويغيم القمرْ
مرةً... لو يعود

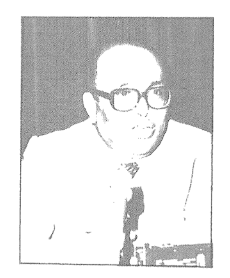
فيم هذا التساؤلُ يا أم
يا عبق الارض ،
ياغابة النخلِ ،
يا شجرَ السنديان،
ويا موطئاً للخطى... سار فيه الفتى مذ ولد
يا قطار الجنوبِ اتئد
ان وجه الفتى يتشكل
قلب الفتى يتبدلُ
لون الفتى يتحول
يا ام
اخشى عليك اللقاء الذي لن يفيد.. النداء الذي لا يرد
فأنسي للسكون
المسافة حلمُ، ووجوه الليالي بدد
والطريق الذي سار فيه الفتى
لم يعد منه يوماً احد
يا قطار الجنوب الذي حين يصفر، يمتد فينا النشيج
فوران الدموع الحبيسةِ في القلب يصعد
فإذا في العيونِ المُطلةِ تلك السحابة تغشى العيون ولا تتبددْ
ها أوان التماسكِ
انا كبرنا
ويفضحنا الدمع،
يخذلنا الوجدُ،
لكننا نتجلدْ
ما الذي حين تصفر؟
ينخلع القلب منا
ونهوى نعانق في الارض وجه حبيب موسد
ما الذي حين تقبلُ
يملؤنا بانتظارٍ ثقيلٍ

لو هم قديم تجدد ؟
ما الذي حين تبعدُ
يقذفنا للضياع ،
ويتركنا للشجى .. والتوحد ؟
فوران الدموعِ الحبيسة في القلب يصعدْ
جيشان الهمومِ الخبيئةِ في الكون يمتد
يا قطار الجنوبِ المسافر عبر القلوب اتئد
يا قطار الجنوبِ اتئد !



المحاضرة الخامسة

مستقبل اقتصاد دول الخليج



للاستاذ الدكتور/ محمد لبيب شقير



الاستاذ الدكتور محمد لبيب شقير

- من مواليد جمهورية مصر العربية ١٩٢٦ .
- حصل على ليسانس الحقوق جامعة القاهرة ١٩٤٧ .

ـ دكتوراه الاقتصاد السياسي جامعة باريس ١٩٥٢ .
ـ استاذ الاقتصاد السياسي بجامعة القاهرة .
ـ وزير التخطيط .
ـ وزير التخطيط والاقتصاد .
ـ وزير التعليم العالي والبحث العلمي .
ـ رئيس مجلس الامة المصري ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ .
ـ مستشار الشئون القانونية والاقتصادية بصندوق النقد العربي منذ عام ١٩٧٨ .

- أهم المؤلفات :

ـ العلاقات الاقتصادية الدولية بين البلاد العربية ١٩٥٨ .
ـ تاريخ الفكر الاقتصادي ١٩٥٩ .
ـ التنظيم الاقتصادي للسوق العالمية للبترول عام ١٩٦٠ .

مستقبل اقتصاد دول الخليج

ان موضوع مستقبل اقتصاديات دول الخليج هو موضوع هام وخطير: فبالرغم من أنه يتصل بدول الخليج العربية، الا أن اهميته تتعلق بمستقبل اقتصاديات الوطن العربي كله، لان التطورات السياسية والاقتصادية التي حدثت في المنطقة، انعكست على كل جزء في الوطن العربي.

يشتمل موضوع اقتصاديات دول الخليج على ثلاث ملاحظات رئيسية:

- الملاحظة الاولى: هي تعريف دول الخليج، وأعرفه بأن دول الخليج العربية هي دول مجلس التعاون الخليجي ، اي الدول الست التي تشمل كلاً من دولة الامارات العربية المتحدة، المملكة العربية السعودية، دولة الكويت، دولة قطر، دولة البحرين، سلطنة عمان.

- الملاحظة الثانية: تتعلق بموضوع الحاضر والمستقبل لاقتصاد دول الخليج إلى أين وصل؟ وإلى أين يتجه؟ وليس المقصود من ذلك محاولة التنبؤ بما سيكون عليه هذا الاقتصاد، وانما المقصود هو دراسة ما هي الخيارات الممكنة أمام التطور الاقتصادي في المستقبل بالنسبة لدول الخليج في ضوء التطور الذي حدث في الفترة الأخيرة، أي منذ منتصف السبعينات إلى الآن، وهل سيستمر التطور بهذا الشكل او النمط؟ وما هي نتائجه في هذه الحالة، أم أن الأمر يتطلب تطويراً أكثر كفاءة، لتحقيق نتائج معينة. هذا هو السؤال المطروح الآن والذي يشكل لنا جوهر هذا الموضوع.

- الملاحظة الثالثة: ان كل تقييم لتطور في فترة، وكل توجيه لهذا التطور في فترة لاحقة، يجب ان يقاس بمقياس أو احصاء معين، والمقياس أو المعيار الذي يجب استخدامه هنا هو معيار التنمية الحقيقية.

لقد ساد بعد الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية الستينات فكر اقتصادي، يرى ان كل ما يتحقق في الناتج المحلي لبلد من البلاد، وبالتالى دخل الفرد

فيه، او لمتوسط نصيب الفرد من هذا الناتج المحلي يعتبر منضوياً تحت ظاهرة التنمية. هذا الفكر الذي طبق واسترشدنا به في تجاربنا التنموية في كثير من الدول النامية، بما فيها دول العالم العربي، يثبت في الواقع انه قد ظل وأظل عمليات التنمية بظلال كبيرة، لأنه يمكن جدا ان يزداد ويرتفع الناتج المحلي لبلد من البلاد، واذ يرتفع متوسط نصيب الفرد من هذا الناتج المحلي (متوسط نصيب الفرد = $\frac{\text{الناتج المحلي الاجمالي}}{\text{عدد السكان}}$) دون ان يكون قد حدث تحسن حقيقي، او ارتفاع حقيقي في مستوى معيشة غالبية الناس، او دون ان يقترن ذلك بتطور عميق في الاقتصاد يضمن له استمرار النمو في مراحل لاحقة، اي دون ان يكون قد حدث زيادة وارتفاع في القدرة الذاتية الانتاجية تجعل النمو قابلا للاستمرار.

هذه هي الفكرة التي بدأ منها تيار حديث معاصر، لتحديد فكرة التنمية، بانها زيادة القدرة الذاتية الانتاجية للاقتصاد في بلد من البلاد، على نحو يجعل من الممكن التزايد المستمر والمطرد للانتاجية، وأن يكون ذلك في اطار يحقق للاقتصاد درجة من أمنه القومي الذي يتمثل في استقلاليته، وعدم تبعيته تبعية واضحة للخارج، وبما يعود بالخير على جماهير المواطنين الموجودين في ظل هذا الاقتصاد.

فهذا التعريف يركز على فكرة زيادة القدرة الانتاجية باعتبارها المعيار الذي نقيس به النتيجة الاقتصادية الحقيقية، وليس مجرد الزيادة الحسابية في الناتج المحلي لبلد من البلاد او لمتوسط نصيب الفرد من هذا الناتج في هذا البلد، وقد طبقت هذه الفكرة بين الاقتصاديين العرب بل حتى من ابناء الخليج، فمنهم من طبقه في تحليله باعتبار هذا التعريف هو الاساس الذي يجب أن نقيم عليه كل ما يحدث في الاقتصاد الخليجي.

بعد هذه الملاحظات الثلاث سيدور موضوع الاقتصاد في دول الخليج، والتطور الذي حدث له حول موضوعات او نقاط ثلاث بصفة اساسية.

النقطة الأولى:

عن نمط او نوع التطور او النمو أو التنمية، واستخدام المصطلحات الثلاثة بمعنى واحد حتى نصل لتقييمها بعد ذلك، فما هو هذا النمط الذي حدث؟

وما هو مداه؟ وماهي الآثار التي ترتبت عليه؟ وما هو حكمنا على هذا النمط.

النقطة الثانية:

نمط العمالة، نوع العمالة التي استخدمت في هذا التطور وانعكاساتها على الامكانات المقبلة للتطور في دول الخليج.

النقطة الثالثة:

نمط التوزيع الجغرافي لتوظيف الأموال التي استخدمت او توفرت لدول الخليج، نتيجة لنمو العائدات النفطية، وهو النمط الذي كان له التأثير الكبير على التنمية في المنطقة، ليس منطقة الخليج فقط وانما المنطقة العربية كلها، ومن جانب آخر التأثير على نمط العلاقات بين منطقة الخليج والخارج، ثم اخيرا ما هو مدى استمرارية هذا النمط، أم أن هناك بدائل اخرى يمكن ان تأتي في مقابله، واذا كانت هناك بدائل فعلا؟ ما هي الامكانات المتاحة امامنا.

من ناحية أخرى يجب الاشارة إلى ان هذا التطور كله انما حدث تحت تأثير تطور في الاحداث النفطية، بدأت سنة ١٩٧٣. وعلى ذلك فإن مدخلا ضرورياً يفرض نفسه علينا، هو موقع النفط والسياسة النفطية او نظرة إلى النفط في هذا التطور الكلي.

كان النفط موجوداً في المنطقة، وفي بعض دولها منذ فترة وقبل سنة ١٩٧٠، فقد اكتشف في بعضها قبل الحرب العالمية الثانية وفي بعضها بعد الحرب، لكن النفط لم يبدأ كقوة دافعة في عجلة التطوير على نحو مؤثر واحدث كل التطورات التي وصلنا اليها، الا بعد ما يسمى بتصحيح اسعار النفط، او ما يسميه البعض بالثورة النفطية في اكتوبر ١٩٧٣. حينما انتزعت الدول النفطية بما فيها الدول العربية سلطتها وحريتها في تحديد سعر النفط الذي كانت تحدده الشركات الاجنبية الكبرى المسيطرة على الانتاج في المنطقة، فقد كان سعر برميل النفط الاساسي الذي يتخذ اساسا للتسعير، اقل من ثلاثة دولارات للبرميل قبل اكتوبر ١٩٧٣ ليصل في عام ١٩٨٠ إلى ٣٤ دولاراً للبرميل.

هذا التطور الضخم والارتفاع الهائل في سعر النفط والذي كان يمثل تصحيحاً لوضع كان يجب تصحيحه، ترتب عليه بالضرورة زيادة عائدات النفط التي تحصل عليها دولنا، فيكفي في هذا الصدد ان اشير إلى بعض الارقام التي تعطي فكرة بسيطة عن هذا التطور في المنطقة. فقد كان دخل دولة الإمارات العربية المتحدة من النفط سنة ١٩٧٢، ٥٥١ مليون دولار ارتفع حتى وصل سنة ١٩٨٠ إلى ٢ر١٩ بليون دولار، والمملكة العربية السعودية من ٨ر٢ بليون دولار عام ١٩٧٢ إلى ٢ر١٠٤ بليون دولار سنة ١٩٨٠، ودولة الكويت من اقل من ٥٠ر١ بليون دولار إلى ٣ر١٨ بليون دولار.

وفي قطر ارتفعت من ٢٥٥ مليوناً حتى وصلت إلى بليون دولار، أما البحرين وعمان فان دخلهما من النفط بسيط لا يضعهما في مصاف هذه المبالغ الكبيرة التي ذكرناها.

هذا التطور الضخم في العوائد احدث منذ البداية نوعا من التغيير بالضرورة بالنسبة للاقتصاديات في هذه الدول، ولكن الملاحظة الهامة التي تفرض نفسها هنا، هي أن تفكيرا جديداً بدأ في المنطقة كلها كان من مقتضاه استخدام هذا الثراء في استحداث نوع من التحديث ومن اشاعة الرخاء في هذا الاقتصاد، فبدأت عملية انفاق ضخم بعضها لاقامة البنى الأساسية في الاقتصاد، وبعضها لاقامة خدمات اساسية كان جزء كبير من المنطقة محروما منها أو غير متوفرة فيه.

كان يسود المنطقة فرضان او أساسان، هما:

الأساس الأول: أو الفرض الاول والذي لابد كان يدور ضمنا في تفكير المنطقة، هو انها تعتبر ان قدراتها على فرض السعر البترولي العالمي قدرة دائمة ولا يمكن أن تتعرض للاهتزاز او تتعرض لاضعاف.

الغرض الثاني هو أن استخراج البترول كان يتم كما لو كان هذا المصدر غير قابل للنضوب، وكما لو كان هذا المصدر دائما وثروته دائمة لا تنتهي.

كان هذان الفرضان يوجهان تفكيرنا في انفاقنا، فمنذ رفع السعر، وأخذ الدول النفطية زمام تحديده، لم تقف الدول الصناعية والدول المتقدمة ساكنة،

ففي سنة ٧٤، ٧٥ وفي خطابين هامين لهنري كيسنجر احدهما في الولايات المتحدة والثاني في اوروبا ولهما نفس المضمون تقريبا يتبين ان هناك تفكيراً للدول الصناعية الغربية لمواجهة الموقف الجديد، الذي نشأ بالنسبة للنفط بعد انتزاع الدول النفطية لسلطتها ولسيادتها في تقرير السعر. فمن الواضح انه كان هناك تخطيط على الاقل لدى الادارة الامريكية، تبلورت بدايته بان حاولت ان تشرك فيه الدول الصناعية الاخرى، هذا التخطيط كان يقوم على عدة عناصر، تقوم بين الدول الصناعية الغربية نفسها، وبعضها الاخر يجب أن يترك لكي تقوم به الدول النفطية تلقائياً وأن محصلتها معا (هو انه لا يجوز ان تسيطر الدول النفطية النامية على هذا المورد) هذه العبارة التي لخصها هنري كسينجر تعتمد على عدة عناصر:

العنصر الأول: الذي يجب ان تحققه الدول الصناعية، هو أن تبدأ وعلى الفور في تطبيق سياسة التوفير في استخدام الطاقة بما فيها استخدام البترول.

العنصر الثاني ان الدول الاوروبية والولايات المتحدة واليابان وكندا وهي الدول الصناعية لابد أن تستثمر اقصى ما يمكن استثماره طبقا للمبادىء الاقتصادية في ايجاد بدائل للبترول او في بعث بدائل قديمة أو في التوسع في البدائل التي كانت مستخدمة او ضعف استخدامها مثل الفحم او التوسع في بدائل جديدة مثل الطاقة الذرية وغيرها من أنواع الطاقة ابتداء من الطاقة الشمسية.

العنصر الثالث: يجب أن تتجه هذه الدول إلى اتخاذ مجموعة من السياسات تكون من شأنها بالاضافة إلى العاملين السابقين جعل الاسعار أو جعل قدرة الدول النفطية على تحديد الاسعار تضعف قليلا قليلا بحيث لا تصبح بنفس القدرة التي استطاعت ان تبدأ بها بالنسبة للدول النفطية، وقد ألمح هنري كيسنجر إلى أن تزايد العائدات، يمكن ان يحدث تيارات انفاق كبيرة في الدول النفطية غير مبنية على اسس اقتصادية رشيدة يكون من شأنها امتصاص جزء كبير من العوائد التي تعود على هذه الدول. ثم يجعلها تعتاد على مستوى معين وانواع معينة من الانفاق يجعلها ترتبط بالسوق الغربية ارتباطا كاملا. هذه كانت اشارات عابرة في خطابي هنري كيسنجر واشار ايضا إلى انه يجب على الدول الصناعية تكوين وكالة الطاقة الدولية أو

هيئة للطاقة الدولية من مجموعة الدول الصناعية المستهلكة للنفط لكي تنسق سياستها وتمنع الدول النفطية من السيطرة على هذا المصدر ثم ذهب إلى ابعد من هذا عندما نادى بضرورة التعاون بين الغرب والدول الشرقية والاشتراكية لمواجهة مستقبل مشكلة الطاقة النفطية. هناك امر اخر لم يذكره هنري كسينجر، وانما ذكر بعد ذلك بواسطة مفكري واقتصاديي اوروبا، وهو ان العائدات التي تأتي إلى الدول النفطية، (ليست قاصرة على الدول العربية بل هناك دول نفطية أخرى اعضاء في الاوبك) يجب أن تجد مجموعة الدول الصناعية الغربية وسيلة لامتصاص هذه العائدات في الاقتصاد الاوروبي او الامريكي. فظهرت فكرة اعادة تدوير العوائد. واعادة تدوير العوائد تعني أن العائدات التي تبقى لدى الدول النفطية بعد أن تستورد وتنفق وتستثمر وتقيم مشروعات انتاجية وإلى اخر ما يمكن صرفه. يجب أن تؤخذ هذه العائدات إلى جسد الاقتصاد الاوروبي والغربي اي في جهازه النقدي والمالي، بأن تودع في شكل ودائع، لكي يقوم هذا الجهاز بعد ذلك بتدويرها. أي ان الفائض الذي يتولد في موازين مدفوعات الدول النفطية والذي كان يمكن ان تطلب به سلعاً وخدمات إلى اخره، لابد ان يوضع تحت يد الدول الصناعية المتقدمة، لكي تقوم هي بتدويره فلا تجد صعوبة في مواجهة عجز ميزان مدفوعاتها عن طريق دفع مبالغ كان لابد أن تدفعها إلى الدول النفطية. وهذه المبالغ ليست بالضرورة نقداً بل بشكل صادرات وسلع أي أن الدول الصناعية استطاعت ان تحدد الاثر المترتب على تصحيح اسعار النفط على موازين مدفوعاتها لانها اصبحت تحصل على الفائض لديها بشكل استثمارات وودائع اي اعادة تدويرها.

هذا التفكير كله طبق بدقة ولم يتغير فيه حرف. فهذا التطور الذي حدث حتى وصلنا إلى وضع حققت فيه الدول الصناعية جزءاً مما كان مخططاً له وهو اضعاف قدرة دول الاوبيك على تحديد السعر وجعل الدول الصناعية هي المسيطرة على هذا التحديد، وقد طبقت هذه العملية على عدة مراحل واجراءات واخذت مسالك كثيرة.

عند اجتماع منظمة الاوبك في فبراير سنة ١٩٨٣ في جنيف لم تستطع لاول مرة ان تتفق على حل لجميع المشكلات المتعلقة بالتسعير او بتوزيع

الحصص. ويعني هذا ان القدرة التي كانت لدول الاوبك والاوابيك مجتمعة في فرض السعر قد زالت، أو قد اهتزت إلى درجة تكاد تكون قد زالت.

وبالتالي فانه كان يجب ان يتم عمل شيء لاعادة قوة الاوبك. لكن واقع التطور الذي حدث وصولا إلى جنيف، يدل على ان قدرة الاوبك على التسعير اهتزت لدرجة كبيرة بسبب تناقضات مصالح الدول المصدرة وجزء من هذه التناقضات نشأ بسبب تحريك أو حدوث التطور طبقا لبعض العناصر التي وضعها هنري كسينجر لكي يوجه بمقتضاها هذا التطور، فمثلا نيجيريا وهي الحلقة الضعيفة في سلسلة الاوبك بسبب اعتيادها على مستوى معين من الانفاق ثم العجز الشديد في ميزان مدفوعاتها والاستدانة الكبيرة التي وقعت فيها فلم تستطيع ان تستمر دون ان تبحث في السوق عن طرق كثيرة تحصل بمقتضاها على قسط كبير من السوق. هذا بالاضافة الى التنظيم الداخلي للاوبك الذي جعل الاوبك في السنوات الاخيرة غير قادرة على فرض السعر، وقد ظهر ذلك في اجتماع لندن فبعد ان كانت اجتماعات الاوبك تستغرق مدة بسيطة استغرق اجتماع لندن مدة طويلة ليس لها مثيل في تاريخ الاوبك وتبين بالتأكيد ان هناك عناصر يمكن أن تؤثر عليها من الخارج، مثل الدول المنتجة غير الاعضاء في المنظمة ودول الكتلة الشرقية وهذه الادوار لها أهمية كبيرة.

من الضروري ان يحدث في المستقبل تغير في التفكير، وفي النظرة إلى النفط، عن النظرة التي كانت سائدة حتى الآن، وبالذات في العنصرين السابقين فلابد ان تبنى كل السياسات حول النفط على اننا قد لا نكون قادرين كل القدرة على تحديد السعر او التحكم به كما نشاء. ثم العنصر الثاني وهو ان النفط مورد ناضب ومن الخطأ ان نتصور انه مجرد سلعة تعطينا اموالاً. فالنفط هو عنصر الطاقة الوحيدة الموجودة في العالم العربي واذا استنفذ في فترة قصيرة فان معنى ذلك ان الاجيال القادمة لن تجد موردا للطاقة، ولذلك فان النفط كمصدر للطاقة في المستقبل يجب ان يدخل في اعتبارنا عند تحديد سياساتنا المستقبلية، لأن النفط سلعة قابلة للنضوب على المدى القصير، اذا استمر بالمعدلات التي يستخرج بها النفط حاليا وبالمعدلات التي تكتشف بها الاحتياطات حاليا وهي معدلات ضئيلة بالقياس بالمعدلات

المقابلة في العالم. فان النفط في المنطقة العربية يمكن ان يستنفد في اعلى تقدير بعد ٥٦ سنة وفي اقل تقدير بعد ٤٦ سنة ومعنى هذا أن عمر النفط العربي ٥٠ سنة بالمعدلات الحالية، أي أن الاجيال التي ستأتي بعد ٥٠ سنة لن تجد موردا للطاقة لان الدول العربية فقيرة جدا في مصادر الطاقة الاخرى، فالفحم ليس له وجود في المنطقة، ثم المورد الاخر وهي الطاقة الذرية تحتاج لخبرة تكنولوجية ليست متوفرة حاليا بالمستوى الملائم عند الدول العربية، وبالتالي فاننا نسلم الاجيال القادمة اقتصاداً بلا طاقة وبلا امكانيات للحصول على الطاقة من الخارج، وهذه المدة تنطبق في المجموع ولكن بعض الدول لها احتياطي يمتد إلى اكثر من ٥٠ سنة وبعض الدول الاخرى لها احتياطها النفطي الذي يصل إلى حوالي ٩ سنوات. فهذا متوسط للمنطقة في مجموعها. يترتب على هذا انه لابد من سياسة رشيدة جديدة في الانفاق وليس الترشيد الحالي الذي لا يتسم بالكثير من قواعد الترشيد الاقتصادية التي نجدها في كتب علم الاقتصاد.

ننتقل إلى نقطة اخرى وهي نوع التطور الذي حدث. فاذا نظرنا إلى التطور الذي حدث في المنطقة من زاوية التنمية أو النمو سنجد عدة ملاحظات يمكن التركيز عليها وهي تكشف مدى المشكلة التي نحن بصددها:

الملاحظة الاولى: اذا نظرنا إلى الناتج المحلي الاجمالي في الدول الخليجية نجد ان التزايد في الفترة من سنة ٧٥ إلى سنة ٨٠ تزايد بمعدلات ضخمة جدا، ومعدلات الاسعار الجارية في المتوسط تزيد عن ٢٦٪ سنويا وهذا معدل ضخم لكن اذا اردنا ان نعرف حقيقته، لا يمكن ان ننظر اليه بالاسعار الجارية اي السعر كل سنة لان الاسعار يمكن أن تكون قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً. واما اذا تم الحساب بالاسعار الثابتة اي بالاسعار لسنة معينة وافترضنا ان السعر المتعلق بتلك السنة هو الاساس فرضا فاننا نستطيع أن نقيس، ويكون هذا المعدل في حدود ١٥٪ سنويا، وايضا هو معدل مرتفع، والسبب ان هذا الارتفاع في الناتج المحلي السنوى جاء اساسا او كليا من النفط ومن تزايد عائدات النفط، البعض قد يستنتج من ذلك طبقا للنظرية التي سادت بعد الحرب العالمية الثانية وعلى الاقل من الفكر الذي ساد في قياس عملية التنمية ان هناك تنمية قوية، في الحقيقة هناك تيار كبير من الفكر الاقتصادي

العالمي وفي الاقتصاد العربي ايضا يقول ان ما تم حتى الآن هو تحديث قوى في الاقتصاد . ان هناك نمواً ولكن لا توجد أسس تنميه حقيقية ، فالقدرة الذاتية الانتاجية للاقتصاد لم تنم وانما الذي نما هو ما يستخرج من النفط ويصدر إلى الخارج وينعكس ذلك على بعض العمليات . هنا يجب أن نؤكد بأن دول الخليج كانت ومازالت تعتمد بصفة اساسية على انتاج وتصدير سلعة واحدة هي سلعة النفط والناتج المحلي الذي يخرج من قطاع الصناعات الاستخراجية للنفط يشكل حوالي ٦٢٪ من الناتج المحلي الاجمالي في المنطقة بتفاوت في النسب ٦٣٪ في السعودية ، ٦٤٪ في الامارات ، ٦٨٪ في الكويت ، ٦٩٪ في عمان ، ٩٠٪ في قطر ، ومن باب المقارنة ٥٧٪ في العراق (احصاءات ١٩٨٠) . السلعة الوحيدة وهي النفط تشكل النسبة الكبيرة في الناتج المحلي ، صادرات النفط تشكل ايضا نسبة كبيرة جدا من الصادرات الكلية في المنطقة ٨٨٪ من مجموع صادرات السلع ، والخدمات في السعودية و٨٧٪ في الكويت ، ٩٠٪ في قطر ، ٩٤٪ في عمان (احصاءات ١٩٨١) ، وعوائد النفط تعتبر المصدر الاساسي لتزويد البلاد بالعملة فالتجارة مع الخارج تمثل نسبة هامة من الناتج المحلي سواء في الصادرات أم في الواردات مما يعني ان الاقتصاد مرتبط بالكامل بالخارج ومتوقف عليه ويتغير ويتأثر به ويتطور طبقا لتطور الموقف الذي يتخذه الخارج من مشكلة النفط .

لقد اصبح الاعتماد على الواردات في اشباع الطلب المحلي في منطقة الخليج اكثر مما كان عليه في بداية السبعينات فقد ارتفعت نسبة الواردات إلى الطلب المحلي مقارنة باسعار سنة ١٩٧٥ ارتفع خلال الفترة من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٠ من ٤٠٪ إلى ٥٧٪ في السعودية ، ومن ٤٩٪ إلى ٦١٪ في الكويت وهذه صورة اثر من الاثار التي تمت ، في الوقت نفسه نلاحظ ان الواردات تزايدت تدريجيا تزايدا خطيرا لو اخذنا الارقام الموجودة وهي ارقام في غاية الضخامة ففي السعودية كان استيراد البضائع في سنة ١٩٧٣ يقدر بـ ٢ر١ بليون دولار وصلت إلى ٣ر٢٨ بليون سنة ١٩٨٠ ، استيراد الخدمات كان ٣ بليون وصل إلى ٣٣ بليون دولار ، هذا نموذج تقريبي يمثل نفس النسب في كل بلدان الخليج يعني نفس الارتفاع في قيمة الواردات . السؤال الذي وضعه الاقتصاديون هنا ، هل نحن أمام ظاهرة تنمية حقيقية أم لا ؟ بمعيار الناتج

المحلي نحن أما تنيمة حقيقية فعلية، لكن بالتعريف الاخر للتنمية نجد ان التنمية اقل بكثير لان الطاقة الانتاجية الذاتية مازالت في حاجة لنمو اكثر، ومازالت في حاجة الى تنمية، ولا يكفي ان نعتمد على سلعة واحدة حتى لا نصبح تحت رحمة الخارج بالنسبة لهذه السلعة.

من ناحية اخرى قد يسأل البعض واين تنمية الموارد الطبيعية التي تمكنا من التنويع، الشيء الهام في هذه النقطة هو أن هيكل الاقتصاد مازال مثله مثل هياكل الاقتصاد في الدول النامية بما فيها بقية العالم العربي والدول النامية الاخرى ولكن له طبيعة خاصة، هيكل غير متوازن يعتمد على سلعة واحدة في الانتاج والتصدير بشكل اساسي في مواجهة الجزء الكبير من احتياجاته من السلع، قدرته الانتاجية زيادتها محدودة جدا، في حقيقة الامر الذي جعل كثيراً من الاقتصاديين الغربيين بل ومن المنطقة الدارسين للتنمية الاقتصادية في الخليج، يرون أن ما تم يجب ان يتطور تطورا كبيرا لكي يضبح تنمية حقيقية فعلية قادرة على الاستمرار، وان الجهود التي بذلت حتى الان تركزت اساسا على عدة قطاعات مثل البناء والتشييد وقطاع الخدمات، الذي يسمى في الاقتصاد (القطاع الثالث) ثم قطاع الحكومة اي انشاء الادارات. وربما يقال ان هذا وضع طبيعي لان دول الخليج في الواقع كانت تحتاج لبناء البنى الاساسية اللازمة لها والتي كانت غير مكتملة، الامر الذي جعل من الضروري عملية الانفاق الضخم بعد تزايد عائدات النفط، اي كان لابد من بناء البني الاساسية وهو الامر اللازم لعملية التنمية بعد ذلك، مصانع التجهيزات، البناء، طرق نقل، مواصلات، كهرباء الى اخره، المنطقة كانت محتاجة أيضاً للخدمات فكان لابد من التوسع في الخدمات التعليمية والصحية من مدارس ومستشفيات إلى آخره وهذا وضع طبيعي، لكن الواقع وما يمكن ان يقال بالاضافة إلى ذلك يمكن تلخيصه في عدة نقاط:

النقطة الاولى: أن هذه المشروعات جميعا تمت بتكلفة ضخمة لم يراع فيها الحساب الاقتصادي السليم هذه النقطة الاولى ترتب عليها في الواقع اسراف وتبديد لجزء من الأموال التي كان يمكن استخدامها في عمليات انتاجية اخرى.

النقطة الثانية: هي أن عملية الانفاق التي تمت ايضا والتي اريد بها تطوير

الهيكل الانتاجي للبلاد لم تتم في ظل منظور تنموي طويل او بعيد المدى، ولكنه جاء نتيجة استجابات آنية للرغبة في احداث تطوير سريع.

كان الاقتصاديون يرون خلال الستينات ان جميع الدول النامية تقريبا فيما عدا الدول النفطية تعاني من عدم توفر عنصر رأس المال، وعدم توفر النقد الاجنبي الامر الذي يخلق ضغوطاً مستمرة على جهاز الادارة الاقتصادي وجهاز التخطيط الاقتصادي بحيث يجعل مهمة هذا الجهاز تتحول وتنحرف إلى محاولة مواجهة المواقف الانية والأزمات فلا يضع تخطيطاً رشيداً طويل المدى لعملية التنمية لان المشكلات الانية او الضاغطة في جانب التمويل تحرم المسؤول عن التخطيط او عن ادارة الاقتصاد من أن يجد الامكانيات ليضع تخطيطاً طويل المدى.

ان توفر الموارد المالية والنقد الاجنبي في الدول النفطية في العالم الثالث كله يعطى الفرصة لهذه الدول لتضع منظوراً تخطيطياً طويل المدى، ينظر إلى احتياجات النمو واساليبه وطرقه عندما يكون البترول قد فاتت مرحلته، او بمرحلة ما بعد النفط التي ينظر اليها بأنها مرحلة نضوب النفط أو المرحلة التي تفقد الدول النفطية قدرتها على التحكم بالسعر ويكون الدخل الذي يأتيها لا تستطيع التحكم فيه كان لابد ان يكون هناك تخطيط طويل المدى لهذه الدول فالمشروعات والحركة الانمائية التي نمت في ظل هذا المنظور تمت ايضا في ظل سياسات انتاجية دفعت إلى زيادة الانفاق الاستهلاكي بضخامة مما عرقل عملية النمو ذاتها وهذا تم في الواقع نتيجة سياسات توزيعية اتبعت في المنطقة كلها. فقد اتبع في المنطقة توزيع الدخول في شكل وظائف، او في شكل تعويضات عن مساكن، او في شكل تمليك إلى آخره، وهذا ينطبق على منطقة الخليج، اي لم يكن هناك ربط للدخل بالانتاجية بالنسبة لقسم كبير من المجتمع. والنتيجة هي ظهور انواع معينة من النشاط الاقتصادي في التجارة والمضاربة إلى آخره. وهي اتجاهات ليست سوية تماما لعملية النمو او التنمية الاقتصادية الحقيقية.

ايضا فان هذا التطور الذي حدث حدث في ظل اعتماد متزايد على عمالة يتزايد فيها نصيب العمالة الاسيوية بالذات ولهذا مخاطره من نواحٍ عديدة، نواحي الاستقرار والتكوين السياسي والاجتماعي للبلد.

لنا أن نتساءل هل نمط التنمية الذي حدث في شكل تحديث وتنمية قوية بالشكل الذي يظهر لنا من التحديث الذي ظهر ، ومن معدل النمو والدخل القومي . هل هذا الوضع يمكن ان يستمر اذا حدث اهتزاز في ظروف تسعير البترول او في التحكم في الدخل المتأتي من البترول ؟ هذا سؤال يفرض نفسه .

كل الأموال المطلوبة لتمويل عملية التنمية في المنطقة تتوقف على البترول وتصديره للخارج فاذا بدأ هذا الدخل المتأتي عن تصدير البترول في الانخفاض تم انخفاض هذه المعدلات .

فبالتأكيد تبدأ في الظهور مشكلات عديدة في الاقتصاد لان الموارد المالية لن تتوفر بالقدر الكافي للاستمرار في نفس المعدل ولهذا فان معدل التنمية الذي ساد لابد أن يصطدم بعقبة ما يحدث من ظروف في السوق البترولية . من ناحية اخرى فان تذبذب عائدات النفط كان لابد ان ينعكس على حركة الانماء فلا يوجد مصدر اخر يعوضه لانه لم يتم تنويع في الهيكل الانتاجي الاقتصادي يكون من شأنه اذا انخفض تصدير البترول ان يعوضه الانتاج والناتج من المصادر الاخرى .

البعض قد يسأل وهل هناك توظيف واستثمار مالي للجزء المتبقي من العوائد في الخارج ؟

ان التوظيف والاستثمار المالي في الخارج للعائدات البترولية لا يعوض تماما ولا يعوض باستمرار الدخل الكبير من تصدير البترول وانما هو متوقف على مدى بقاء هذا التوظيف محتفظاً بقيمته الحقيقية دون ان يكون قد اكله التضخم وانخفضت قيمته الحقيقية ، عند ئذ لن تكفي لاستيراد كميات متزايدة من السلع على النحو الذي كان موجوداً قبل ذلك .

من هذا يتبين لنا أن الاستمرار في هذا النمط وحده من التنمية له مخاطره التي تتعرض للانكماش والتوقف . فاذا انكمش او انخفض الدخل والعائد من النفط انخفاضاً شديداً وهو امر ممكن ان يحدث اذا استمرت الدول الصناعية في تنظيم موقفها من النفط واستمرت الدول الداخلة في منطقة الاوبك او الدول النفطية في العالم الثالث على ما هي عليه من التفرق وعدم رسم استراتيجية مقابلة لاستراتيجية الدول الصناعية .

العنصر الاخر الهام والخطير خاص بالعمالة ، ان التطور الذي حدث في

منطقة الخليج بالاعتماد على عمالة وافدة نسبة العمالة الاجنبية فيها المتمثلة بالعمالة الاسيوية بالذات مرتفعة جداً، الارقام معروفة، وتنشر في الصحف، لكن يكفي ان نعلم انه نتيجة لهذه العمالة التي تشكل على مستوى المنطقة ككل ما يزيد عن ٥٤ ـ ٥٥٪ في مقابل العمالة المحلية حوالي ٤٥٪ والتي على مستوى الدول الخليجية تختلف اختلافاً كبيراً. ففي بعض الدول تصل العمالة الاجنبية إلى ما يقرب من ٨٤٪ واقصد بالعمالة الاجنبية ليس فقط العمالة الاسيوية وانما العمالة الاتية من الخارج وتنخفض في بعض المناطق إلى ما يقرب من حوالي ٤٠٪ او ٤٥٪. هذا التكوين من العمالة الموجودة، له اثار على عملية التنمية نفسها، أولا لان الاطار الذي تعمل فيه هذه العمالة خاصة العمالة الاسيوية التي لديها شعور بعدم الانتماء وهذا شأنه ان يؤدي بالضرورة إلى انتاجية ضعيفة وانتاجية قليلة لا تتفق مع عملية الدفع الانتايجة التي يجب ان يكون عليها الاقتصاد في حالة التنمية.

ثانياً: ان انتشار العمالة الوافدة وسهولة اللجوء اليها يجعل من السهل اللجوء إلى طرق انتاج كثيفة لاستخدام العمالة، في حين ان العمالة هي العنصر النادر في هذه المنطقة اي ان هناك اسرافاً في استخدامها وكان لابد ان تستخدم بقدر، واذا استوردت من الخارج تستورد بمقياس اقتصادي مطابق للمبادىء الاقتصادية.

ان توفر العمالة وخاصة العمالة الاسيوية باسعار رخيصة وبظروف مواتية جدا من ناحية سهولتها جعل من السهل التوسع في استخدامها في العديد من المشروعات التي تحتاج للعمالة: الخدمات، التجارة، صناعة البناء والتشييد وفي الصناعات، تم فيها تطور كبير، الا ان العمالة مازالت تلعب فيها دورها وخاصة بالطرق المطبقة في منطقة الخليج فهذا كلها من أنماط التنمية السائدة والتي تضعف عملية التنمية. القطاع الثالث كله ايضا (قطاع الخدمات) يستخدم العمالة بكثرة نتيجة سهولة توفر العمالة ورخصها، ويأتي هذا نتيجة عنصر ذكر قبل هذا وهو ان العمالة المحلية مازالت محدودة جدا بالنسبة لعدد السكان لان نسبة المساهمة النشطة من السكان في العمالة مازالت قليلة. صحيح ان السكان في تزايد الا ان نسبة الصغار والشباب فيها كبيرة وهم دون سن العمالة وبالتالي يكون هؤلاء غير داخلين في حساب القوى العاملة، ايضا

يجب الاعتراف بأن المرأة في المجتمعات العربية لا تسهم مساهمة كبيرة في القوى العاملة نتيجة لظروف اجتماعية موجودة . هذا من جانب ، لكن هناك جانباً هاماً وهو سياسة الدخل السهل التي يحصل عليها الكثيرون في دول المنطقة والتي تؤدي إلى عدم اللجوء إلى الاعمال الشاقة او أعمال تقتضي الجهد . وهناك امر اخر هو اننا نجد نمطا واضحا في الدول العربية الخليجية وهو تركيز نسبة كبيرة من العمالة المحلية في الحكومة وفي الخدمات الاخرى ، وهذا التوجهه بالذات يفتح الباب للعمالة الوافدة بشدة .

هنا يطرح رأي : اذا كان يلزمنا عمالة مطلوبة فلماذا لا نشتري العناصر التي لا توجد لدينا ؟ ومنها العمالة ؟ ولكن العمالة الوافدة بنسبة كبيرة معظمها اسيوية ولها اثارها السلبية وانتاجيتها ضعيفة وتزيد عدم انتاجيتها نتيجة الشعور بعدم الانتماء .

هذا إلى جانب اثارها على الثقافة والحضارة العربية الموجودة ، ربما يكون هذا عاملا ثقافياً ولكنه عامل حاسم ذو تكلفة اجتماعية مرتفعة ازيد بكثير جدا من الأجور التي تدفع لأنه مع الأجور العالية هناك تكلفة اجتماعية وهي تدهور الشخصية الحضارية وحلول شخصية حضارية اخرى مشوهة أو غير واضحة محلها .

- هناك تساؤل هام هنا ، هل تشكل او تسهم العمالة الاجنبية في تنمية حقيقية ؟ فالتنمية التي تعتمد اعتمادا كليا على العمالة الاجنبية ، تأخذ نسبة كبيرة من القيمة المضافة وتستورد نسبة كبيرة من السلع فهل هذه تنمية حقيقية . نتطرق إلى تساؤل آخر عن المستقبل ، هل ممكن لهذه الحالة ان تستمر ويبقى هناك عائد بالرخاء في المنطقة ؟ لا لان هناك اسهل من هذا كله ، وهو توزيع دخل نقدي على أهل المنطقة بنفقونه حسب ما يريدون في اي جهة من جهات العالم بدل ان تبقى هناك عمالة تأخذ القسم الاكبر من القيمة المضافة لسلع تستورد من الخارج دون ان تحدث زيادة في القوة الانتاجية الحقيقية للمجتمع .

هذا كله بدون اشارة إلى ما يحدث او ما يمكن ان يحدث من هذه العمالة من تطور اجتماعي له جوانبه السلبية التي تنعكس بالضرورة ايضا على

الناحية السياسية في مجتمعاتنا التي يجب ان تتمتع بنوع من الاستقرار السياسي الذي لا ينقل اليه مشكلات التعارض بين الاسيويين.

نصل إلى السؤال، هل من الممكن احداث اي تنمية في ظل اي نمط متطور في المنطقة بدون الاعتماد على عمالة ترد من الخارج؟

لا يستطيع اي اقتصادي ان يؤكد انه في ظل ظروف دول الخليج يمكن احداث اي نمط من التنمية دون الاعتماد على قدر من العمالة ياتي من الخارج، وهنا يصبح السؤال هل نستمر في استيراد كل العمالة ونسبة كبيرة من العمالة من العالم الاسيوي أم يصبح من المتعين ان نفكر في استيراد نسب متزايدة من هذه العمالة من العالم العربي بحيث يمكن ان تحل العمالة العربية بالكامل محل العمالة الاجنبية غير العربية، بعبارة اخرى لن تتم عملية النمو الا بالاعتماد على العمالة الوافدة لانه من غير الممكن مطلقا في منطقة الخليج ولمدة طويلة الاستغناء عن العمالة الوافدة، ولكن لتلافي التكلفة الاجتماعية الخطيرة والمخاطر السياسية والاقتصادية فإنه يجب الاعتماد على العمالة العربية.

هذا كله في الحقيقة يؤدي إلى العنصر الثاني وهو توظيف الاموال، لو نظرنا بعد ١٩٧٣ مباشرة سنجد ان دعوات كثير اطلقت من مسؤولين في منطقة الخليج اقتصاديين كبار ومسؤولين في موقع السلطة: ان الحل الوحيد للوصول إلى استخدام كفء وجيد لا تحيطه مخاطر الاستثمارات للفوائض البترولية هو توظيفها في العالم العربي والاسلامي في استثمارات حقيقية، استثمارات تزيد من الطاقة الانتاجية وكان هذا بداية تفكير سليم.

لكن لو نظرنا الان لنوع الاستثمار وتوظيف الاموال الموجود فانه لا يوجد بيان دقيق عن نوع التوظيف في استثماراتنا العربية، لكن في بيان عن دول الاوبك كلها مجتمعة وهي ثلاث عشرة دولة ومنها الدول العربية، اذا افترضنا وهناك ما يبرر هذا الافتراض، لأن النسبة الكبرى للفوائض لدول الاوبك هي للدول العربية وبالتالي فالتوظيف الكلي للفوائض العربية كان بالشكل الآتي:

حوالي ٤١٪ موظفة في الولايات المتحدة وانجلترا مناصفة بين الاثنتين. و٤٠٪ في بقية الدول الصناعية الغربية المتقدمة، يعني بقية القارة الاوروبية بشكل عام، ثم حوالي ١٤٪ في الدول النامية بما فيها العالم العربي ثم ٥٪ في

مؤسسات ومنظمات دولية .

هذا الوضع قائم على تفكير معين ، تفكير معناه اننا يمكن ان نعتمد في المستقبل على دخل هذه الفوائض المالية في مرحلة ما بعد النفط لكن يعرقل هذا التفكير حقيقة معينة هي أنه لنوع الاستثمارات الموجودة فيها نسبة كبيرة في شكل توظيفات مالية وجزء كبير من التوظيفات المالية بشكل ودائع في بنوك يتعرض لمخاطر التضخم الذي هو ظاهرة عامة ، فالبرغم من ان معدله قد ينخفض ، لكن في العشر سنوات الاخيرة لم يتوقف التضخم لدرجة ان بعض الاقتصاديين حسبوا القيمة الحقيقية (بمعنى ان الفوائض التي تم ايداعها لو انها حسبت كما لو كانت الاسعار ثابتة من أول سنة وضعت فيها ، كم ستكون بعد ما تم التآكل فيها نتيجة التضخم وجد ان القيمة الحقيقية لسنة ١٩٨٠ هي ٥٤٪ من قيمتها الحقيقية لو حسبت باسعار سنة ١٩٧٣ أو ١٩٧٢) وهذا يبين أن التضخم يأكل نسبة كبيرة جدا منها .

النقطة الثانية كما يقول الخبراء الاقتصاديون هي ان التطور الاقتصادي في المنطقة سيكون تحت رحمة الخارج الذي توجد فيه الودائع والتي بالضرورة سيكون له رقابة عليها ، طبعا قد يقولون لماذا الرقابة مادامت ودائع نستطيع سحبها في أي وقت لكن الامر غير ذلك لان الودائع من الضخامة بحيث يصبح من العسير اقتصاديا ان تسحب اجزاء ضخمة منها دفعة واحدة وقد عرفنا هذا في مصر والعراق بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد خرجت مصر والعراق بعد الحرب ولهما حقوق عند انجلترا نتيجة مصروفات للجيش البريطاني الذي كان موجوداً في هذه البلاد في فترة الحرب . مصر لها حوالي ٤٥٠ مليون جنيه استرليني تقريبا وكان هذا مبلغ كبير في منطق ذلك العصر . لكن بريطانيا قدرت ان سحب هذا المبلغ دفعة واحدة في اي ظرف اكبر من ان يتحمله ميزان المدفوعات في بريطانيا لان معنى ان تسحب هذه الحقوق لابد ان تستخدم في شراء بضائع وسلع ، فهل يستطيع الاقتصاد البريطاني ان يتحمل جزءاً من الصادرات مقابل هذه المبالغ . وحتى لو اخذت هذه الحقوق لكي تودع ثانية في مصرف في فرنسا مثلا يكون نفس الشيء لانه سوف تبقى القوة الشرائية محفوظة لدى فرنسا بمعنى ان العملية نقلت إلى فرنسا وتبقى فرنسا دائنة للبلد الاصلى الذي كان المبلغ مودعاً فيه او العكس

اي حدث انتقال من بلد لبلد لكن لا يوجد اهتزاز في مجموعة الدول الصناعية في مجموعها .

احد الاقتصاديين العرب (حازم الببلاوي) حسب لو افترضنا تزايداً معيناً للفوائض النفطية وللودائع الموجودة في الولايات المتحدة، فانه يكون لازما على الولايات المتحدة ان تعطي للدول تحت فروض معينة على الاقل حوالي ٥٠٪ من صادراتها وهذا امر غير متصور ان تعمله الولايات المتحدة . يعنى ذلك ان هناك صعوبات في ميزان المدفوعات في الدول التي بها الفوائض مودعة وبالتالي يبقى من الضروري وجود تحكم ورقابة في صرف هذه المبالغ . هذا بدون الحديث عن الاحتمالات السياسية قد ثبت من تجربة الودائع في الدول الغربية انها تكون مجالا ضخماً للاثار السياسية تجمدها او تمنعها . هناك ايضا التوزيع الجغرافي لاستثمار الفوائض يشكل ايضا شكلا آخر من القصور وهو شكل لابد من وضعه موضع تساؤل على الاقل في ضوء التطور الذي نمر به كيف يمكن علاج كل هذا، لابد من زيادة الطاقة الانتاجية، القدرة الذاتية الانتاجية في المنطقة .

دراسة الموارد الطبيعية في المنطقة تظهر محدودية الامكانات الزراعية فيها وان كان يتبين ان في السعودية امكانات زراعية اكثر من من بقية دول المنطقة، آراضي قابلة للزراعة لكن في بقية المنطقة الاراضي القابلة للزراعة محدودة جدا وحتى في الاراضي الصالحة للزراعة هناك مشكلة المياه وهي مشكلة خطيرة للنمو الاقتصادي عامة سواء كان زراعياً او صناعياً لكن في مقابل ذلك، المنطقة يوجد بها معادن وان كان توزيعها غير متوازن بين الدول ويتركز جزء كبير منها في السعودية، هذه نقطة اولى .

النقطة الثانية ـ ألنفط من الممكن ان تتغير الحاجة اليه دوليا نتيجة ان يكون مجالا لصناعات كثيرة للمستقبل مجموعة الصناعات البتروكيماوية وهي ليست صناعة واحدة ولكنها تشمل مئات الفروع .

النقطة الثالثة ـ هناك ايضا بالاضافة إلى ذلك امكانات ضخمة في المنطقة مثل تنمية الصناعة السمكية الضخمة في عالم يفتقر الى الغذاء، كيف يمكن تنمية كل هذا ؟ هل يمكن تنميتها . في ظل التوجه الذي حدث حتى الان، والذي تمت فيه التنمية على اساس قطري بحت ؟ فالتنمية في الفترة الماضية

تمت على اساس ان كل قطر له مشروعاته وبدون النظر إلى ما الذي يمكن أن يسببه السوق من متاعب لعملية التنمية لان جميع اسواق المنطقة ضعيفة، ليس المنطقة فقط بل لانه لا يوجد بلد عربي سوقه يكفي لان تنمو فيه الصناعة نمواً كافياً بحجم الصناعة الحديثة وبالفن الانتاجي الحديث الذي يجعل الكفاية الانتاجية مرتفعة، وليست مجرد استمرار في انماط انتاجية منخفضة الانتاج، والصناعة والنمو الحديث بشكل عام تحتاج لسوق واسعة لا يتوفر لها حجم اي قطر من الاقطار العربية المنفردة.

كيف يمكن معالجة هذا الواقع؟ هناك خطوة اتجه اليها بالفعل مجلس التعاون الخليجي فقد اعلن انه سوف ينسق عملية التنمية بين دول المجلس ولكن مجلس التعاون الخليجي في التصريحات الرسمية لكبار المسؤولين عنه يعلن ويؤكد على أهمية التنسيق وهذا حسن ويدل على فهم دقيق لطبيعة المشكلة وانهم لا يتصورون عملية التكامل خارج اطار التكامل العربي العام باعتبار ان هذه مجموعة من الدول المتشابهة ذات الخصائص المتقاربة وان اندماجها وتكاملها هو خطوة نحو التكامل العربي العام، وهذه التصريحات تدل على ان مجلس التعاون يدرك حقيقة المشكلة. ولكن من باب الفرض النظري البحت لو ان خبراء تقدموا وقالوا للمسؤولين انه من الممكن احداث تنمية قطرية فيجب ان يكون واضحا ان التنمية القطرية في حدود قطر واحد من اقطار الخليج او اي قطر عربي وفي حدود السوق الخليجي في مجموعه، ستكون اقل من ان تعطى دفعة دفعة او ان تعطى اساساً يضمن التنمية المستمرة واضافة للقوة الانتاجية الذاتية.

اضافة إلى هذا هناك موارد في المنطقة لكنها موارد محدودة في غير نطاق البترول يجب استكمالها داخل بقية فروع الاستثمار والتوجه نحو تنمية مشتركة في اطار العالم العربي والعالم الاسلامي. هذا الوضع يضمن تعويض نقص الموارد وفي نفس الوقت تكون فيه الدول الخليجية تتمتع بمشاركة طاقة انتاجية تنمى قدراتها الاقتصادية الذاتية بشكل عام.

هناك ايضا بعض المشكلات التي لا يمكن التغلب عليها في اطار الاقطار الخليجية وحدها لان الغذاء الخليجي يكون من التبديد للموارد محاولة الحصول عليه بتنمية الزراعة في منطقة الخليج لان هناك مناطق في العالم

العربي وبالعالم الاسلامي اكثر قدرة وأكثر اقتصادا بمراحل في تنمية الامن الغذائي عن طريق الانتاج الزراعي ولا يحتاج الأمر إلا إلى توجيه التوظيف والاستثمارات اليها .

هذا النوع او الفكر المتعلق باستراتيجية للتنمية تقوم على الاندماج والتكامل في العالم العربي النامي ومعه العالم الاسلامي من شأنها ان تبعد المخاطر عن الاستثمارات والتوظيفات في الخارج لانها ستحولها إلى استثمارات حقيقية قائمة بالانتاج، ما معنى ان اسعار سلع تزداد بقياس النقود وليس العكس . يعني انه يجب المحافظة على ناتج الثروة البترولية في الفائض من العوائد النفطية مالياً تحفظها من التدهور النقدي بأن نجعلها يشكل قوة انتاجية حقيقية . بعبارة اخرى ـ امكانات التطور السليم المفتوحة في المستقبل والتي تتغلب على مشكلات كثيرة من المشكلات التي ذكرت بالنسبة للتنمية والتطور الذي حدث يمكن التغلب عليها بقوة اذا نظر اليها من منظور تنموي اولها طويل المدى وثانيها ـ يؤدي إلى اندماج وتكامل في منطقة الخليج في الاطار العربي العام وهذا ما يعلنه سعادة عبدالله يعقوب بشارة من ان هدف التكامل الخليجي هو التمهيد لتكامل عربي وهذا منطق مسلم به في بناء التكامل الحديث العربي وهو ممكن الوصول اليه، اي إلى التكامل والاقتصاد العربي وقد يكون من الافضل الوصول اليه عن طريق تكاملات جزئية ترتبط فيما بينها بشرط ان يراعى عند وضعها انها في النهاية سوف تندمج في التكامل العربي العام. فتخطيط المشروعات والانماط التي تتفق مع سرعة امكانية اندماج العالم العربي تتفق مع الاقتراح الذي نطرحه مع التصورات التي صدرت عن المسؤولين في مجلس التعاون الخليجي.

الخلاصة ان المستقبل المرسوم امام دول الخليج فيه خيارات:

ـ خيار استمرار في الوضع الحالي وهذا تحيط به المخاطر ويضع كثيراً من العقبات امام تنمية حقيقية ويعرض الأموال النفطية لمخاطر كثيرة .

ـ الخيار الثاني المفتوح في المستقبل امام منطقة الخليج هو محاولة زيادة القدرة الانتاجية الذاتية بالاعتماد على العناصر العربية عمالة عربية كاملة وايضا بتوجيه توظيفات الاموال العربية النفطية إلى المنطقة العربية في اطار تصور تكامل عربي.

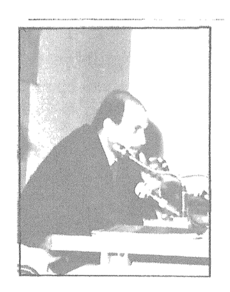
ليس الموضوع سهلا في التطبيق ، هناك صعوبات ومشكلات فنية وصعوبات سياسية وصعوبات دولية ولكن عندما يقال لنا ما هو الحل بالنسبة لمشكلات النمو والتنمية في المنطقة وفي العالم العربي كافة فان الاجابة الواضحة ان الحل تكامل عربي مبني على تنمية حقيقية تدرس دراسة كافية وتطبق للتغلب على العقبات .

الطريقان مفتوحان والخيار مفتوح وسنرى كيف يكون المستقبل وعندها نعرف اقتصاديات دول الخليج إلى أين ؟

● ● ●

المحاضرة السادسة

صورة الإنسان العربي في الفكر والأدب الصهيوني



للأستاذ الدكتور / إبراهيم البحراوي



الاستاذ الدكتور ابراهيم عبدالحميد محمد البحراوي

- من مواليد بورسعيد ١٢ / ١٠ / ١٩٤٤ بجمهورية مصر العربية .
- حصل على درجة الليسانس من كلية الاداب القسم العبري عام ١٩٦٤ .

ـ درجة الماجستير في الفكر الديني اليهودي جامعة عين شمس ١٩٦٩ .
ـ درجة الدكتوراه في الفكر والادب الصهيوني جامعة عين شمس ١٩٧٢ .

- عضو هيئة تدريس بجامعة عين شمس .

ـ رئيس وحدة الدراسات الاسرائيلية بمركز بحوث الشرق الاوسط بجامعة عين شمس .

- أهم وابرز المؤلفات:

ـ اضواء على الادب الصهيوني (١٩٧٢).
ـ الفكر والادب الصهيوني بين حربين ٦٧ ـ ١٩٧٣ (١٩٧٥).

- أهم المؤتمرات والندوات التي شارك فيها .

ـ ندوة المجلس الوطني الفلسطيني ـ عمان ١٩٨٤ .

صورة الانسان العربي في الفكر والادب الصهيوني

نحن نجابه هجمة عنصرية على كياننا العربي وصورتنا البشرية ـ العربي في نظر الصهاينة اما حشرة جبانة يمكن سحقها واما حشرة سامة تجب ابادتها .

تصوير العربي في الفكر والادب الصهيوني بشكل فيه تحقير يهدف الى تسهيل قتله دون احساس بالذنب .

رغم الاغراء الذي يراودني بان استهل محاضرتي بتقديم خريطة لمفاهيم الايديولوجية الصهيونية كمدخل لتحديد وضع الشخصية العربية وصورتها في لوحة الفكر الصهيوني ورغم ان مثل هذا الاستهلال يمثل الطريقة الاكاديمية النموذجية لنتدرج من عالم الافكار الصهيونية إلى الممارسة والتطبيق، فانني استميح المستمعين عذراً في ان ابدأ بطريقة عكسية، اي ان ابدأ بالكشف عن بعض اشكال الممارسة الصهيونية المرتبطة بالصورة التي يحتفظ بها العقل الصهيوني عن الانسان العربي، فهذه الممارسة الصهيونية تكشف على نحو واضح كيف يمكن توظيف صورة العربي المطبوخة في مطبخ العقل الصهيوني في مجال السياسة والحرب .

في ١٩٨٣/٤/٢٦ كتبت مقالا في صفحة «كيف تفكر اسرائيل» التي اشرف عليها اسبوعيا بصحيفة الاخبار القاهرية . كان عنوان المقال صارخا في اتجاهين الاول اثارة القارىء العربي في مصر ضد الصورة التي يرسمها الصهاينة للعربي الفلسطيني والثاني اتجاه اعلان التحدي والتصدي للصورة وللممارسة المبنية عليها وهو ما نحرص عليه في مخاطبتنا للطلاب بالقسم العبري بالجامعة او في كتابتنا الصحفية .. فهو اقل ما يجب على الباحث المتخصص في شئون العدو .

كان نص عنوان المقال:

«انهم آدميون... وليسوا خنافس تبيدونها يا جنرال»

كان المقال موجها إلى رئيس اركان العدو الجنرال رفائيل ايتان الذي افصح بشكل شديد الوقاحة والوضوح عما تبطنه بطون كتب الادب والفكر والحرب النفسية والتوجيه المعنوي في الكيان الصهيوني من صورة مسفة للعربي وعما ترمي اليه هذه الصورة.

انزعوا خصياتهم

كانت لجنة الشئون الخارجية والدفاع بالكنيست قد عقدت اجتماعا خاصا لتوديع الجنرال ايتان بمناسبة قرب انتهاء خدمته.

وفي تلك الجلسة قرر الجنرال المسؤول مع شارون عن مذابح صبرا وشاتيلا في لبنان وعن المذابح اليومية في الضفة وغزة ان يعلن عما يضمره في عقله للشعب العربي في الارض المحتلة الفلسطينية. وكان اعلانه في معرض التعليق على ما نسبته اليه الصحافة من انه اصدر امره إلى احد قادة الاحتلال العسكري في الضفة الغربية بارتكاب فعل وحشي ضد طلاب مدرسة عربية ثانوية كانوا يتظاهرون احتجاجا على دس السموم في مدارس الفتيات العربيات. فقد سأل القائد المحلي رئيس الاركان تلفونيا وهو يقدم له تقريرا عن المظاهرة «ماذا افعل سيدي رئيس الاركان ان الطلاب يلقون علينا بالاحجار؟» وجاءت اجابة رئيس الاركان **«انزعوا لهم خصياتهم... لا ضرورة لان يكونوا رجالا»**.

وفي جلسة الكنسيت المشار اليها سأل احد الاعضاء رئيس الاركان عما اذا كان قد اصدر ذلك الامر بالفعل.. فأجاب الجنرال بالحرف الواحد:

«سنرد على كل عملية لالقاء الاحجار على جنودنا بانشاء عشر مستعمرات واذا ما ارتفع عدد المستعمرات إلى مائة وهو ما سيحدث بين نابلس والقدس فانه لن يكون هناك مجال لالقاء الحجارة ولن يستطيع العرب سوى ان ينحشروا ليأكلوا بعضهم البعض كالخنافس السامة المحشورة في زجاجة نعم واكررها كالخنافس السامة في زجاجة».

لا تندهش... اقتراح على طالب دكتوراه

في مقالي المشار اليه في الاخبار اقترحت أمام الجمهور على تلميذي محمود حميدة الذي كان يعد رسالته للدكتوراه تحت عنوان «صورة العربي الفلسطيني في الادب القصصي العبري» ان يكف نهائيا عن الاندهاش. فلقد كان الشاب يتصل بي اثناء اعداد الرسالة ليعبر عن اندهاشه كلما قطع شوطا في القراءة والمطالعة في الادب القصصي العبري لتجميع ملامح الصورة التي يرسمها هذا الادب للانسان العربي الفلسطيني. كان الشاب يقدم لي تقريراً عن عمله وهو في حالة ذهول مما يكتشف عن صورة العربي من ملامح التجني والتشويه ومما يتبلور امام عينيه من الصفات التي تنسب للعربي في صفحات الادب العبري.

في كل مرة كنت احتفظ للشاب بحقه في الاندهاش معتبرا الاندهاش حافزاً لمزيد من القراءة والاكتشاف الذي كان متبلورا عندي من قراءاتي في الادب العبري.

غير ان تصريح الجنرال ايتان جعلني اوجه النصيحة العلنية امام القراء لطالب الدكتوراه بالنص التالي الذي انقله من مقالي المشار اليه في صحيفة الاخبار ـ قلت:

«اليوم اقول لمحمود طالب الدكتوراه امام القراء كفى اندهاشا واضف فصلا جديدا إلى رسالتك تحت عنوان «كيف يوظفون صورة العربي الفلسطيني في السياسة والحرب» وضع في اعتبارك تصريحات الجنرال ايتان وغيره من الحرب والسياسة ولا تعتبرها نوعا من الشتيمة او السباب الموجه إلى العربي بل حاول ان تحلل هذا الصفات المنسوبة للعربي مهتديا بما يلي من مؤثرات اساسية ستعينك في تحديد موقع هذه الصورة السلبية للانسان العربي في خريطة الفكر الصهيوني واكتشاف وظيفتها في خطة العمل التنفيذي في الحرب والسياسة. ثم وضعت امام الطالب والجمهور المؤثرات التالية:

صورة العربي... موقعها في الفكر الصهيوني

تمثل الصورة التي يرسمها مطبخ الفكر الصهيوني للانسان العربي مقولة

من المقولات التنفيذية في خريطة الفكر الصهيوني . ذلك ان هذه الخريطة تقوم على مقولات رئيسية ثلاث تمثل العمد الاساسية للبناء الفكري الصهيوني وهي مقولات نظرية ترسم الحلم الصهيوني المخالف لمنطق الواقع والتاريخ . ومن الطبيعي ان كل مقولة نظرية او حلم فكري يحتاج إلى وسائط فكرية تقربه إلى التنفيذ وهنا يأتي دور المقولات التنفيذية ومنها صورة العربي السلبية .

ولو حاولنا ان نخلص بناء الايديولوجية الصهيونية من التفريعات العديدة المزدحمة لوجدنا المقولات الثلاث الرئيسية التالية :

١ ـ مقولة الشعب اليهودي الواحد .

٢ ـ مقولة معاداة السامية .

٣ ـ مقولة الملكية التاريخية للارض .

واذا نظرنا إلى هذه المقولات الثلاث لاكتشفنا ان الاولى تحاول ان تصوغ حلما من واقع مناقض ومن تاريخ لا يعبر عن الحلم . فهذه المقولة تنظر إلى الجماعات اليهودية في انحاء العالم باعتبارها شعباً . بينما حقيقة السياق التاريخي والوقائع السلالية والحضارية تشير إلى عكس ذلك ... انها تشير إلى تنوع سلالات الجماعات التي تدين بالديانة اليهودية بدءاً بيهود الفلاشا من الجنس الزنجي في افريقيا ومرورا بيهود الدونما في تركيا وانتهاء بيهود الصين وهم يحملون السمات السلالية الصينية ان هذه الوقائع تشير إلى ان اليهودية صفة دينية لهؤلاء المتدينين بها غير ان المقولة الصهيونية تصوغ حلما يفيد انهم شعب واحد .

وهنا يعاند الواقع والتاريخ الحي الحلم الايديولوجي النظري ويأتي نتيجة لذلك دور الوسائط الفكرية او المقولات التنفيذية فتظهر مقولة «المنفى» أو «الدياسبورا» وهو مصطلح يعني ان وجود هذه الجماعات في انحاء العالم هو وضع غير اصلي . مثلما تقول ان احمد عرابي الزعيم المصري عاش في المنفي فيكون المعنى الضمني الغني عن الشرح والبيان هو ان الرجل كان في وضع جغرافي غير اصيل فهو وضع المنفي بما يعنى ان للرجل وطنا جغرافيا اصيلا . وكما ان السامع يتوقع ان يكون مصير احمد عرابي هو العودة من المنفى إلى الوطن فان مقولة «المنفى» الصهيونية توحي بنفس الشيء وبالتالي تتولد مقولة تنفيذية مباشرة في الفكر الصهيوني هي مقولة «العودة» التي

ـ تعنى زيفا وبطلانا ـ ان هجرة الجماعات اليهودية إلى فلسطين العربية هو عودة من المنفى اي انتقال من الحالة الطارئة الى الحالة الاصلية .

لقد ضربنا هذا المثال لنبين كيف تتولد المقولات التنفيذية لخدمة المقولات الرئيسية النظرية فها نحن عن طريق مقولة المنفى ومقولة العودة نجابة الحلم الصهيوني وقد ارتدى لغة التنفيذ وفرض نفسه علينا كرها وقمعا بتهجير الجماعات اليهودية واطلاق صفة الشعب «عليها».

مقولة نزع الصفات الانسانية

اذا تأملنا المقولة الثالثة التي نسميها مقولة الملكية التاريخية للارض لاكشتفنا انها تصوغ حلما صهيونيا زائفاً يربط بين الحلم الذي صاغته مقولة الشعب الواحد وبين العودة بحق مزعوم للملكية. ذلك ان المقولة تتخطى الواقع التاريخي لفلسطين والذي يجزم بحق الشعب الفلسطيني في ارضه باعتباره تجسيدا لخلاصة التطور السلالي والحضاري على هذه الارض وتأتي المقولة مستندة إلى الوعد الديني في التوراة لتعتبر هذه الارض ملكا موروثاً لما يسمى بالشعب اليهودي .

وهكذا تقدم المقولة النظرية الحلم ولكن الحلم يحتاج الى مقولات تنفيذية تقربه إلى الواقع وتسهل على القائمين بالحركة تطبيقه . في بدايات الحركة الصهيونية اطلق احد المفكرين الصهاينة ويدعى زنجويل مقولة «ارض بلا شعب لشعب بلا ارض».

وقد تمسك العقل الصهيوني في بدايات هذا القرن بهذه المقولة فقد كانت تسهل الحلم وتقربه من الواقع بل وتزيل «العقبة» التي تعترض طريقه وهي العقبة المثلة في وجود الشعب العربي الفلسطيني على الارض . ووجد مطبخ الفكر الصهيوني في هذه المقولة وسيلة تنفيذية مريحة فهي تنص على نفي الشعب الفلسطيني من الوجود وبذلك تنفي وجود العقبة التي تعترض الحلم الصهيوني في تملك الارض هذا يسهل على اليهودي المهاجر ان يتصور الارض خالية منتظرة في لهفة وشوق دون عقبات وهو أمر ظهر كثيراً في الادب العبري باعتباره اداة اساسية من ادوات الترويج للفكر الصهيوني .

عندما بدأت الهجرة اكتشف المهاجرون ان الارض ليست خالية كما تدعي

مقولة زنجويل ومع مرور الوقت اكتشف المهاجرون ان هناك شعبا مقاتلا عنيداً لا يرضخ لاحكام الامبراطورية البريطانية ولا لتصريحات وزير خارجيتها بلفور .. انه شعب يقاوم الحلم الصهيوني في تملك الارض .

وهنا كان يجب طبخ مقولة تنفيذية جديدة هي مقولة نسميها نزع الصفات الانسانية عن العربي .

ملامح صورة العربي

وعلى الفور بدأت صورة سلبية للانسان العربي يجري تجميعها صفة صفة وملمحاً ملمحاً لكي تكون نهاية الامر صورة محقرة تثير الاستخفاف والسخرية والاستهانة في عقل الصهيوني المهاجر . كان مطلوباً ان يشعر المهاجر الصهيوني انه يواجه كائنا متخلفاً هشا يمكن قمعه والسيطرة عليه حتى لا يقع الرعب في نفوس المهاجرين ومن هنا ظهرت في الادب العبري وهو اداة التلقين والتوجيه صفات البدوي العربي المتخلف الجاهل المعزول عن الحضارة . والعاجز عن استخدام ادواتها وظهرت صفات حياته باعتبارها حياة بدائية فملابسه رثة وبيته من مواد بدائية وطبيعته الخوف والجبن .

وهكذا استهدفت الصورة المطبوخة للعربي التهوين من شأنه أمام المهاجر الصهيوني حتى لا يخشاه ولا يرتعب منه . وكانت تلك هي الوظيفة الاولى لصورة العربي .

اما بقية ملامح الصورة التي تظهر في الادب والفكر والتصريحات السياسية فتهدف إلى نزع صفات العربي الانسانية وتجريده من أهليته البشرية وحقوقه كانسان وهنا بدأ وصفه بالمكر والخداع . والخبث وطباع السرقة والاحتيال وكانت تلك الصفات مقدمة لتحقيره وصولا إلى وصفه بالارهابي وبالوحش سفاك الدماء وبالغادر والشيطان والحشرة السامة .

واذا تأملنا هذه الصور التي تشمل تحقيراً للصفات البدنية والنفسية والعقلية للعربي الفلسطيني والتي تظهر في كثير من الأعمال الفكرية والادبية مثل اعمال ساميخ يزهار في رواية «خربة خزاعة» واعمال عاموس عوز في رواية «البدو الرحل والثعبان» وفي عديد من الاعمال الاخرى فاننا نكتشف هذه الصور الجزئية تكون في نهاية الامر صورة كلية تبدأ بكون العربي كائنا متخلفاً

وتنتهي بكونه ثعبانا او حشرة سامة او خنفساً .

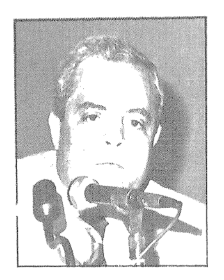
وهذه الصورة المطبوخة صهيونيا للعربي ذات وظيفة فهي تعني اولا انه جبان يسهل القضاء عليه دون مقاومة تذكر وتعني ثانياً واخيرا ان حكمه حكم الحشرات السامة التي يجب ابادتها والقضاء عليها دون اي احساس بالذنب او تأنيب الضمير .

واذا عدنا إلى ما بدأنا به وهو تصريح الجنرال ايتان لنربطه بهذا البناء الفكري لاكتشفنا ان الجنرال لم يكن يسب العرب في لحظة عصبية او غضب لكنه كان يعبر عن الصورة الموروثة لديه عن العربي والتي لقنوها له عبر اجهزة الاتصال المختلفة من ادب وفكر مناهج دراسية ولاكتشفنا ان الجنرال يطبق المعنى المراد من هذه الصورة التي تظهر في الادب في عالم الحرب والسياسة ... فالعرب مجرد حشرات ان قاومت او القت الاحجار وجب نزع خصيات رجالهم وتسميم ارحام فتياتهم وان اعترضوا طريق الحلم الصهيوني واستعمار الارض العربية وجب حشرهم في زجاجة كالخنافس السامة ليبيدوا بعضهم البعض او يبادوا بمسحوق حشري .

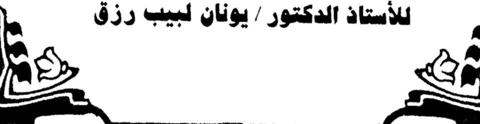
ان هذه الأمة تجابه هجمة عنصرية على كيانها لا تستهدف ارضها وثروتها وتاريخها فحسب بل تستهدف نزع صفات البشر عن ابنائها تسهيلا لابادتهم او طردهم أيهما اسهَل لتصبح الارض المأمولة في الحلم الصهيوني كما قال زنجويل «ارض بلا شعب» ولكي تؤول بالوراثة العميقة إلى «شعب بلا ارض» فهل ابلغنا الرسالة .. اللهم فاشهد .

المحاضرة السابعة

الأصول التاريخية للعلاقات العربية المشرقية ـ المغربية في العصر الحديث



للأستاذ الدكتور / يونان لبيب رزق



الاستاذ الدكتور يونان لبيب رزق

- من مواليد القاهرة في ٢٧ / ١٠ / ١٩٣٣ .
- حصل على درجة الماجستير في التاريخ الحديث عام ١٩٦٣ .

ـ درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث ١٩٦٧ .

- مدرس التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ١٩٦٩ .

ـ استاذ مساعد ١٩٧٤ .

ـ استاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ١٩٧٩ .

- أهم المؤلفات :

ـ له ١٧ مؤلفا في التاريخ الحديث والمعاصر حول مصر والسودان والمغرب .

- أهم المؤتمرات :

ـ الوثائق العربية ، البحر الاحمر ، الجيش المصري ، الجبرتي ، مصطفى كامل .

الاصول التاريخية للعلاقات العربية المشرقية ـ المغربية في العصر الحديث

كان الدافع الاساسي وراء اختيار هذا الموضوع ـ تحت عنوان «العلاقات العربية المشرقية ـ المغربية خلال القرن التاسع عشر «تأصيل العلاقات العربية ـ العربية في مواجهة مرحلة شاذة من مراحل التاريخ العربي، وهي مرحلة تنذر بأوخم النتائج على مستقبل الأمة.

وحتى لانبدو وكأننا نستخدم الفاظاً اعتدنا استخدامها، دون أن نقصد معناها فتكفي الاشارة إلى المراحل التي مرت بها العلاقات العربية ـ العربية، منذ ما يقرب من الثلاثين عاما، بدءاً بالعقد الذي بدت فيه هذه الأمة وكأنها في طريق «الالتحام الأخير» (١٩٥٦ ـ ١٩٦٧)، ومرورا بعقد «الانطواء الاقليمي» الذي اعقب حرب يونيه، واستمر حتى قيام السادات بزيارة القدس «نوفمبر ١٩٧٧»، برغم ما شهده هذا العقد من قيام أول حرب عربية ـ اسرائيلية متكافئة (اكتوبر ١٩٧٣)، ووصولا الى العقد الاخير الخطير، حيث تحولت الحاجة إلى تقويم العلاقات العربية ـ العربية إلى درجة لم تخطر على البال، وهي درجة الحاجة إلى تقويم تلك العلاقات داخل الاوطان العربية فيما نتج عن احياء النعرات العرقية والدينية، وتغذيتها إلى الحد الذي يبدو معه وكأن العالم العربي في اتجاه البلقنة.

كان هذا هو السبب الأصيل لاختيار الموضوع، غير أنه مع المضي قدما في تناوله تكشفت حقيقة اخرى، فدون نية مسبقة لاقحام مصر في تلك العلاقة اذا بالمتابعة التاريخية تقحمها، ويتضح من خلال هذه المتابعة التاريخية أنها كانت بمثابة عمودها الفقري.

فعبر مصر جاء الحجاج المغاربة، قاصدين الاراضي الحجازية، وكان الحج رابطة من أهم روابط العلاقات المشرقية ـ المغربية، بل أهمها خلال تلك المرحلة.

وإلى مصر أتى العلماء من الشام والحجاز واليمن والسودان، ليلتقوا في صحن الأزهر مع العلماء القادمين من شتى ارجاء المغرب العربي، للتباحث في شئون الدين والدنيا .

وفي مصر انعقدت اكبر سوق تجارية سنوية يشارك فيها ابناء المشرق والمغرب، يتبادلون فيها متاجرهم وينمون من خلالها علاقاتهم الاقتصادية .

ثم أن نفس القرن شهد ظاهرتين سياسيتين، كانت مصر قاسما مشتركا بينهما :

الظاهرة الاولى : كانت مصر أول من تعرض للهجمة الاستعمارية الاوروبية من بلاد العرب في العصر الحديث، ممثلة في الحملة الفرنسية، التي قادها نابليون بونابرت عام ١٧٩٨، وقد كانت هذه الهجمة فرصة لتلاحم عربي - عربي، مشرقي - مغربي، على الارض المصرية ، سعى لمقاومتها والقضاء عليها .

الظاهرة الثانية : تتمثل فيما جرى خلال القرن التاسع عشر من بدء بناء «الدولة الحديثة» في مصر لتكون القدوة لبعض بلاد المشرق العربي (العراق) مما بدا في تجربة داود باشا في بغداد (١٨١٧ - ١٨٣١)، والقبلة لبعض من بلاد المغرب العربي (المغرب الأقصى) مما ظهر في ارسال البعوث من أبناء تلك البلاد للتعلم في المدارس المصرية الحديثة، والرابطة التي حاولت ان تربط بلاداً عربية اخرى (الشام - شبه الجزيرة - السودان) .

ونتيجة لهذا الاقتحام اصبح للدراسة معنى آخر، وهو أن ما حدث خلال العقد الاخير من خروج مصر أو اخراجها من الصف العربي يتناقض اشد التناقض مع مسيرة التاريخ العربي، ويفسر بالتالي بعض ما أصاب الجسد العربي من رعاش، نتيجة لتقطع اغلب اسباب الاتصال بينه وبين عموده الفقري .

وبين هذا المعنى وذاك نقلب صفحات تلك العلاقة، العلاقة بين المشرق والمغرب العربيين، خلال القرن الماضي .

الموضوع الأول

الخريطة العربية خلال القرن التاسع عشر

قد يبدو من الصعوبة رسم خريطة عامة للوطن العربي، خلال القرن التاسع عشر، لسببين:

أولهما: الإمتداد الزمني الطويل.

ثانيهما: المسطح المكاني الواسع.

غير أنه يمكن مواجهة هذه الصعوبة باتباع وسيلتين:

أولاهما: تحديد الفترة التي يمكن الاتفاق على تسميتها بالقرن التاسع عشر من الوجهة التاريخية.

وهذه الفترة ـ في رأينا ـ تمتد قبل البدء الزمني لذلك القرن بأكثر من عامين، وذلك حين شهدت بقعة من هذه الارض، وهي مصر، نزول الطلائع الأولى من الهجمة الاستعمارية الاوروبية، فيما حدث في الحملة الفرنسية الشهيرة التي قادها نابليون بونابرت، ووصل بها إلى الاسكندرية في يوليه عام ١٧٩٨، لتحتل مصر، ومنها إلى الشام، وتبقى في المنطقة حتى عام ١٨٠١.

ولا تقتصر أهمية هذه الحملة ـ كما هو معلوم ـ على مصر، بل امتدت لتؤثر بأشكال مباشرة احيانا، وغير مباشرة في أغلب الأحيان ـ على سائر مناطق المشرق والمغرب العربي.

ثم انها ـ من ناحية أخرى ـ كانت اول لقاء عربي يتم على هذا النطاق الواسع مع قوة اوروبية، منذ انتهت الحروب الصليبية في نهاية العصور الوسطى، وهو لقاء هز كثيراً من القناعات والرؤى التي كانت سائدة بين الشعوب العربية، على مختلف قطاعاتها، وهي قناعة كانت قائمة على الاستهانة بالقوة الاوربية، واليقين بتخلف الاوروبيين.

أما نقطة النهاية التاريخية للقرن التاسع عشر فهي تمتد بعد انتهائه الزمني، بما يقرب من عقد ونصف، وعلى وجه التحديد مع قيام الحرب

العظمى او ما عرف فيما بعد باسم الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ .

وقيمة هذا التاريخ انه يحدد الصورة النهائية للاوضاع العربية التي ظل يجري رسمها بامتداد القرن، سواء منها ما تمخض في نهاية الامر، عن استمرار الانهيار العثماني، رغم محاولات الانقاذ المستمرة لدولة العثمنلي العتيدة، وقد ادى قيام الحرب ـ التي دخلتها تركيا في صف دول الوسط (المانيا ـ النمسا) ـ إلى اتمام هذا الانهيار، أو منها ما حدث من وصول الهجمة الاستعمارية الاوروبية، إلى اقصى حدود اتساعها، حتى انه لم تمض سوى شهور قليلة ـ بعد قيام هذه الحرب ـ الا وكان الوطن العربي باكمله، يقع تحت الهيمنة الاوربية، بريطانية كانت، والتي تمكنت من مصر والسودان والعراق وفلسطين والخليج وجنوب شبه الجزيرة العربية، او فرنسية وقد هيمنت على الجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان، او ايطاليا، وقد حصلت على ليبيا .

والوسيلة الثانية: باستخراج الخطوط المحورية التي انبثقت منها سائر خطوط الخريطة العربية بامتداد القرن التاسع عشر .

وفي تقديرنا أنه كان هناك خطان اساسيان خرجت منهما الخطوط الاخرى، سواء تم هذا الخروج بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

الخط الاول: يتمثل فيما اصاب الدولة العثمانية من ضعف كانت تزيد اسبابه كلما توغلنا داخل هذا القرن، وقد تبدى هذا الضعف في ميدان المواجهة الاوربية، خاصة مع روسيا التي واجهتها خلال الثورة اليونانية في عشرينات القرن، واستنجدت بها خلال هزائمها في مصر في ثلاثينياته، ثم خاضت معها حربين متتاليتين في خمسينياته (حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) وسبعينياته (الحرب الروسية ـ التركية ١٨٧٦ ـ ١٨٧٨)، وقد انتهت الحرب الاخيرة بمؤتمر شهير في المسألة الشرقية وهو مؤتمر برلين، الذي عد ايذانا باتفاق القوى الاوربية، بعد اختلاف طويل، على البدء في تقسيم أملاك رجل أوربا المريض، اي الدولة العثمانية، بينها .

وتبدى هذا الضعف ايضا، بعد فشل المحاولات التي قام بها السلاطين العثمانيون لتحديث ابمراطوريتهم، فيما عرف بحركة التنظيمات، أو حركة الاصلاحات وقد تأكد بعد مذابح البلغار عام ١٨٧٦ أن العثمانيين لم يأخذوا

من النظم الاوروبية سوى الشكل، ولم يتمكنوا ابدا من الوصول إلى المضمون.

وبدلا من أن تؤدي حركة الاصلاحات العثمانية إلى انقاذ الدولة مما اصابها من اسباب الضعف ، اذا بها تؤدي إلى نتيجة اخرى، من حيث فتحت الباب عريضاً، للتدخل الاوربي تحت دعوى حماية الاقليات الدينية، ومن حيث ادت إلى تقوية الروح القومية بين شعوب امبراطورية قامت منذ القرن السادس عشر على مبدأ قبول تعدد القوميات.

وقد تفرع عن هذا الخط الاساسي مجموعة من الخطوط الفرعية، ترتبت عن روح التحدي التي سادت في المنطقة العربية تجاه الدولة العثمانية المتداعية، وهي روح كان لها مجموعة من المردودات على العلاقات العربية المشرقية المغربية، مما يمكن رصده في أكثر من حركة من حركات التحدي تلك، والتي امتدت خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر.

كانت «الحركة الوهابية» أو حركة الموحدين ـ كما يحب اصحابها أن يسموها ـ حركة التحدي الاولى، وهذه الحركة، وان كانت قد بدأت بالفعل منذ العقدين الاخيرين من القرن الثامن عشر، غير ان الصدام بينها وبين الدولة العثمانية، أو ممثليها، قد بلغ ذروته خلال العقد الثاني من القرن التاسع عشر (١٨١١ ـ ١٨١٨).

وقد خلفت الحركة الوهابية بصمتين واضحتين على العلاقات العربية ـ العربية.

البصمة الاولى: عقائدية بالاساس، حيث قدمت طرحاً جديداً لمواجهة الهجمة الاستعمارية الاوروبية، والتي كان الشعور بها في المشرق العربي، ويتمثل هذا الطرح في ان طريق هذه المواجهة انما يتمثل بالعودة إلى اصول الاسلام، وليس اقتباس الحضارة الغربية، وكان المغاربة يشعرون ان طريق هذا الاقتباس سوف يؤدي إلى ضرب مقومات وجودهم العربي الاسلامي، ومن ثم جاء التقارب بين الوهابية، كدعوة سلفية وبين الاتجاه المغربي لمقاومة الهجمة الاستعمارية الاوربية، ويسجل المؤرخ المصري المعاصر عبدالرحمن الجبرتي هذا الشكل من التقارب في يومياته عن عام ١٢٢١هـ، الموافق ١٨٠٦م، حيث يقول: ان حجاج المغاربة الذين اتموا فريضة الحج في تلك السنة، كانوا راضين تماما عما قام به الوهابيون، الذين كانوا يسيطرون آنذاك

على الحجاز، من ابطال البدع «خاصة شرب التنباك والنارجيلة»!

البصمة الثانية: وهي سياسية، فقد نتج عن تكليف مصر محمد علي بالقضاء على الدولة الوهابية، وهو ما نجح فيه المصريون وانتهوا منه بعد سبع سنوات من الحروب في شبه الجزيرة، نتج عن ذلك وجود مصري سياسي وعسكري في شبه الجزيرة العربية، ولما يقرب من العقود الثلاثة حتى تم اخراج مصر عام ١٨٤٠.

إذا كانت العلاقات المصرية ـ الحجازية قديمة بحكم الواجب الذي كان على «باشوية مصر» ان تقوم به تجاه الحرمين الشريفين، فانها لم تكن جديدة بالنسبة لسائر شبه الجزيرة العربية، فقد كانت جديدة بالنسبة لنجد وعسير، وهي المناطق التي خرجت منها الوهابية، او امتدت اليها، كما انها كانت جديدة بالنسبة لبعض مناطق الخليج، ناهيك عن اليمن، الذي وصلت القوات المصرية إلى مناطقه السهلية في تعز.

وكان معنى ذلك ببساطة، أن الحركة الوهابية أدت ـ بشكل غير مباشر ـ إلى خلق علاقات عربية ـ عربية، لم تكن باليقين في حسبان اطرافها مع قيام هذه الحركة.

حركة التحدي الثانية ظهرت في العراق، وفي ولاية بغداد على وجه التحديد، على يد داود باشا وحكم المماليك، في الفترة بين عامي ١٨١٧ و١٨٣١، وبرغم مخاوف داود باشا من وجود القوات المصرية على التخوم العراقية في المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية ـ كما اشار إلى ذلك عثمان بن سند ـ مؤرخ حياة داود ـ فانه على الجانب الآخر، وبعد النجاحات التي احرزها والي مصر محمد على باشا في تحديث بلاده، وما نتج عن ذلك من قوة ومكانة أحرزتها «ولاية مصر المحروسة» كل ذلك ادى بباشا بغداد إلى الحذو حذو باشا مصر، وقام بخطوات واسعة في هذا الاتجاه، سواء في العمل على تقوية قبضة السلطة المركزية، او بانشاء نظام اقتصادي جديد بادخال محاصيل مستحدثة، ونظم ري مبتكرة، ناهيك عما قام به من السعي لاقامة قوة عسكرية حديثة، على النسق الذي اقام به محمد علي القوة المصرية.

وجاءت حركة التحدي الثالثة والخطيرة من مصر، ممثلة فيما قام به واليها محمد علي من حروب خلال ثلاثينيات القرن، اشتبك فيها مع الدولة

العثمانية، وأنزل بها اقسى الهزائم.

وقد ترتب على هذه الحركة خضوع منطقة واسعة من المشرق العربي لحكم واحد، هو الحكم المصري، مما استتبعه تنوع ألوان العلاقة بينها وبين مصر، ولم تقتصر العلاقة بالنسبة للشام على مجرد الوجود السياسي والعسكري، كما كان الأمر بالنسبة لاغلب مناطق شبه الجزيرة، فوجدنا العلاقات الاقتصادية من خلال تطبيق نفس السياسات الزراعية والتجارية، التي كان قد سبق تطبيقها في مصر، كما وجدنا العلاقات الثقافية من خلال الدور الذي حرص ابراهيم باشا بن محمد علي وقائد جيوشه في الشام، على القيام به ببناء جهاز تعليمي حكومي في تلك البلاد، قريب من الجهاز الذي كان قد تمت اقامته في مصر من قبل.

الخط الثاني: تمثل في الهجمة الاستعمارية الاوروبية، التي تعاظمت خلال هذا القرن والتي انتهت بالهيمنة شبه التامة على مقدرات الوطن العربي، بجناحيه المشرقي والمغربي.

ومن خلال متابعة هذا الخط، يمكن ان نتبين بسهولة الخطوط الفرعية التي انبثقت عنه، متصلة ببناء خريطة العلاقات المشرقية ـ المغربية.

أحد هذه الخطوط متمثل فيما نتج عن الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨، وقد سببت هذه الحملة ازعاجاً شديدا في شتى المناطق العربية، مشرقية ومغربية، ولا نجد صورة تتجسد فيها العلاقات بين جناحي الأمة العربية، كما نجدها في القوة التي شكلها مجاهد مغربي كان في الحجاز في ذلك الوقت، وقد تشكلت هذه القوة اساسا من مجموعات من المغاربة والحجازيين، وعبرت البحر الاحمر باتجاه مصر، ونزلت بصعيد البلاد وشاركت مشاركة فعالة في مقاومة الوجود الفرنسي في مصر، حتى أنه يقال أن من أهم اسباب عودة نابليون بونابرت من الشام، مواجهة خطر هذه المجموعة من المغاربة والحجازيين، وهو ما سنتناوله بتفصيل أكثر في الموضوع الخاص «بالوقفة المشتركة».

على مستوى مصر أيضا، نجد الخط الثاني ممثلا فيما ترتب عن وقوعها تحت الاحتلال البريطاني منذ عام ١٩٨٢ من نتائج أثرت على العلاقات بينها وبين الشام على وجه الخصوص.

فقد حدث الاحتلال البريطاني في نفس الوقت الذي كان يعاني فيه أهل الشام من استبداد الحكم الحميدي (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨)، وكان وجود سلطة غير خاضعة لحكم استنبول في مصر، حتى لو كانت سلطة اوربية ممثلة في البريطانيين، بل انه وقبل ذلك ـ ومنذ السنوات الأخيرة من حكم الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ـ كانت مصر مقصدا لأحرار الشام الهاربين من وجه استبداد السلطان عبدالحميد الثاني.

ترتب على ذلك، وبامتداد الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والسنوات الممتدة حتى عام ١٩١٤، أن خرجت أفواج من أحرار الشام إلى مصر، حيث وجدوا الملجأ الآمن، والأهم من ذلك الفرصة لاصدار الصحف التي تعبر عن آرائهم، وتشكيل التجمعات التي اتخذت القاهرة مرتكزاً لها، ومن الامثلة على ذلك جمعية اللامركزية العثمانية.

أما في المغرب العربي، فان ما أصابه من الهجمة الاستعمارية قد خلق بدوره ردود فعل مشرقية ارتفعت في أكثر من مناسبة الى درجة العلاقات.

واذا بدأنا «بالجزائر» باعتبارها أولى الاقطار العربية التي تعرضت للهجمة الاستعمارية الفرنسية، للاحظنا انه قد جرت محاولات قبيل النزول الفرنسي اليها، لاشراك مصر ممثلة في واليها «محمد علي»، في هذه العملية، والقيام بهذا الدور لحساب فرنسا.

وقد رفضت الحكومة المصرية اقتراحات حكومة شارل العاشر في باريس، بالقيام بمثل هذا الدور، رغم توثيق العلاقات بين الحكومتين، ورغم ان محمد علي لم يعتمد في بناء دولته الحديثة على دولة، كما اعتمد على فرنسا، وكانت وجهة النظر المصرية في هذه المناسبة أنه لا يجوز أن تقوم حكومة اسلامية بمثل هذا العمل لصالح قوة اوروبية ضد شعب اسلامي مهما بلغ من توثق العلاقات بينها وبين هذه القوة.

وفي «تونس» وبعد نحو خمسين عاما من الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٨١)، وكانت الأوضاع قد تغيرت كثيراً، فلم تعد المسألة قاصرة على نطاق العلاقات الحكومية، ذلك ان مصر كانت تشهد وقت فرض الحماية الفرنسية على تونس، حركة شعبية كبيرة هي التي عرفت في التاريخ باسم الحركة أو الثورة العرابية، والتي كانت موجهة اساسا لزيادة اسباب التدخل

الأوروبي في شئون البلاد.

وليس دليلاً على حساسية المصريين من التحركات الفرنسية تجاه تونس، والتي انتهت باعلان الحماية عليها، مما جرى وقتها، وفي اطار التحرك الثوري، من بث دعاية واسعة في صفوف المصريين، من أجل التطوع لانقاذ هذا البلد العربي من الوقوع في براثن الاستعمار الأوروبي.

صحيح أن تلك الدعوة لم تخرج إلى حيز التنفيذ، غير ان مجرد حدوثها يعطي ـ في نهاية الأمر ـ فكرة عن طبيعة تأثير مجريات أحداث في المغرب العربي، في بلاد المشرق العربي.

أما في «المغرب» فقد كان الأمر أكثر وضوحاً، وذلك لأكثر من سبب، فقد كان «المغرب الأقصى» اكثر بلاد «المغرب العربي» استقلالاً، فهو البلد العربي الوحيد، الذي لم يخضع لأي قوة خارجية اخرى، سواء كانت أوربية أو اسلامية، مثل الدولة العثمانية، ثم انه بامتداد التاريخ الحديث، كان بمثابة خط الدفاع العربي الأول، في مواجهة محاولات تسرب النفوذ الاوروبي من الغرب، أضف إلى ذلك العلاقات المتينة التي كانت تربطه بالشرق، والتي سوف نتعرض لها في الصفحات التالية.

هذا على الجانب المغربي، أما على الجانب المشرقي، فان صمود المغرب الأقصى أمام المحاولات المبكرة للهيمنة الاوروبية، وبقاءه حتى مطلع القرن العشرين دون ان يقع في براثنها. كل هذا ادى إلى توفير ظروف مختلفة في المشرق العربي، جعلت رد فعله تجاه المحاولة الفرنسية ـ الاسبانية، للسيطرة عليه أشد حدة.

ففي مصر، كانت الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد من بعده، قد بلغت مرحلة متقدمة، وكان رد فعلها قويا ممثلا فيما جاء في «اللواء» ـ صحيفة الحزب الوطني ـ من استنكار للأعمال الفرنسية ـ الاسبانية، وصلت في بعض المقالات إلى حد تهديد الدولتين الاوربيتين من عواقب رد الفعل المغربي والمصري ضد هذه الأعمال.

في مصر ايضا، كان للتيار السلفي ـ الذي نما نموا واضحاً تحت رعاية الشيخ رشيد رضا، السوري الاصل، وتلميذ محمد عبده ـ موقف حاد بدا على صفحات «المنار» المجلة الشهرية التي كان يصدرها الشيخ، والتي كانت

منتشرة أشد الانتشار في انحاء المشرق العربي .

أما في الشام والعراق ، فان ذلك الوقت قد عرف نمو حركة القومية العربية ، ونحن وان كنا لا نجد موقفا محددا من رجال هذه الحركة ، بحكم ان اغلب نشاطهم كان سرياً ، الا اننا نعثر على جانب منه في الصحف المصرية التي كانوا يكاتبونها ، وقد ابدوا بدورهم استنكارا لما يجري في المغرب الاقصى .

وكان رد الفعل المشرقي ، اشد وضوحاً بالنسبة للهجمة الاستعمارية الايطالية على ليبيا عام ١٩١١ ، وذلك لاسباب اهمها ان تلك الهجمة قد وضعت القوة الاستعمارية الاوروبية وجهاً لوجه امام القوة الاسلامية العثمانية ، وبالتالي فان اي تحرك في المشرق العربي لمواجهة هذه الهجمة ، لم يكن ليتم في معزل ، او في تناقض مع السلطة الشرعية في تلك الانحاء ، ممثلة في حركة استنبول .

ومن ثم ، لم نجد غريبا ماجري من حالة التعبئة العامة ، التي عرفها الرأي العام في الشرق العربي وفي مصر على وجه الخصوص ، بحكم متاخمتها لليبيا ، وهذه الحالة قد وصلت إلى تجنيد المتطوعين لخوض القتال ضد الهجمة الايطالية ، ناهيك عن جمع التبرعات وارسال الادوية والاطباء ، كل هذا قد جرى في اطار حملة صحفية متصاعدة ، أكدت على اهمية العلاقات المشرقية ـ المغربية .

بالاضافة إلى كل ردود الفعل المباشرة للهجمة الاستعمارية الاوروبية على العلاقات المشرقية ـ المغربية ، فقد كانت هناك ردود فعل غير مباشرة لهذه الهجمة على تلك العلاقات ، والتي يمكن حصرها في جانبين :

(١) ما ترتب على الهجمة الاوروبية من محاولات الدولة العثمانية لتفاديها ، وقد سعى السلاطين العثمانيون من خلال حركة اصلاحية طويلة ، امتدت بطول القرن التاسع عشر ، إلى الاخذ بالانظمة العسكرية والادارية والسياسية الأوروبية .

وكان من بين ما أخذوه في هذا الشأن ، نظام الدولة المركزية ، وهو نظام قام في اوروبا متواكبا مع نشوء الطبقة البروجوازية ، ومدعما بالفكرة القومية ، حتى انه اصطلح على تسميتها بالدولة القومية .

ولما كانت من المستحيل الاخذ بفكرة الدولة المركزية، دون الاخذ بعمادها القومي، بالاضافة إلى ما نتج عن الاتصال باوروبا، خلال عملية الاقتباس من اساليبها، من انتشار الافكار السياسية الحديثة على رأسها فكرة القومية، كل هذا ادى في النهاية إلى ان تولدت عن حركة الاصلاح العثمانية ايقاظ الروح الطورانية، أو نمو فكرة الانتماء التركي.

وقد استتبع هذا الايقاظ، سعي من جانب الدولة العثمانية، نشط منذ مطلع القرن العشرين، لتتريك الشعوب التي تحكمها، وهو السعي الذي وصل الى ذروته، بعد الانقلاب الذي قادته جمعية الاتحاد والترقي، ضد السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٨، وما استتبع هذا الانقلاب من الاطاحة بالسلطان نفسه، خلال العام التالي (١٩٠٩).

وأدت كل تلك التطورات - في نهاية الامر - إلى اضعاف الطابع الديني للدولة، وإلى سعي اصحاب القوميات الاخرى للدفاع عن قومياتهم، في مواجهة القومية التركية، وكانت القومية العربية في طليعة تلك القوميات.

وكان من الطبيعي ان يبحث رجال القومية العربية في البلاد الخاضعة للدولة العثمانية، والمتمركزة اساسا في المشرق العربي، عن بلد عربي يبثون منه دعواهم، وكانت مصر مرشحة لذلك بحكم ما عرفته من حركة انتعاش صحفية بدأت في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر، ووصلت إلى ذروتها خلال السنوات السابقة على الحرب العظمى.

وبالتالي كان ما لاحظناه من أن حركة التبشير بالفكرة العربية التي قام بها المشارقة، قد تمت بالاساس على صفحات الجرائد المصرية.

وقد لا يعلم كثيرون ان عبدالرحمن الكواكبي، قد نشر كتاب «ام القرى» أول ما نشره على صفحات جريدة «المؤيد» خلال تسعينيات القرن الماضي، كما قد لا يعلم كثيرون أيضا أن «نجيب عازوري» وهو من أول الداعين للفكرة العربية، قد اخذ من جريدة «المقطم» منبرا لنشرا آرائه، والسعي الى تأصيل الفكرة.

(٢) على الجانب الآخر، فقد أدت الهجمة الأوربية إلى انتعاش الحركة السلفية، ايمانا من أصحابها بأن الطريق الاسلم لمواجهة هذه الهجمة يتمثل في العودة إلى الاصول الصحيحة للاسلام.

واذا كان الوهابيون قد حملوا لواء الدعوة السلفية في اوائل القرن، فانها في اواخر القرن، ومع بدايات القرن العشرين، انتشرت ليصبح لها دعاة في مصر، حيث أخذ الشيخ رشيد رضا - تلميذ محمد عبده، وكان سوري الاصل - في الترويج والعمل على نشرها من خلال مجلته الشهرية الشهيرة في نفس الوقت، «المنار».

وقد بدت اهمية «المنار» في ربط المشرق بالمغرب من اكثر من حقيقة، فهي من ناحية كانت الركيزة التي حذت حذوها صحف مصرية اخرى، مثل «المؤيد» التي اصدرها الشيخ على يوسف منذ عام ١٨٨٩، واستمرت تصدر بانتظام كجريدة يومية، لنحو ربع قرن بعد ذلك، ومثل «الدستور» التي اصدرها كاتب اسلامي معروف هو محمد فريد وجدي، عام ١٩٠٨، وان كانت لم تصدر بنفس الدرجة من الانتظام التي صدرت بها المؤيد او المنار.

وهي من ناحية اخرى، قد انتشرت لتربط بين أقصى المشرق العربي، حيث كان لها قراء في البصرة والخليج، تصلهم مهربة بعيدة عن عيون وأيدي السلطات التركية، وأقصى المغرب، حيث كان يتداولها أهل فاس وتونس بل والجزائر رغم صرامة الرقابة الفرنسية، وقد لعبت دورا هاماً في ظهور دعاة لهم مكانتهم مثل الأمير شكيب ارسلان في المشرق، ومثل جماعة العلماء في الجزائر، أو جماعة القرويين في فاس.

المــوضوع الثاني

تلاقـــي الحـــج

١ ـ عدم التأثر بالانظمة

كان موسم الحج من أهم قنوات الاتصال بين العرب المشارقة والعرب المغاربة، وهي قناة من قنوات الاتصال التي اتصفت بعمقها، كما اتصفت في نفس الوقت بديمومتها اغلب فترات القرن التاسع عشر.

وقد بدت هذه الديمومة، من خلال حقيقة مؤداها انه مهما تغيرت الانظمة السياسية او تصارعت، فلم يكن اي منها قادر على تعطيل اداء فريضة دينية اساسية مثل فريضة الحج.

وتتأكد هذه الحقيقة من أنه طوال الفترة السابقة عن القرن التاسع عشر من التاريخ الحديث، ومنذ ان نجح العثمانيون في فرض سيطرتهم على كل انحاء الوطن العربي باستثناء المغرب في القرن السادس عشر، طوال هذه الفترة التي جرت فيها أحداث كبيرة، من حروب بين العثمانيين وسلاطين المغرب، أو حركات انفصالية جرت، على طول طريق الحج في مصر (علي بك الكبير)، او ليبيا (القرمانليون)، أوتونس (الاسرة الحسينية). بالرغم من كل تلك الأحداث الكبيرة فلم يحدث ان توقف اداء الفريضة، أو توقف طريق الحج.

أقصى ما كان يمكن حدوثه أن يتأثر حجم قوافل الحج المغربية، بالتقلص أو الزيادة تبعا لمعطيات الظرف السياسي، أو يتأثر تركيبها من خلال عدم اشتراك العناصر السياسية فيها، أو بالاحرى العناصر التي تنتمي للأسر الحاكمة.

٢ ـ من الغرب للشرق

ملاحظة اخرى تتصل بطبيعة هذه القناة من قنوات الاتصال، وهي أن العلاقة فيها كانت تسير في اتجاه واحد من المغرب إلى المشرق، وهو اتجاه

طبيعي بحكم وجود مزارات الحج في المشرق، ولما كان من أهم اسباب قدوم المغاربة إلى المشرق آداء الفريضة المقدسة، فلعل هذا يفسر السبب وراء قيام العلاقات المغربية ـ المشرقية من خلال قدوم المغاربة إلى الشرق وليس العكس.

يدعونا ذلك إلى متابعة هذا القدوم باعتبار أنه أخيراً صانع هذه القناة من قنوات الاتصال المشرقية ـ المغربية.

اربع قوافل للحج اهمها قافلة فاس

كان يخرج من المغرب في اتجاه المشرق أربع قوافل للحج، أولاها من المغرب الأقصى وثانيتها من الجزائر، وثالثتها من تونس، والأخيرة من طرابلس. وقد تسمت كل منها باسم بلدها، باستثناء الاولى التي كانت تسمى باسم «القافلة الفاسية» وكانت أهم هذه القوافل فقد كانت تضم مع حجاج المغرب الاقصى، حجاج غرب افريقيا، الذين كانوا يأتون إلى مراكش، ومنها إلى فاس، للخروج في ركب الحج الفاسي.

ثم انه بحكم استقلال المغرب، وتعاظم امر سلاطينه، وذيوع شهرتهم، مثل السلطان اسماعيل في القرن الثامن عشر، والسلطان محمد بن عبد الله في القرن التاسع عشر، كل هذا جعل للقافلة الفاسية مكانة سياسية خاصة، تزداد اهميتها عندما تقترن بالمنح والهبات التي كانت ترسلها حكومة المغرب إلى المؤسسات الدينية، أو مشاهير العلماء في مصر والحجاز، كذا لفقراء الحرمين الشريفين.

أضف إلى كل ذلك المكانة الدينية التي كان يتمتع بها ركب الحج الفاسي، والتي صدرت عن وجود عدد من علماء المغرب داخل هذا الركب، والذين اكتسبوا شهرة خاصة في المغرب العربي، بحكم وجود جامع القرويين كمؤسسة دينية تضارع اشهر تلك المؤسسات في المشرق، وكان اغلب هؤلاء العلماء ينتمون إلى ذلك الجامع، كما صدرت في نفس الوقت لما اكتسبه المغاربة من شهرة خاصة لما اسهموا به في انشاء ونشر الطرق الصوفية، وكانت اغلب الطرق الصوفية المنتشرة على طول الطريق وحتى مصر، هي فروع من الطرق الصوفية المغربية، واتباعها، هم في نهاية الامر من المنتمين اليها.

وتبدو أهمية الطرق الصوفية اذا لاحظنا انه لم يكن هناك مسلم - في ظل التركيب الاجتماعي الطائفي، الذي كان سائدا حتى ذلك الوقت - الا وينتمي إلى احدى هذه الطرق.

ومن الملاحظ أن قوافل الحج المغربية الاربعة، كانت لا تكون بطول الطريق إلى مصر قافلة واحدة، غير انها ما ان تصل إلى القاهرة حتى تتوحد فيما بينها، وعندما كان مصريو هذا العصر يتحدثون عن المغاربة، فقد كانوا يقصدون جميع ابناء المغرب من طرابلس، إلى المحيط الاطلسي غربا. نستنتج ذلك من كتابات المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي وغيره من المعاصرين، حين يقول في الجزء الاول من عجائب الآثار في توصيف حادثة مشهورة جرت عام ١١١٠هـ/١٦٩٨ «في رابع عشر شوال كانت واقعة المغاربة من أهل تونس وفاس، وذلك ان من عاداتهم أن يحملوا كسوة الكعبة التي تحمل كل سنة للبيت الحرام، ويمرون بها في وسط القاهرة، ويحمل المغاربة جانبا منها للتبرك، ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان في طريق مرورهم...»

وبالاضافة إلى الطريق البري، الذي كان يصل الحجاج المغاربة من خلاله الى المشرق لاداء فريضة الحج، فقد كان هناك الطريق البحري، ويستنتج من كتابات الرحالة المغاربة أن الطريق البحري كان اقصر مما يتضح مما كتبه أحد هؤلاء، وهو ابو سالم العياشي، في كتابه «ماء الموائد»، اذ قال: «لما نزلنا انبابة (منطقة غرب القاهرة اسمها الآن امبابة)، خرج للقائنا من سبقنا في البحر من اصحابنا المغاربة».

رغم ذلك، فقد كانت مشكلة الطريق البحري حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر انه طريق غير آمن بحكم ما كان يموج به من اسباب الصراع بين الاساطيل الاوروبية والاساطيل الاسلامية، وكثيرا ما كان يقع الحجاج المغاربة في ايدي السفن الاوروبية، خاصة سفن فرسان القديس يوحنا، الذين استقروا في مالطة حتى استولى عليها نابليون بونابرت عام ١٧٩٨، والتي كانت تقف في وسط البحر، تتصيد سفن الحجاج المسلمين القادمين من المغرب باتجاه المشرق، أو العائدين منه بعد اداء فريضة الحج.

ومن الصعب القول أي الطريقين أكثر استخداماً: الطريق البري مع كل متاعبه وتوفر نسبة معقولة من الأمن به، أم الطريق البحري الأكثر راحة

والاقل أمنا .

كتب جيرار - العالم الفرنسي الذي وضع القسم الخاص بالحياة الاقتصادية في مصر من كتاب «وصف مصر» الشهير، يقول: ان الطريق البحري كان اكثر استخداماً، غير أنه على الجانب الآخر فقد عني الكتاب المسلمون وعلى رأسهم عبدالرحمن الجبرتي - من الجانب المصري - وكل من العياشي والزياني من الجانب المغربي، عنوا اكثر بالطريق البري، وقد تعود هذه العناية لانه كان الأكبر حجماً، وقد تعود إلى أن القدوم من هذا الطريق، كان يتم على شكل قافلة، أو مجموعة من القوافل، وهو مالم يكن يحدث بالنسبة لطريق البحر، وبالتالي فقد كان وصول قوافل الحج المغربية يعد بمثابة الوصول الحقيقي للمغاربة، على خلاف الحال بالنسبة للقادمين من البحر، والذين كانوا يصلون إلى الاسكندرية، أو دمياط، على فترات، وباعداد متناثرة .

هذا عن الطرق، أما عن المدة التي كان يقضيها ركب الحج المغربي قدوما إلى المشرق وعودة منه فقد ناهزت العام .

كان هذا الركب يخرج من فاس في اواخر جمادى الثانية (٢٧ او ٢٨) ليصلوا إلى القاهرة في اواخر رمضان، اذا كانت الظروف مواتية، ويبقون في القاهرة لمدة شهر، يتحركون بعدها في قافلة الحج المصري قاصدين الحجاز، حيث تستغرق رحلتهم - حتى يبلغون مكة - نحو اربعين يوماً، يقفون خلالها ٣٦ مرة، ويبقون في مكة لمدة عشرين يوماً، يتجهون بعدها إلى المدينة، حيث تستغرق رحلتهم اليها عشرة ايام، ثم يبقون فيها لمدة يومين يعودون بعدها إلى القاهرة . وتستغرق الرحلة ذهابا من القاهرة وايابا اليها ما بين ١١٠ و١٢٠ يوماً، اي نحو اربعة شهور .

ويبقون في القاهرة لمدة شهر واحد، يعودون بعده إلى بلادهم في رحلة تستغرق الشهور الثلاثة ليكتمل بذلك العام .

ونتوقف هنا لتسجيل ملاحظتين على جانب كبير من الأهمية :

الأولى : أنه خلال عودة قافلة الحج المغربية إلى بلادها، تلتقي في طريقها بالقافلة القادمة لأداء فريضة الحج للموسم التالي، ومعنى ذلك ان هذه القناة من قنوات الاتصال المشرقية - المغربية لم تكن متقطعة، كما يوحي بذلك

السبب الذي ادى اليها ، ذلك أنه لما كان الحج بمثابة فريضة موسمية ، فقد كان من التصور أن تغلب حالة التقطع على قناة الاتصال التي اوجدها ، غير أن العكس كان صحيحاً ، وكان طريق الحج بالشكل الذي تمت الاشارة اليه مستمراً طول العام ذهاباً وإياباً .

الثانية : أن قوافل الحج المغربية ، كانت تبقى اطول مدة ممكنة على الاراضي المصرية وهي مدة كانت تصل إلى شهرين ، شهر بعد الوصول من المغرب ، وقبل الرحيل إلى الحجاز ، وشهر آخر بعد العودة من الحجاز ، وقبل الرجوع إلى المغرب ، وكان المغاربة بذلك يقضون اطول مدة في رحلتهم الطويلة التي يغلب عليها طابع الانتقال على الاراضي المصرية عموماً ، وفي القاهرة على وجه الخصوص .

يثير ذلك التساؤل عن أهم الاسباب التي ادت إلى ذلك .

يمكن ان نضيف هذه الاسباب إلى اسباب معيشية ، واخرى ثقافية ودينية ، وثالثة اقتصادية ورابعة اجتماعية ، واخيرة أمنية .

من ناحية (الأسباب المعيشية) فقد كان المغاربة يصلون إلى مصر بعد رحلة طويلة تستغرق نحو ثلاثة شهور ، كان اقسى مراحلها المرحلة الاخيرة ، التي يقطعون فيها المنطقة الصحراوية عبر برقة ، حتى يصلوا إلى ضواحي القاهرة ، ونترك للعياشي وصف هذه الرحلة بكلماته ، يقول :

«نزلنا خارج انبابة ضحى يوم الاحد الخامس والعشرين من رمضان الموفي خمسين يوما من يوم خروجنا من بلد سيدي احمد زروق آخر العمران عن عمالة طرابلس ، ولم تكن هذه المدة كلها مشيا ، بل منها نحو الخمسة ايام اقامة وخلص للمشي خمسة واربعون يوما من مسراته إلى مصر ، ولم يعهد قطع هذه المسافة في مثل هذه المدة الا في النادر ، وأعاننا على ذلك مع تيسير المولى جل جلاله اعتدال الهواء وطول النهار مع وجود الكلأ وشبع الابل ، وكنا نقطع هذه المسافة قبل هذا تارة في شهرين وتارة في شهرين ونصف ، وربما مكثنا فيها اذا كان فصل الشتاء ثلاثة اشهر » .

وكان الحجاج الذين يصلون على هذه الدرجة من الانهاك ، هم وابلهم ، في حاجة إلى الاستجمام وشراء ما يلزمهم للمرحلة التالية من الرحلة ، والتي كانت تتم عبر سيناء ، وبحذاء الساحل الشرقي من البحر الأحمر وكانت أكثر

صعوبة من المرحلة السابقة عليها، مما كان يستلزم درجة عالية من الاستعداد لها بدواب قوية واغذية كافية.

أما (الأسباب الثقافية والدينية) فقد تمثلت في ان شريحة من رجال ركب الحج المغربي، كانوا من العلماء الذين يأتون مصر، وفي برنامجهم القيام بمجموعة من اللقاءات مع عدد من علماء الازهر، كذا حضور بعض الدروس، أو الاستشارة في عدد من المسائل الفقهية، وكان هذا يستلزم بقاءهم لفترة من الوقت لانجاز كل هذه الاعمال.

على الجانب الاخر، فقد كانت الغالبية من الحجاج المغاربة تقوم في هذا الشهر بزيارة عدد من الجوامع والاضرحة التي اكتسبت شهرة كبيرة في المغرب، وهذا من قبيل التبرك، كما كانوا يقومون ايضا بزيارة عدد من علماء الدين ، الذين عرف عنهم شدة التقوى والصلاح، ونترك للجبرتي وصف احد هؤلاء المسمى «مرتضى الحسين الزبيدي الحنفي» وكان من أصل يمني، جاء عن هذا الرجل في عجائب الاثار:

«وصار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة، ومنزلة كبيرة، واعتقاد زائد، وربما اعتقدوا فيه القبطانية العظمى، حتى ان احدهم اذا ورد إلى مصر حاجا ولم يزره ولم يصله بشيء لا يكون حجه كاملا، فاذا ورد عليه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده وحفظ ذلك أو كتبه: ويستخبر من هذا عن ذاك بلطف ورقة، فاذا ورد عليه قادم من قابل سأله عن اسمه وبلده فيقول له فلان من بلدة كذا فلا يخلو اما ان يكون عرفه من غيره سابقا أو عرف جاره أو قريبه، فيقول له فلان طيب فيقول نعم ياسيدي، ثم يسأله عن اخيه فلان وولده فلان وزوجته وابنته، ويشير له باسم جارته وداره ومجاورها، فيقوم ذلك المغربي ويقعد ويقبل الارض تارة ويسجد تارة، ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح، فتراهم في ايام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح الى الغروب، وكل من دخل منهم مقدم بين يدي نجواه شيئا ما فضة او تمراً او شمعا على قدر فقره وغناه، وبعضهم يأتيه بمراسلات وصلات من أصل بلاده، وعلمائها واعيانها، ويلتمسون منه الأجوبة، فمن ظفر منهم بقطعة ورق ولو بمقدار الانملة، فكأنما ظفر بحسن الخاتمة، وحفظها معه كالتميمة، ويرى أنه قد قبل حجه والا فقد باء بالخيبة

والندامة وتوجب عليه اللوم من أهل بلاده، ودامت حسرته إلى يوم ميعاده».

ونصل إلى (الاسباب الاقتصادية) وتنبغي الاشارة في هذا الصدد، إلى أن القاهرة كانت تتحول - في هذه المناسبة - إلى سوق كبير، تصل اليه بضائع المغرب وغرب افريقيا في ركاب القوافل المغربية، كما كانت تصل اليه بضائع افريقيا عن طريق الحجاج السودانيين، خاصة من مناطق السودان الغربية، الذين كانوا يصلون إلى اسيوط عن طريق درب الاربعين، ويتقدمون منها إلى العاصمة المصرية محملين بالصمغ والعاج وريش النعام، اضف إلى ذلك ما كان يستورده التجار المصريون من الهند (الأقمشة) أو من اليمن (البن).

تنبغي الاشارة ايضا، إلى أن موسم الحج كان موسم الاعفاءات الجمركية، وكان بالتالي مناسبة للتجار المغاربة والمصريين والسودانيين واليمنيين، بل والشوام الذين يأتون اليها في تلك الفترة، كان مناسبة لعقد الصفقات وتبادل السلع.

ويلاحظ ان تلك الشريحة من الحجاج الذين أتوا للتجارة كانوا يستقرون عادة في الوكائل التجارة مثل وكالة الغوري وغيرها.

أما فيما يتعلق (بالاسباب الاجتماعية)، فقد كانت القاهرة، بحكم تاريخها الطويل في استقبال الحجاج، تحفل بامكانيات ايواء هؤلاء الحجاج، سواء بالدور التي يمكن كراؤها للقادرين على الكراء، أو بالجوامع المنتشرة في سائر انحائها، والتي كان يتخذها الفقراء منهم مكانا للاقامة خلال فترة تواجدهم بها.

ويروي أحد الرحالة المغاربة ان هناك بعض الدور المقامة على طريق خروج موكب الحج، وكانت لا تؤجر سوى يوم واحد في العام في هذه المناسبة، وكان هذا من اعاجيب الزمان، على حد تعبير ذلك الرحالة الحاج!

في نفس الوقت، فقد كانت القاهرة غاصة بأسباب الترفيه الاجتماعي، ويلاحظ أحد المؤرخين النسبة العالية من سكانها، الذين كانوا يعملون فيما يمكن أن نسميه بلغة العصر، ميدان السياحة! مثال على ذلك طائفة الحواة، وطائفة الرقاصين، وطائفة الطبالين، وطائفة الغوازي، وكانت جميع هذه الطوائف تنشط الى العمل في موسم الحج، وتضفي على المدينة الجو الاجتماعي الذي يجعل الحجاج مستمتعين بقضاء أوقاتهم بها.

تبقى اخيرا «الأسباب الامنية»، فقد كانت مصر مسئولة منذ بداية التاريخ العثماني، بل وقبله عن الانفاق على الحرمين الشريفين، مما كان يتم بارسال (صرة الحرمين) أو المبلغ السنوي الذي ينفق على المزارات المقدسة، كما أنها كانت مسئولة ـ في نفس الوقت ـ عن ارسال الكسوة السنوية للكعبة، والتي كانت تخرج في احتفال عظيم، وهو «المحمل السنوي»، وأكثر من ذلك أنها كانت مسئولة عن تأمين طريق الحج بين القاهرة والحرمين الشريفين، وكان هذا التأمين يتم بطريقتين، أولهما: قوة عسكرية تكبح جماح الاعراب القاطنين على طول الطريق، أو من كانوا يسمون «بعرب الدرب» وثانيهما: بدفع مبالغ سنوية لقبائل ذلك الطريق أو ما كان يسمى «بعوايد العرب».

وكان معنى خروج الحجاج المغاربة دون ارتباط بقافلة الحج المصرية، فقد أهم سبب من اسباب الحماية لهم، في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، من هنا كانت ضرورة وصولهم للقاهرة قبل وقت مناسب من خروج القافلة حتى يطمئنوا إلى خروجهم معها، ذلك انهم لو وصلوا بعد خروجها لما امكنهم بأي حال أداء الفريضة التي جاءوا من بلادهم لأدائها وكان عليهم في مثل هذه الحالة، إما الانتظار الى حين خروج القافلة المصرية في العام التالي، أو العودة إلى بلادهم، دون أن يقوموا بما اتوا من أجله.

لا يعني ذلك أن الحجاج المغاربة لم يكونوا يتصلون خلال رحلتهم إلى المشرق، الا بالمصريين، فالواقع أنه كانت تتاح لهم فرص الاتصال بعناصر اخرى من المشارقة، من خلال ثلاثة منافذ.

اولها: الاتصال بعناصر من التجار السودانيين والشوام، وعناصر من العلماء الحجازيين واليمنيين ممن استقروا في القاهرة.

ثانيهما: الاتصال بسائر العناصر المشرقية التي تصل إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، فقد كان هناك إلى جانب قافلة الحج المصرية التي كانوا قسما منها ثلاث قوافل اخرى تأتي من المشرق العربي، أولها قافلة الشام التي تأتي من دمشق، وثانيها قافلة اليمن التي تصل الحجاز من الجنوب عبر عسير.

ثالثها: ان عديدا من الرحالة المغاربة كانوا لا يصحبون قافلة الحج المصرية في طريق العودة، وكانوا يفضلون الاتجاه شمالا، حيث يصلون إلى غزة جنوب فلسطين، ويركبون البحر منها إلى دمياط، التي وجدت فيها جوامع

شهيرة ، ثم يعودون بعد ذلك عن طريق النيل الى القاهرة ، وكان الرحالة المغربي العياشي ممن سلكوا هذا الطريق .

● ● ●

غير أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر يشهد مجموعة من التطورات بالنسبة للحج ، باعتباره قناة اساسية من قنوات توصيل العلاقات المشرقية ـ المغربية ، وهي تطورات ادت إلى ما يشبه الانسداد بالنسبة لهذه القناة .

من تلك التطورات ، ما ترتب على احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ وفرضها الحماية على تونس عام ١٨٨١ ثم ما تبع ذلك من اعلان الحماية على المغرب بعد ثلاثين عاماً .

وكان من الطبيعي ، أن تسعى الادارة الاستعمارية الفرنسية إلى سد ما أمكن من هذه القناة ، ولم تكن بالطبع قادرة على منع المسلمين من أداء فريضتهم المقدسة ، غير أنها اوقفت خروجهم على شكل ركب أو قافله وتحول أداء فريضة الحج إلى عمل فردي ، وقد تم من خلال ذلك تجميد هذا العمل من ابعاده الاخرى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وأصبح مجرد عمل ديني بحت .

من تلك التطورات ايضا ما جرى في مصر من بناء الدولة المركزية الحديثة ، مما كان له جانبه الايجابي على المدى القريب وجوانبه السلبية على المدى البعيد بالنسبة لهذه القناة من قنوات الاتصال .

أما الجانب الايجابي فقد تمثل في درجة الأمان العالية التي وفرتها سلطات الدولة الحديثة للحجاج المغاربة سواء في قدومهم إلى مصر أو خروجهم إلى الاراضي الحجازية التي وقعت تحت الحكم المصري منذ عام ١٨١٨ بعد تكليف المصريين باخماد الثورة الوهابية .

وتتضح قيمة الشعور بهذا الأمان ، من تلك الظاهرة التي تأكدت منذ اواخر عصر محمد على من ارسال سلاطين المغرب لابنائهم لاداء فريضة الحج ، وهم محملون بالهدايا للحكام المصريين ، وفي خلال اقل من عشر سنوات يرسل احد هؤلاء وهو السلطان عبدالرحمن ثلاثة من ابنائه مرة عام ١٨٤٩ ، ثم يرسل ثلاثة آخرين مرة ثانية عام ١٨٥٨ ، وكان الحاكم لدى زيارة المجموعة الاولى هو عباس باشا ، وكان لدى زيارة المجموعة الثانية سعيد باشا .

وأما الجانب السلبي فقد نتج عما ترتب عن اقامة جهاز تعليمي عصري في مصر محل التعليم الديني الذي كان سائدا من قبل، ومع مرور الوقت اخذ النوع الثاني من المؤسسات التعليمية على رأسها الازهر، يفقد قيمتها وبالتالي لم تعد تلك الشريحة الهامة من الحجاج المغاربة ممثلة في المثقفين الدينيين تجد بغيتها في القاهرة، كما نتج ايضا عما ترتب من اعادة بناء الاقتصاد المصري على نمط رأسمالي، وما استتبع ذلك من دخول مصر في الدورة الاقتصادية الرأسمالية، وقد ارتبط اقتصادها نتيجة لذلك بأوربا، التي اصبحت تصدر لها حاصلاتها الزراعية، وتستورد منها السلع التي تحتاجها.

وقد ترتب على ذلك نتيجة اخرى، وهي تغير انماط الاستهلاك المصري، وأصبحت السوق المصرية على ضوء ذلك تتطلع إلى نوع جديد من السلع، غير تلك التي كانت تحتاج اليها في المرحلة السابقة، وبالتالي لم يعد للتجار المغاربة من ابناء قافلة الحج نفس ما كان لهم من فرص تجارية خلال الفترة السابقة التي امتدت إلى اوائل النصف الثاني من القرن.

بالاضافة الى كل ذلك، كان لفتح قناة السويس للملاحة العالمية عام ١٨٦٩ آثاره الهامة على طريق الحج القديم، فقد تحول اغلب الحجاج المغاربة - مع مرور الوقت - إلى الطريق البحري يدفعهم إلى ذلك وجود طريق بحري مباشر، كما يدفعهم ايضا تحسن بناء السفن، وتواجد سفن الركاب، التي يمكن أن تقطع مثل تلك المسافات الطويلة، يضاف إلى كل ذلك ان حالة عدم الأمن، التي كانت سائدة في البحر المتوسط بسبب الصراع بين السفن الاوروبية والسفن الاسلامية، كانت قد انتهت بضرب القوى البحرية الاسلامية بعد احتلال الجزائر خلال النصف الاول من القرن، وضرب القوة البحرية المغربية خلال نصفه الثاني.

ويكفي تدليلا على سيادة القوة البحرية الاروبية، على مياه المتوسط، أن السلاطين المغاربة كانوا عندما يرسلون ابناءهم لاداء فريضة الحج يرسلونهم على متن سفن حربية بريطانية.

الموضوع الثالث

اللقاء الثقـــافي

يمكن تقسيم طبيعة الصلة الثقافية التي ربطت المغرب العربي بالمشرق العربي إلى مرحلتين:

المرحلة الاولى: التي غلب عليها الطابع الثقافي الديني، وهي قد استمرت بدرجة او باخرى حتى منتصف القرن التاسع عشر، والمرحلة الثانية: التي غلب عليها الطابـع الثقـافي العلمـانـي، وهـي التـي استمـرت حتـى مطلـع الثمانينيات من نفس القرن.

ولم تقتصر (المرحلة الاولى) على النصف الأول من القرن التاسع عشر، بل انه كانت لها جذورها في التاريخ الحديث التي تبدأ منذ القرن السادس عشر.

ولنا أن نلاحظ: أولاً: أن العلاقة الثقافية في تلك المرحلة، قد جرت على نفس النحو الذي حدثت به العلاقة عن طريق الحج، بل وتأثرت تلك العلاقة. ويبدو النحو الواحد من أن العلاقة كانت تتم من خلال قدوم مغربي إلى المشرق وليس العكس، ولم تحفظ لنا كتب التراجم حالة واحدة لاي من علماء المشرق، الذين ذهبوا إلى المغرب بينما تحفظ لنا عشرات من الحالات التي أتت، وامتداداً للقرن السابق، الى المشرق سواء من الطلاب الذين تحلقوا بمشاهير الاساتذة المشارقة، وأخذوا عنهم، أو من كبار العلماء المغاربة الذين اتوا للتشاور والتحاور والقاء الدروس في المؤسسات العلمية المشرقية، أما التأثر فيبدو أن هؤلاء المغاربة المثقفيـن، مـن العلمـاء أو الطلاب، كـانـوا يـأتـون اساسا لاداء فريضة الحج، وفي اطار الرحلة يقومون بتلقي الدروس عن مشايخ العصر أو القائها على طلابه.

غير انه ينبغي أن نتحفظ هنا ونسجل أن عديدين من هؤلاء كانوا لا

يعودون مع رحلة الحج التي اتوا معها، بل كانوا يستقرون لسنوات قد تطول وتصل إلى نهاية العمر.

ويتأكد ذلك من تحرى قائمة الاسماء التي حفلت بها التراجم الحـولية في كتاب الشيخ عبدالرحمن الجبرتي، حيث وجدنا علماء كثيرين آثروا البقاء في المشرق، إلى ان وافاهم الاجل به، مما يمكن تبينه من اسماء المراكشي والفاسي والمكناسي والسلجماسي والكتاني، والتونسي، والطرابلسي والجزايرلي... الخ.

كما أنه تجب الاشارة إلى ان كثيرين من علماء المغاربة، الذين يأتون إلى المشرق، كانوا يحرصون على أن يجازوا من شيخ أو أكثر من مشاهير مشايخ المشرق في القاهرة، أو في المدينة او في دمشق، حيث أن هذه الاجازة كانت تمنحهم مكانة خاصة في الدوائر العلمية المغربية.

ويمكن استنتاج ذلك بسهولة بالاطلاع على التراجم المغربية، ومن يقرأ الاجزاء الثلاثة لكتاب «سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس»، الذي وضعه العالم المغربي محمد بن جعفر الكتاني، أو كتاب «صفوة من انتشر من اخبار صلحاء القرن الحادي عشر»، للعالم المغربي محمد الصغير المراكشي الوهراني، وغيرهما من كتب التراجم، يلاحظ حرص اصحابها على الاشارة والاشادة في نفس الوقت بالمترجم لهم من العلماء، الذين خرجوا إلى المشرق، وتلقوا العلم عن مشاهير المشايخ به.

ولا شك أنه قد اثر كثيرا في زيادة حجم العلاقات الثقافية المشرقية ـ المغربية، خلال تلك المرحلة مجموعة من الاعتبارات بالامكان استعراضها فيما يلي:

اعتبار اول: وحدة الطابع الثقافي في بلاد المشرق والمغرب العربي، فقد كان التعليم الديني هو الاساس، وكان الاهتمام بكتب التفسير والفقه والنحو والتراجم والطبقات، بمثابة العمود الفقري لهذا التعليم، ومثل هذا النوع من العلوم، بل من الكتابات التي تتناولها واحدة في كل المؤسسات التعليمية المشرقية والمغربية، ولم يكن يميز اية مؤسسة عن الاخرى تقديم فروع من العلوم لا تقدمها المؤسسة الثانية، بل كان التفاوت في قدرة هذا العالم او ذاك، على أن يقدم تفسيراً او رأيا جديداً، داخل نفس النطاق.

ومثل هذا الشكل من الاهتمامات الثقافية، رغم ما يمثله من جمود وحيز

محدود للابتكار، او طرح الافكار الجديدة، غير انه في نهاية الامر قد خلق درجة من الوحدة الثقافية، كان ينتقل معها اي من ابناء هذه الثقافة من بلد إلى آخر، او من مؤسسة علمية الى مؤسسة اخرى، دون ان يشعر باي شكل من الاغتراب، ولا تنقضي فترة طويلة حتى يتمكن بسرعة ويسر من الانخراط في الجو العلمي الجديد، الذي انتقل اليه، والمشاركة فيه بالرأي والنقاش، وكان ذلك في نهاية الأمر يعاون كثيراً في انتقال المثقفين المغاربة الى الشرق.

اعتبار ثان: قامت المؤسسات التعليمية ذات الطابع الديني في ذلك العصر على شكل يكفل للمنتسبين اليها سبل الاعاشة والسكن والتعليم، دون اي مقابل، فكل جامع من الجوامع الكبيرة كانت تلحق به اماكن على شكل اروقة لسكنى الطلاب، وبمجرد قبول اي طالب، والذي كان يتم لمجرد ان يكون حافظاً للقرآن، تخصص له جراية اسبوعية، او شهرية، والجراية تتكون في العادة من قدر من الخبز الجاف والبقول والعسل، وطالما توفر المأوى والغذاء، كان على طالب العلم ان ينتظم في تلقي الدروس على شيوخ الجامع، والتي كانت تلقى بدون مقابل، ويمكن القول أنه كان لكل طالب علم ما يسمى بالتعبيرات الحديثة منحة دراسية.

وكان تمويل كل تلك المصروفات يأتي من خلال نظام الاوقاف، حيث نلاحظ ان الحكومة او الافراد كانوا يوقفون بعض ممتلكاتهم من الاراضي الزراعية والدور، والوكالات التجارية على مؤسسة من مؤسسات هذا النوع من التعليم، بل وعلى وجه معين من وجوه نشاطها.

وفي محاولة لتطبيق قيمة هذا الاعتبار على قدوم المثقفين المغاربة إلى المشرق، تكفي الاشارة الى انه كان في اكبر جامعة دينية في المشرق، وهي جامعة الازهر، رواق خاص لايواء المغاربة من ابناء المغرب الاقصى والجزائر وتونس وطرابلس، وتتحتم الاشارة إلى ان جانبا كبيرا من نفقات ابناء هذا الرواق كانت تأتي من اوقاف خصصها له المقتدرون من ابناء المغرب من التجار والملتزمين، كما كان سلاطين المغرب الاقصى حريصين على أن يبعثوا سنويا لرواق المغاربة هذا معونات سخية على شكل أموال وتأثيث ومراجع.

اعتبار ثالث: بساطة اجراءات تلقي العلم في مثل هذه المؤسسات التعليمية،

اذ كان من حق اي حافظ قرآن بعد امتحانه فيه ان يجلس إلى حلقة من حلقات العلم المنتشرة في صحن الجامع حول اعمدته حيث يجلس إلى كل عمود احد كبار المشايخ، الذين تخصصوا في فرع معين من فروع العلوم الدينية، وبمجرد ان يتقن ما قاله شيخ العمود، ويثبت لهذا الشيخ، مدى ما اتقنه حتى يجيزه الشيخ فيه ويحصل بذلك على الاجازة دون تقيد بوقت محدد او اجراءات روتينية.

ولا شك ان مثل هذا الشكل من اشكال الاجراءات كان يتيح الفرصة للمشايخ المغاربة القادمين إلى المشرق لاداء فريضة الحج ان يجازوا على شيخ أو اكثر من مشايخ المشرق خلال فترة تواجدهم به.

ونترك الرحالة المغربي ابو سالم العياشي يروي تجربته في هذا الصدد التي تؤكد على مدى بساطة اجراءات الانتساب الى تلك المؤسسات العلمية والانخراط فيها بسهولة. قال العياشي عن فترة وجوده في القاهرة، بعد وصوله مباشرة من رحلته الطويلة من المغرب:

«ثم في الغد من يوم دخولنا حضرت بعد صلاة الصبح مجلس الشيخ المحقق العلامة المدقق الشيخ عبدالسلام بن شيخ الاسلام ابي الامداد ابراهيم اللقاني يقرىء شرح النقابة لجلال السيوطي». ويقول في موضع آخر: «ولم ازل اتردد مدة اقامتي بالقاهرة بمعاهدها الباهرة إلى شيخنا ابراهيم الميموني، وحضرت يوما قراءته مع بعض طلبة الاتراك في تفسير البيضاوي وقرأ قراءة حسنة».

وأثناء رحلة العودة من الاراضي الحجازية ـ وكان قد قطعها عن طريق فلسطين، وصل الى دمياط، ولم يفوت الفرصة ودخل جامعها، ويقول عنه:

«وفيه طائفة من طلبة يقرأون ويدرسون على هيئة مافي الازهر، ولقيت بهذا المسجد الشيخ المدرس العالم العامل المحدث الراوية الشيخ عبدالله بن محمد الديري، وحضرت تدريسه بعد العصر في سيرة شيخه امام المحدثين الشيخ على الحلبي، وقرأت عليه اوائل البخاري ومسلم وقرأت عليه الفاتحة واجازني».

يدعونا ذلك إلى وقفة هنا لنتابع طبيعة تلك المؤسسات في المشرق والمغرب وأهميتها، لقد كانت اشهر الجامعات الدينية في المغرب الزيتونة في تونس

والقرويين في فاس، أما اشهرها في المشرق فقد كان الازهر في القاهرة والأمويين في دمشق.

ورغم قيام الجامعات الاربع، بالاضافة إلى الندوات العلمية التي كانت تعقد في الحجاز خلال موسم الحج... بالرغم من قيامها جميعا بدور هام في ميدان تبادل العلاقات الثقافية بين المشارقة والمغاربة في ذلك العصر، غير أننا نرى ان دور القرويين في المغرب، والازهر في المشرق قد فاق غيرهما من المؤسسات العلمية.

أما سبب تفوق القرويين فيعود إلى الاستقرار النسبي، والاستقلال الذي تمتع به المغرب الاقصى، مما وفر درجة من الاستمرارية والتمويل، لم يتمتع بهما الزيتونة، أضف إلى ذلك الدور السياسي الذي قام به القرويون، مما اكسبه مكانة خاصة في المنطقة.

وقد تمثل هذا الدور في جانبين: أولهما: البيعة التي كان يولي هؤلاء من خلالها سلاطين المغرب، ويمكن لو حبسوها عنهم ان تسبب لهم متاعب وبالتالي كان هؤلاء حريصين دائما على استرضاء هؤلاء العلماء، وتقديم شتى المنح والتسهيلات للجامع الكبير، وثانيهما: الحث على الجهاد، فبحكم حالة المواجهة الدائمة التي عاشها المغرب ضد سائر القوى الاوربية: برتغالية، فاسبانية، فانجليزية، ففرنسية، فقد كان للعلماء دور هام باستنفار القبائل وشتى شرائح المجتمع المغربي، لمواجهة هذه القوى، وكان «المخزن» يعتمد عليهم في القيام بتعبئة الجماهير، مما ادى إلى درجة من الالتحام بين الجانبين.

واما سبب تفوق «الازهر» عن غيره من الجامعات الدينية في المشرق، فقد صدرت في جانبها الاول من حالة الاستقرار النسبي، التي عرفتها مصر عن غيرها من الولايات العربية، الواقعة تحت الحكم العثماني، ثم لانها صدرت في جانبها الثاني من النظام الاقطاعي الذي شاع في مصر (نظام الالتزام)، وهو نظام لم تحكمه الاعتبارات العسكرية كما حدث في شمال سوريا، أو الاعتبارات القبلية او العنصرية او الاسرية، كما حدث في بقية انحاء المشرق العربي.

وقد سمح هذا النظام بالتوسع في وقف الاراضي اوحبسها فميا عرف باسم

اراضي «الرزق الاحباسية» التي كانت تمثل مساحات واسعة من الاراضي من جهات عديدة من البلاد، وكان القسم الاكبر من هذه الاراضي يحبس لاغراض التعليم، وقد تمتع الازهر بجانب هام من ريع تلك الاحباسات، مما وفر له موردا ماليا لا يتوقف.

وقد ساعدت هذه الوضعية السياسية والمالية، التي تتسم بقدر معقول من الاستقرار والدوام، على تفريخ الاجيال المتعاقبة من العلماء، مما اكسب هذه المؤسسة سمعتها، وجعلها مركزا من مراكز الجذب العلمي، حتى ان عدد اروقته المخصصة لاستضافة غير المصريين بلغت ٢٧ رواقا.

وقد نشأت بين الجامعتين الاسلاميتين في المشرق والمغرب، علاقة مستمرة تتعدد امثلتها.

يسجل الدكتور عبدالهادي التازي في دراسته الموسوعية عن جامع القرويين هذه الحقيقة بقوله: «لقد ظلت صلة علماء القرويين برجال الازهر جد متينة، كما تدل على ذلك الاستفتاءات التي كانت ترحل وترد إلى رحاب القاهرة فيما يتعلق بأمر القبلة بفاس على سبيل المثال».

مثل آخر لهذه العلاقة الخاصة فيما جرى عام ١٢٠٣ هـ (١٧٨٨) حين قرر السلطان محمد بن عبدالله اعادة تنظيم القرويين، وأصدر قراره بهذا التنظيم، وما ان بدأ تنفيذ القرار حتى ارسل إلى علماء الازهر نسخة منه يطلب منهم اعمال النظر في الأمور التي قررها، «فما كان منها على صواب اثبتوه واكتبوا عليه بخطوط ايديكم، وما كان منها على خطأ فاكتبوا عليه ايضا بخطوط ايديكم في الدفتر المذكور لنرجع عنه».

مثل ثالث أن كثيراً من التعبيرات التي كانت مستخدمة في الازهر شاع استخدامها في القرويين، فكما اشارت المصادر أن العلماء في هذا الجامع الأخير اعتمدوا في حياتهم على (الجامكية)، وهي كلمة فارسية تعني اجرة مرتبة على رأس كل مدة محددة، وكانت تستخدم في مصر في العصر العثماني.

ولم تكن العلاقات الثقافية المغربية ـ المشرقية خلال هذه المرحلة الأولى تتم فقط عن طريق المؤسسات العلمية مثل الازهر والقرويين، بل كانت تتم عن طرق اخرى.

من هذه الطـرق: شراء الكتـب، فقـد تحمـل (العلمـاء) أو (الرحـالـة) القادمون من المغرب إلى المشرق مسئولية تنفيذ هذه المهمة، حيث كانوا يقومون بشراء الكتب العلمية، وحملها معهم في طريق العودة. حتى أنه يمكن القول أن قدوم موكب الحج المغربي إلى مصر والحجاز، كان مناسبة هامة لانتعاش سوق الكتب بهما.

ويمثل الشيخ «محمد بن عبدالسلام البناني الفاسي» الطائفة الاولى، وهي طائفة العلماء الذين اتوا إلى المشرق لشراء ا لكتب منها، وكان الرجل قد بدأ في تأليف كتاب تحت عنوان «معاني الوفاء من معاني الاكتفاء» وبعد ستة عشر عاما من العمل في هذا الكتاب، ايقن الشيخ عبدالسلام بضرورة الحصول على مصادر اخر تعينه على اتمام عمله، ولم يجد مناصا من الرحيل إلى الشرق «فحج وحمل إلى المغرب من المصادر مايلزم!»

ويمثل العياشي طائفة الرحالة التي أتت تستجلب معها الكتب من الشرق، ونترك للرجل رواية كيفية ادائه لهذه المهمة، قال:

«كنت طول نهاري ذاهبا وجائيا في قضاء الاوطار وتهيئة اسباب الأسفار وشراء كتب وقد يسر الله منها جملة اشتريتها نحو الخمسين من جملتها نسخة من الكشاف».

ويبدو ان حركة نقل الكتب من المشرق الى المغرب، كانت تتم على نطاق واسع، حتى ان بعض العلماء المغاربة، قد تمكنوا من اقتناء مكتبات كبيرة من خلال هذه الحركة.

يشير العياشي إلى ذلك بقوله: «كنت رأيت قبل هذا بارض المغرب عند اخينا الفقيه النبيه سيدي ابي علي عبدالله محمد المنقوشي... مجموعا بخط مشرقي كان في الاصل ملكا للشيخ ياسين الحمصي (من حمص في سوريا) مشتملا على اسئلة وأجوبة في فنون شتى».

من هذا الطريق ايضا، ان عديداً من المؤلفات التي كتبت في مصر، أو عثر عليها في خزائنها، نسخت عن طريق علماء دين ونساخ مغاربة، وأخذت سبيلها إلى بلاد المغرب، او المكتبات العالمية، وقد اندثر بعضها ولم يبق منه سوى تلك النسخ التي نقلها المغاربة، ولعل اشهرها مؤلف احمد جلبي بن عبدالغني «أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات» والتي

نسخها في طرابلس .

● ● ●

المرحلة الثانية تشمل نحو عقدين من منتصف العقد السادس إلى منتصف العقد الثامن من القرن التاسع عشر .

ففي تلك الفترة ، كانت التحولات الهامة في مصر ، باعتبارها القطر العربي الاساسي ، الذي انعقدت علاقاته الثقافية مع المغرب ، تمثلت تلك التحولات في الجهاز التعليمي ، الذي استحدثه محمد علي ، وتوسع فيه اسماعيل بشكل ادى إلى استقرار ونمو النظام التعليمي الحديث ، بينما استمر في التآكل نظام التعليم الديني الذي كان سائدا من قبل .

وفي المغرب ، كانت الجزائر قد وقعت تحت السيطرة الفرنسية ، تلاها التقدم المنتظم لنفس السيطرة على تونس ، مما دفع المغرب الاقصى إلى السعي للحاق بالحضارة الاوروبية ، مما بدا في سياسات كل من السلطان محمد الرابع (١٨٥٩ ـ ١٨٧٣) والحسن .

وكان من رأي هؤلاء السلاطين ، ان الأخذ بأسباب التقدم الاوربي من خلال دولة اوربية معينة ، من تلك الدول المتصارعة على بلادهم قد يؤدي في نهاية الأمر إلى توطيد نفوذها ، بما يستتبع ذلك من احتمالات فرض سيطرتها الاستعمارية على البلاد .

ادى ذلك إلى ان ينفذ هؤلاء السلاطين خطة دقيقة في عملية الاخذ باسباب التقدم الاوربي ، قامت على ارسال الطلاب المغاربة إلى شتى البلاد الاوربية ، التي يمكنهم الاستفادة منها ، مثل : انجلترا وفرنسا واسبانيا والمانيا وايطاليا وبلجيكا ، دون ان تحتكر دولة منها مركز الصدارة .

وكان من الطبيعي مع هذا الفهم ، اذا وجد هؤلاء السلاطين دولة من غير تلك الدول الاوروبية خاصة اذا كانت اسلامية ، تستطيع ان تستقبل بعوثهم ، وبشكل يؤدي إلى الحصول على الفائدة المرجوة أن يوجهوا اليها ابناءهم .

لم تكن دولة عربية اسلامية قد استكملت مقومات هذا الهدف سوى مصر ، ومن ثم كان من الطبيعي ان توجه الحكومة المغربية بعض ابنائها اليها .

أما على الجانب المصري فهو لم يكن اقل حماسا في استقبال البعوث من

ابناء البلاد العربية، ثم انه في نفس الوقت، لم يكن اقل فهما للحقيقة التي توصل اليها السلاطين المغاربة.

يبدو ذلك من الرسالة الطويلة التي كتبها حاكم مصر اسماعيل باشا إلى السلطان محمد بن عبدالرحمن، جاء فيها:

«لقد ضاعف لي مزيد السرور عناية جنابكم العالي بهذه الأمور، فإنّا بحمد الله في ملة الاسلام ومتابعة النبي ﷺ والدين في كتاب الله أخوة ونسبة مرجوة قال سبحانه: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾ وقد شبه المؤمنين رسول الله ﷺ باعضاء الجسد وأجزاء البنيان فوجب ان تتحد قلوبنا وتتعاون افكارنا وتتوافق انظارنا وتنتفع ببعضها ديارنا، فمهما كان من احد الطرفين من صنعة ترغب أو علم يطلب او مزية تحسب كان للآخر ان يستفيد منه ويأخذ علم ذلك عنه».

وانطلاقا من هذا الفهم بدأت تلك المرحلة الجديدة من العلاقات الثقافية المصرية - المغربية والتي يمكن رصدها في الجوانب الآتية حسب أهميتها:

١ - الجانب الأول تمثل في البعثات التي ارسلها كل من السلطان محمد الرابع والحسن الأول، وقد أمكن حصر خمس من هذه البعثات:

أولها: البعثة التي ذهبت إلى مصر في عهد سعيد باشا بين عامي ١٢٧٦ و١٢٨٠ (١٨٥٩ - ١٨٦٣)، وقد ضمت شابين احدهما (احمد شهبون) ذهب لتعلم الجغرافيا، وقد وضع كتابا تحت عنوان «كتاب الجغرافية المغربية». وثانيهما (محمد بن كيران الفاسي) ذهب لتعلم الفلك.

ثانيهما: البعثة التي ارسلها محمد الرابع ايضا، وضمت واحدا لتعلم الطباعة وثلاثة لتعلم صناعة البارود.

وينظر بعض المؤرخين المغاربة إلى هؤلاء المبعوثين باعتبارهم يشكلون بعثتين، غير ان الرسالة الطويلة التي كتبها اسماعيل باشا إلى محمد بن عبدالرحمن تؤكد ان الجميع قد ذهبوا سويا وانهم ارسلوا لتلقي ما تقرر ان يتلقوه من فنون وعلوم في وقت واحد.

فقد جاء في هذه الرسالة:

« فأما الوارد بصدد المطبعة فارسلناه إلى البيك ناظر دار الطباعة وأوعزنا اليه بادائه جميع ما يلزم لهذه الصناعة والاعتناء بتمرينه على استعمال ادواتها

وتوقيفه على كيفية ادارة آلاتها وسائر كيفياتها على تنوع حالاتها، واما الواردون من أجل صنعة الزريج (البارود) فارسلناهم إلى الباشا وكيل ديوان الجهادية المصرية في الحال، ووصيناه بالاعتناء بتعليمهم كل ما يلزم لاكمال صناعة البارود من الأعمال والاشغال واخذها عن اهلها المتفننين حتى يحصلوا على البراعة في اشغال تلك الصناعة».

ثالثها: وهي البعثة التي كانت بصدد التوجه إلى مصر عام ١٢٨٣ (١٨٦٦) والواضح أنها كانت استجابة لما جاء في رسالة اسماعيل باشا لمحمد الرابع من وجود «مدارس عديدة لتعليم فنون جر الاثقال والاستحكامات والفنون الحربية والاصول العسكرية النظامية إلى ما يوجد من المعامل والمصانع لعمل البنادق والجلل والمدافع وما يتعلق بها من الاعمال والصنايع وما يلزم للحرب والكفاح من أنواع العدد والسلاح».

وتسجل رسالة سلطان المغرب في تشكيل هذه البعثة طبيعة هذه الاستجابة فيما جاء فيها:

«وقد بلغ اسماعيل باشا اهتمامنا بالأمور الجهادية.. فاقتضى نظرنا تعيين ثلاثين من الاولاد الصغار النجباء وتربيتهم بحضرتنا الشريفة في تعلم مالابد منه من مقدمات ذلك من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك، ثم نوجههم بعد لمصر».

ولا يمكن الجزم باذا ما كان هؤلاء الاولاد قد تم ارسالهم إلى مصر أم لا خاصة وأنه لا يوجد ضمن الوثائق المصرية ولا المغربية ما يفيد ذلك.

رابعها: وهي البعثة التي ارسلت في منتصف السبعينيات، وقد ضمت اثنين من رجال الصناعة بالاضافة إلى عديد من الطلاب.

وليس هناك ايضا ما يفيد عن عدد هؤلاء وان كان سجل النفقات المخزنية قد صنفهم إلى ثلاث رتب على اساس المنحة التي يتقاضاها ابناء كل رتبة منها مما يقطع بكثرتهم.

خامسا وأخيراً: هناك ذلك الطالب الذي ذهب لدراسة الطب في القاهرة عام ١٢٩١ هـ - (١٨٧٤) المدعو عبد السلام العلمي، أو كما لقبته الشهادة التي حصل عليها «عبدالسلام المغربي الفاسي».

وتتحدث هذه الشهادة بالتفصيل عن قدوم الطالب المذكور بأمر «السلطان

مولانا الحسن ... ادام الله ايامه ... للتمرين على نفائس العلوم المستجدة الطبية بالمدرسة الطبية الخديوية المصرية، المتداولة الآن، في جميع البلدان».

ثم تفصل الشهادة العلوم التي درسها الطالب المغربي وكيف أنه قد تفوق فيها «ونال بذلك طريق الرشد والسداد».

٢ ـ تمثل الجانب الثاني في طلب بعض المستحدثات التي دخلت مصر منذ وقت مبكر، والمطالبة بمن يجيد العمل عليها.

وقد تم استجلاب هذه المستحدثات وخبرائها عن طريقين:

أولهما: طريق الاتصال الحكومي فقد طلبت الحكومة المغربية عام ١٢٨١ هـ/١٨٦٤ بعض خبراء صناعة السكر.

بادرت السلطات المصرية بارسال خبيرين في هذه الصناعة ومعهما خطاب من اسماعيل باشا إلى السلطان محمد الرابع جاء فيه:

«حسبما اشرتم تعين شخصان من صانعي السكر بالديار المصرية احدهما له المام بالبضاعة القديمة والآخر يعرف العمليات الجديدة، وهاهما متوجهان إلى اعتاب ناديكم المبارك عند وكيل السعادة المقيم بهذه الاقطار (الحاج محمد افروخ وكيل المغاربة في مصر).

والمأمول انه بشمولهما بالنظر الكريم يستحسن ما يبديانه من الصناعة ويستحلي ما يكررانه من البضاعة ويحصل بها النفع العام.

ويبدو أن الخبير الذي «يعرف العمليات الجديدة» لم يجد في المغرب «مكينة جديدة» يعمل عليها. دعا ذلك السلطان إلى أن يكتب للحاكم المصري في العام التالي يطلب منه هذه المكينة، وكما كتب بعد «تجديد اسباب الود التي تزيد بطول العمر أعظم تأكيد واخلاص الدعاء لكم بالاعانة واليمن والتأييد واعلامكم أننا كلفنا وكيلنا بتلك الديار المعظمة الازهى الحاج محمد افروخ بأن ييسر لجنابنا العالي مكينة جديدة صالحة لخدمة السكر على حسب مارسمناه له وان يوجهها لحضرتنا العالية بالله بعد الاختبار والامعان في الاختيار».

ثانيهما: طريق المبادرات الفردية، ففي عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤) نجح قاضي تارودانت المدعو «محمد الطيب الروداني» اثناء تأديته فريضة الحج ومروره بمصر في شراء مطبعة حجرية والتعاقد مع طبيع مصري هو «محمد

القباني» واستحضر الاشياء اللازمة : المطبعة والطباع .

والواضح أن هذا العمل قد خلف اثرا هاما في الحركة الثقافية المغربية ، وقد استقر القباني اولا لنحو عام في مكناس تمكن خلاله من طبع كتاب «الشمائل الترمذية» .

غير أن الطبيع المصري استقر في فاس منذ عام ١٢٨٢ (١٨٦٥)، حيث حملت المطبعة اسم «المطبعة السعيدة» أو «المطبعة المحمدية» نسبة للسلطان محمد الرابع ، وهناك أكثر من ملاحظة حول هذه المطبعة :

١ ـ فهي تعتبر بمثابة نقطة البداية في دخول فن الطباعة إلى المغرب بكل ما ترتب على ذلك من معطيات في الحقل الثقافي .

٢ ـ تشكلت هيئة للمطبعة كانت تشتمل بعد الطبيع المصري على ناسخ ومصحح وعدد من المعاونين بلغ العشرين .

٣ ـ كانت هذه الهيئة أشبه بالمدرسة التي تفرخ خبراء جدد في فن الطباعة فمن بين معاوني القباني أتقن عدد منهم هذا الفن أمثال الطيب بن محمد الازرق الفاسي ، والمكي بن الوزير محمد بن ادريس العمروي الفاسي .

● ● ●

لا نعثر بعد عهد الحسن الأول على ما يشير إلى استمرار هذه العلاقة الثقافية المشرقية ـ المغربية والسبب واضح .

فعلى الجانب المصري كانت قد تعرضت البلاد خلال عهد هذا السلطان للاحتلال العسكري من جانب إحدى القوى الاوربية الكبرى (بريطانيا) ١٨٨٢ ، وتمخض عن ذلك سياسة استعمارية استهدفت تقليص الجهاز التعليمي في البلاد ، كما أن هذه السياسة كانت على وجه اليقين عازفة عن توثيق روابط مصر بسائر الدول العربية الاسلامية .

أما على الجانب الآخر فقد كان على المغرب أن يواجه بعد الحسن الأول ظروفاً ادت من ناحية إلى صرفه عن سياسة التحديث التي اسرعت الخطى في عهد هذا السلطان ، كما انها ادت من ناحية اخرى إلى لوي وجهه بعنف تجاه اوربا التي جاءته منها رياح الاطماع الاستعمارية .

الموضوع الرابع

تبادل المصالح الاقتصادية

مارست عناصر عديدة نشاطا اقتصاديا متعدد الاوجه في المشرق العربي، خلال الفترة موضع الدراسة، كان منها الاوربيون، كما كان منها العرب المسلمون من المغاربة.

بالنسبة للفئة الاولى، اي الاورربيين، فقد مر نشاطها الاقتصادي في المشرق العربي بثلاث مراحل:

تواكب (المرحلة الاولى) الفترة المبكرة من العصر العثماني حيث تعرضت اقسام من المشرق العربي، خاصة المناطق المقدسة، إلى الغارات البرتغالية، واذا اضيف إلى ذلك حروب الجيوش العثمانية في اوربا في نفس الفترة لأمكن فهم أسباب الحالة العامة من القطيعة التي سادت بين الطرفين.

ولم تسمح هذه الحالة بالطبع للتجار الاوروبيين بممارسة ذلك النشاط الذي اعتادوا على القيام به خلال العصر المملوكي.

وكان من المنطقي ان يتيح الفراغ، الذي خلفه توقف نشاط هؤلاء، الفرصة لزيادة النشاط الاقتصادي للتجار العرب والمسلمين، والمغاربة في طليعتهم.

أما (المرحلة الثانية) فقد اعقبت «معاهدة الصداقة والتجارة بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا» المعقودة في فبراير ١٥٣٥، والتي اتاحت للأوربين عامة، والفرنسيين على وجه الخصوص؛ الفرصة للعودة لممارسة انشطتهم الاقتصادية في المشرق العربي.

غير أنه بالرغم من ذلك، استمر النشاط التجاري الاوربي محدودا، حيث ظل الأوربيون محاصرين اجتماعيا واقتصاديا في وكالات متناثرة هنا وهناك، وترتب على ذلك أن استمر النشاط الاقتصادي المغربي في تلك المرحلة أيضا، دون منافسة تذكر من الجانب الاوربي.

(المرحلة الثالثة) تزامن ثلاثينيات القرن التاسع عشر بعد أن تم بناء الدولة الحديثة في مصر، وامتدت سيطرتها السياسية والاقتصادية إلى الشام وشبه الجزيرة العربية والسودان، وما استتبع ذلك من توسيع الاوربيين لوجودهم وأنشطتهم الاقتصادية في البلاد.

ترتب على هذه الوضعية الجديدة أن بدأ في نفس الوقت تقلص الأنشطة التجارية للفئات العربية الاسلامية، حتى أنه لم تأت نهاية القرن الا وكان هذا النشاط قد تقلص بشكل حاد بما فيه نشاط الفئات المغربية.

وباستثناء الطرق التجارية المألوفة في الشرق كأن يذهب اليمنيون الى الحجاز، أو يذهب الحجازيون إلى الشام، او يقصد الشوام وأهالي غرب السودان مصر، باستثناء هذه الطرق فانه فيما يتصل بالعلاقات المشرقية - المغربية، نجد الطريق المغربي من حيث أتى المغاربة، وينبغي أن ننظر إلى هذا الطريق على ضوء الملاحظات الآتية:

١ - أن المغاربة لم يأتوا الى الشرق بهدف التجارة وحده، بل أتوا قبل ذلك بهدف الحج، وكان تحقيق هذا الهدف يحتم الوصول إلى الحجاز عبورا بمصر، كما كان يحتم في نفس الوقت قضاء فترة قد تطول على الاراضي المصرية انتظارا للخروج مع قافلة الحج.

٢ - ثم أن البعد المكاني حتم ضرورة الاستقرار في المشرق، ومصر على وجه الخصوص، لوقت قد يطول في اعقاب رحلة القدوم، وقبيل رحلة العودة، وكثيرا ما كان يتحول هذا الاستقرار المؤقت إلى استقرار نهائي.

وقد استتبع ذلك أن زاول المغاربة في مصر نوعين من النشاط التجاري:

أولهما: ذلك النشاط الذي مارسه الحجاج منهم خلال عبورهم مما يمكن اعتباره تجارة عبور (ترانزيت). مثل على ذلك ما أشار اليه ابو القاسم الزياني صاحب «الترجمانة الكبرى» من أن والده ترك بضاعة لدى صديق له في مصر لبيعها، وقد انقذه ثمنها الذي تقاضاه من هذا الصديق من ورطة مالية كان قد وقع فيها اثناء وجوده في الحجاز.

اكتسبت تجارة الترانزيت بذلك شكلا من أشكال الديمومة حتى انه كثيرا ما كانت المعاملات تتم بالنقد، كما عرف نظام الدفع الآجل ونظام الفوائد التي تراوحت بين ١٪، ١٢٪ دون أن يمس ذلك بمبادىء الشريعة.

تمثل (ثانيهما) في ذلك الدور الذي أدته أعداد من الأسر المغربية التي استقرت في مصر واليمن والحجاز وان كان غالبيتها في مصر، وقد كونت فيها ثروات كبيرة من الاشتغال بالتجارة مما يمكن توصيفها بالتجارة المستمرة.

وبينما ساد النوع الاول من النشاط التجاري خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد غلب النوع الثاني خلال القرنين التاليين.

وقد تمتعت تجارة الترانزيت طول الوقت بامتيازات خاصة، تتمثل في الاعفاءات الجمركية التي حصلت عليها، حيث أن السلطات المصرية قد درجت على عدم فرض اي ضرائب على السلع التي ياتي بها الحجاج المغاربة، بل أن هذه السلع لم تكن تخضع حتى للاجراءات الجمركية.

ولم يقتصر النشاط الاقتصادي المغربي في مصر على التجارة، بل ان المغاربة اشتغلوا في حرف اخرى مما حفلت به سجلات المحاكم الشرعية في مصر.

وتتعدد الأمثلة في هذا الصدد، لدينا الذين اشتغلوا بحرفة الحياكة مثل لاشين مصطفى الخياط أو بحرفة الدلالة مثل الحاج عبدالقادر الدلال والحلاقة حيث انتشر الحلاقون المغاربة في خط البندقيين وتطريز الحرير مثل الحاج احمد المغربي الحريري بخط التربيع وعمل بعضهم بمهنة القبانة (وزن السلع الثقيلة على الميزان القباني) في القاهرة وغيرها من المدن المصرية وخاصة الاسكندرية.

وقد برز دور الحرفيين المغاربة في ذلك النوع من الحرف وفي غيره والذي ارتبط بتقديم الخدمات لموكب الحجيج المغربي مما تكتظ به اخبار الرحلات التي وافانا بها رجال ممن شاركوا في هذا الموكب.

مثل على ذلك مهنة الطبخ التي احترفها عديدون، والواضح انهم كانوا يجيدون المأكولات المغربية وبسجل لنا الزياني في هذا الشأن قيام صديق له مستقر بمصر هو الحاج محمد عبدالسلام بالعمل في هذه المهنة وكانت عنده «آلة طبخ» كما يقول.

مثل آخر مهنة كراء البيوت أو ما نسميه بلغتنا المعاصرة «السمسرة»، وكان من الطبيعي ان تزدهر هذه المهنة كلما اتى الالوف ممن يضمهم موكب

الحجيج المغربي، والذين يحتاجون إلى دور تأويهم طوال فترة مقامهم بمصر.

ويروي لنا الزياني ايضا في هذا الصدد خبر معاونة مغربي له على اكتراء بيت يسكنه فيقول: « .. وبلغنا مرسى بولق فمن التيسير ولطف الله وجدنا صاحبنا من أهل فاس قائماً على الشط يترقب من يأتي من حجاج المغرب فلما رآنا في المركب عرفنا وقدم علينا، وبعد السلام كلفته أن يكتري لنا بيتا بمصر قريبا من الجامع الازهر ومشهد الحسين، فتوجه في الحين وبتنا في المركب ومن وصلنا، فنزلنا وحملنا بضائعنا وما معنا ودخلنا مصر (القاهرة) وبلغنا المنزل الذي عينه لنا ».

ولما كان مجتمع المدينة المصرية التي عاش فيها المغاربة آنئذ يغلب عليه الطابع الطائفي، بحيث كان من الصعب أن تستمر أية مجموعة بشرية في التواجد في هذه المدينة، دون أن تتكتل داخل طائفة بينها، ودون أن تعيش داخل حارة بذاتها، فاننا نلاحظ ان المغاربة في مصر خلال العهد العثماني قد كونوا طوائف يغلب عليها بالأساس طابع الانتماء العنصري (المغربي).

مثل على ذلك طائفة المغاربة بسوق طولون، ويشير ارشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة لاسم شيخها قرب منتصف القرن الثامن عشر، وهو الحاج سعيد، وكذا طائفة المغاربة بخط العدوية وشيخهم الحاج أحمد، بالاضافة إلى طوائفهم في اسواق الجمالين والفحامين، ووكالة الكحكيين وخطوط البندقية والاشرفية وباب الشعرية وقناطر السباع وبولاق وطولون.

ويدل هذا على حقيقتين: أولاهما: أن عدد المغاربة بمصر، وبالقاهرة على وجه الخصوص، قد تضخم إلى الحد الذي سمح لهم بتكوين كل هذه الطوائف، والثانية: أنهم استقروا في تلك البلاد، مما مكنهم ايضا من تخليق هذا الشكل الطائفي الذي يستلزم الاستمرار.

وأخيرا يلاحظ أن المغاربة في مصر قد استقروا بالأساس بالقاهرة وبعدد من المباني المطلة على البحر المتوسط وبالذات الاسكندرية ورشيد.

● ● ●

وقد تركز النشاط الاقتصادي الأساسي الذي مارسه المغاربة في مصر في أعمال التجارة، وكان هذا أمراً طبيعياً على ضوء أن القطاعات الأهم التي وفدت إلى مصر من المغاربة بهدف ممارسة نشاط اقتصادي كانت من التجار،

ثم أن هذه القطاعات سواء باستقرارها في القاهرة او في المواني المصرية انما قد استقرت في مجتمعات تجارية.

ويشير الجبرتي إلى أن الدور الاساسي للمغاربة في التجارة كان في ميدان تجارة البن والتوابل، والتي كانت مراكزها قائمة في أحياء طولون والغورية. أضف إلى ذلك السلع ذات الطابع المغربي والتي أتت أولا من المغرب ثم تم تصنيفها في مصر، وتخصص في بيعها التجار المغاربة، ويشير الجبرتي ايضا في هذا الصدد إلى ما أسماه «بالنعال المغربية أو البلغ».

وينبغي تسجيل حقيقة في هذا الصدد وهي أن تلك السلع التي تاجر فيها المغاربة في مصر (البن والتوابل خاصة) انما كانت تمثل السلع الأساسية سواء في علاقات مصر التجارية مع الخارج أو في دورها كمنطقة عبور للطريق التجاري القادم من الشرق الاقصى إلى المناطق الجنوبية من اوربا (المدن الايطالية).

وكان من الطبيعي ان يمكن هذا الدور المغاربة من تكوين ثروات طائلة وضعتهم في مكانة اجتماعية متميزة، ولا مبالغة اذا ما أقررنا الحقيقة بأن التجار المغاربة وقتئذ كانوا يشكلون العمود الفقري للطبقة البورجوازية في مصر.

يبدو ذلك مما ذكره الجبرتي من أنه كلما احتاجت السلطة في مصر إلى المال كانت تتجه إلى التجار المغاربة للحصول عليه، وهم في ذلك، اي التجار المغاربة، قد قاموا بدور شبيه لذلك الدور الذي قامت به البورجوازية في اوربا في مطالع العصور الحديثة من حيث كونها المصدر الاساسي لتمويل الدولة القومية الناشئة من خلال فرض الضرائب عليهم وسهولة تحويلها منهم مما كانوا معه بمثابة الدعامة المالية لهذه الدول بامتداد تلك العصور، ولو أن ذلك لا يعني أنهم قاموا بالضبط بهذا الدور فهم كانوا حقيقة مصدرا لتمويل الدولة، الا أن الأخيرة لم تسر في نفس طريق الدول الأوربية تجاه المنحى القومي المركزي.

غير انه قد ترتب على ذلك في اي الأحوال وجود علاقة خاصة بين السلطة في مصر وبين التجار المغاربة في البلاد تقوم على ارتباط المصالح بين الطرفين وأنه طالما كان التجار مصدرا من مصادر تمويل السلطة فقد كانت هذه

الاخيرة تقدم لهم كل الوان الرعاية مما يبدو فيما أتاحته الادارة المصرية للتجار المغاربة من فرص لاستثمار رؤوس أموالهم في كافة اوجه الاستثمار مثل شراء العقارات وتوريثها أو وقفها، ورهن وشراء حق الانتفاع بالاراضي الزراعية وتأجيرها وشراء الوكالات وغيرها.

● ● ●

وتتعدد نماذج الاسر المغربية في مصر، التي مارست النشاط التجاري ولعبت فيه دورا هاماً.

أشهر هذه الاسر واهمها هي اسرة «الشرايبي» ويبدو حجم الأهمية من أن الاجيال المتعاقبة لهذه الاسرة قد لقيت الاهتمام من المؤرخين المعاصرين على رأسهم الشيخ عبدالرحمن الجبرتي الذي استمر يسجل اخبار هذه الاسرة في حولياته منذ منتصف القرن السابع عشر، ولقرن كامل بعده، وقد سجل تاريخ وفاة أول من اشتهر فيهم، الخواجة محمد الكبير (١١١١ هـ) ١٦٩٩ ـ ١٧٠٠، كما سجل تاريخ وفاة آخرهم، ابراهيم بن محمد الغزالي ابن محمد الدادة الشرايبي (١٢٠٥ هـ) ١٦٩٠ ـ ١٧٩١.

وقد تعددت مظاهر ثراء اسرة الشرايبي، فيصف الجبرتي بيتهم بانه «بيت المجد والسيادة والامارة والتجارة» ويتحدث عن أحدهم بقوله انه كان «من اجل أهل بيت الثروة بالمجد والعز والكرم»، ويصف بيتا ثالثا بانه كان «بيت المجد والفخر والعز.. وكانوا في غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الأخلاق والاحسان للخاص والعام».

ولقد كان لبعضهم اكثر من دار يعيش فيها، مثل على ذلك الحاج قاسم الشرايبي، الذي كان له بيت في الغورية حيث كانت تجارته (التوابل) وكان له بيت آخر في الازبكية حيث سكنى الاعيان في البلاد.

ويذكر الجبرتي أن بيتهم الأخير هذا الواقع في الازبكية «كان يشتمل على اثني عشر مسكنا كل مسكن بيت متسع على حدته».

أضف إلى ذلك كله أن المصريين لقبوا عمداء هذه الاسرة «بالخواجا» وهو لقب كان يطلق على كبار الأثرياء العاملين بالتجارة فقط.

وتتضح مكانة اسرة الشرايبي لدى الادارة في مصر من أكثر من حقيقة يمكن تسجيلها:

١ ـ فقد كان بيت الشرايبي بمثابة مكان اللقاء للصفوة الحاكمة في مصر ، يترددون عليه وقت شاءوا «وكان الامراء بمصر يترددون اليهم كثيرا من غير سابق دعوة ، وكان رضوان كتخذا يتفسح عند المترجم (الحاج احمد بن محمد الشرايبي) في كثير من الاوقات مع الكمال والاحتشام ولا يصحبه في ذلك المجلس الا اللطفاء من ندمائه».

٢ ـ شاركت اسرة الشرايبي في شراء المماليك وتربيتهم حيث كان هؤلاء بعد ذلك يشكلون جناحا هاما من أجنحة السلطة المصرية القائمة وقتئذ ، ويشير الجبرتي في ترجمته لأحمد بن محمد الشرايبي إلى «مماليكهم وأولاد مماليكهم من أعيان مصر جربجية وامراء ، ومنهم يوسف بك الشرايبي».

وحتى نتفهم اهمية هذه الظاهرة ينبغي تقديم اشارة وجيزة للنظام المملوكي في مصر ، فقد قام هذا النظام على اساس بيوت لكل منها أميرها الذي يشتري مماليكه ويدربهم ويستخدمهم حتى اذا نبغ بعضهم كون بيوتا صغارا منبثقة من البيت الكبير وأصبح بدوره من الأمراء او البكوات وكان ينتحل اسم امير البيت الذي تربى فيه.

ويقدم ما فعلته اسرة الشرايبي نموذجا غير معتاد ، فهم ليسوا في الاصل من المماليك غير أنهم رغم ذلك استجلبوا مماليكا وربوهم وتحول هؤلاء إلى امراء او بكوات وانتحلوا اسم اسرة الشرايبي.

ولعل هذا النموذج غير المعتاد يقدم اكثر من دلالة على مكانة اسرة الشرايبي ، فهي من ناحية قد بلغت من الثروة الحد الذي يمكنها من الاقدام على مثل هذا الاسلوب ، وهي من ناحية اخرى قد بلغت من الالتحام بالسلطة الحد الذي اصبحت معه مركزاً لتفريخ بعض عناصرها.

٣ ـ وكانت وفاة احد أفراد الشرايبي مناسبة هامة تتبدى فيها أهمية مكانتها لدى الدوائر الحاكمة في البلاد.

يصف الجبرتي في احداث عام ١١٣٧هـ (١٧٢٤ ـ ١٧٢٥) جنازة محمد الدادة الشرايبي فيقول «وحضر جنازته جميع الأمراء والعلماء وارباب السجاجيد والوجاقات السبعة والتجار وأولاد البلد» ثم يضيف في أحداث عام (١١٤٧هـ) ١٧٣٤ ـ ١٧٣٥ جنازة الحاج قاسم بن الحاج محمد السابق الذكر فيقول «وخرجوا بجنازته من بيته بالازبكية في مشهد عظيم حضره

العلماء وارباب السجاجيد والسناجق والاغوات والاحتيارية والكراخي حتى أن عثمان القازدغلي لم يزل ماشيا امام نعشه من البيت إلى المدفن بالمجاورين».

أما عن الانشطة الاقتصادية التي مارسها «ابناء أسرة الشرايبي» فيمكن رصدها في اكثر من نشاط:

هناك أولا ذلك النشاط الاصيل الذي تفرعت عنه سائر الانشطة وهو ممارسة التجارة، فقد تعددت في ايدي ابناء الاسرة الوكائل (اماكن متسعه يمتلكها كبار التجار وتباع فيها سلعة معينة بالجملة) التجارية في الغورية وغيرها.

وقد اتسع نطاق النشاط التجاري للشرايبية إلى الحد الذي تملكوا معه سفنا تأتي لهم بسلعهم من الشرق الاقصى، ويذكر الجبرتي انه كان للحاج محمد الدادة الشرايبي «ثلاثة مراكب في بحر القلزم (البحر الاحمر)».

وأهمية التجارة في بحر القلزم، تنبع من مصدرين، اولهما ان هذا البحر استمر طوال العهد العثماني بحرا اسلاميا لا يسمح للفرنجة بالابحار في المنطقة الواقعة شمالي ميناء مخا اليمني، وثانيهما أنه كان الشريان الرئيسي الذي تتلقى منه مصر وعالم البحر المتوسط السلع الشرقية، التوابل من الشرق الاقصى، والبن من اليمن، ومعلوم أن التجار المغاربة كانت لهم شهرة خاصة في التعامل في هذه السلع.

وقد مكنت الثروات التي استطاع ابناء اسرة الشرايبي تكديسها من الاشتغال بالتجارة مكنتهم من توظيفها في وجوه استثمارية اخرى.

في المدينة وظف هؤلاء رؤوس أموالهم من اقتناء الدور التي كانوا يكرونها بالاضافة إلى الحمامات التي كانت آنئذ مصدرا هاما من مصادر الدخل.

في الريف دخلت اسرة الشرايبي إلى ميدان الالتزام على نطاق واسع خلال القرن الثامن عشر.

ويقوم نظام الالتزام على ان يتكفل من يدخل مزاداً علنيا ويرسو عليه المزاد بتحصيل الضرائب المقررة على اراضي قرية أو أكثر أو أقل عن مدة معينة وذلك بناء على اتفاق بين هذا المختص الذي يحمل لقب ملتزم وبين الحكومة.

وقد اقتصر الالتزام في بداية الأمر على فئة من الأمراء المماليك ورجال

العسكرية ومشايخ العرب، غير أنه في القرن الثامن عشر دخلته فئات اخرى من التجار والعلماء والنساء.

وكان التجار المغاربة من أبرز التجار الذين دخلوا ميدان الالتزام، وكانت اسرة الشرايبي من الاسر الرئيسية من التجار المغاربة التي حصلت على الالتزامات.

وقد سجلت وثائق المحكمة الشرعية وسجلات اسقاطات القرى الكثير من حالات اسقاط القرى إلى الحاج محمد الدادة الشرايبي، ثم أبنه الحاج قاسم من بعده، ولم تقتصر هذه الحالات على منطقة بعينها، وانما امتدت الى مناطق عديدة في جميع أرجاء البلاد.

وتشير نفس الوثائق إلى قيام الحاج قاسم الشرايبي بالوكالة في محكمة الباب العالي عن اشخاص آخرين في شراء الالتزامات باسمهم، وقد تم هذا على الارجح تهربا من عمليات مالية بحته.

أضف إلى ذلك كله قيام الرجل بالمضاربة في شراء الالتزامات المحلولة من المزاد العلني، ثم اسقاطها او تأجيرها لآخرين، وكانت هذه العملية تحقق له ربحا فوق رأسماله الذي يدفعه في المزاد.

وقد ادى دخول اسرة الشرايبي والتجار المغاربة وفئة التجار عموما إلى ميدان الالتزام إلى ظهور اشكال جديدة في هذا النظام قامت اساسا على أن أصبحت اراضي الالتزام في خدمة الاستثمار الرأسمالي، بعد ان كان من المفروض أن توظف رؤوس الاموال في خدمة تلك الاراضي.

والحديث عن رأس المال الذي تملكته اسرة الشرايبي يستلزم متابعة لما طرأ عليه من تطور ومحاولة لتفسير هذا التطور والمتابعة هنا تنصب على رأس المال السائل.

يشير الجبرتي إلى ان كبير الاسرة الدادة الشرايبي الذي كان قد ورث عن أبيه ٩٠ كيسا قد نجح في زيادتها إلى ١٤٨٠ كيسا (الكيس يساوى ٢٥ الف بارة) واستمر أبناؤه من بعده، محمد وقاسم وأحمد، في تنمية هذه الثروة.

والملاحظ أنه قد غلب على عهد كل هؤلاء الأبناء ظاهرة تركيز رأس المال في ايدي احدهم يقوم باستثماره وينفق من أرباحه على سائر أفراد الأسرة، مما يسجله الجبرتي فيقول: «وكان من سنتهم أنهم يجعلون عليهم كبيراً منهم

وتحت يده الكاتب والمستوفي، والجابي، فيجمع لديه جميع الايراد من الالتزام والعقار والجامكية ويسدد الميري، ويصرف لكل انسان راتبه على قدر حاله وقانون استحقاقه، وكذلك لوازم الكساوي للرجال والنساء في الشتاء والصيف، ومصروف الجيب في كل شهر، وعند تمام السنة يعمل الحساب ويجمع ما فضل عنده من مال ويقسمه على كل فرد بقدر استحقاقه وطبقته».

غير أنه بموت أحمد الشرايبي (حوالي ١١٦٧هـ - ١٧٥٣) انتهى هذا النظام، وسعى كل من ابناء الأسرة إلى الاستئثار بما يخصه من مال، مما كان بمثابة تفتيت لثروة الشرايبي واضعاف مقدرة الاسرة على استثمار رأسمالها.

يسجل الجبرتي هذه الحقيقة فيقول: «لما ما ت كبيرهم (احمد الشرايبي) وقع بينهم الاختلاف واقتسموا الايراد واختص كل فرد منهم بنصيبه، يفعل به ما يشتهي وتفرق الجمع وقلت البركة».

وكان هذا ايذانا بنهايتهم كقوة رأسمالية في البلاد، حتى أنه بوفاة آخرهم «ابراهيم بن محمد الغزالي بن محمد الدادة الشرايبي» عام ١٢٠٥ (١٧٩٠) انتهى ذكر الاسرة. ونعود إلى الجبرتي الذي يقرر هذه الحقيقة بقوله عن الرجل أنه كان «مسك ختامهم وبموته انقرض بقية نظامهم».

وقد حاولت اسرة الشرايبي طول الوقت الحفاظ على وجودها والتمسك بكيانها وعدم الذوبان في المجتمع المحيط مما جعلها مطبوعة بمغربيتها طول الوقت إلى ان اصابها ما اصابها من اسباب التدهور الاقتصادي والذي ادى الى عدم الاستمرار في التمسك بهذا الطابع.

يوضح هذه الشهادة التي ادلى بها مؤرخنا المصري العتيد مرة اخرى وهو يتابع تاريخ الاسرة ... جاء في هذه الشهادة:

«وجميعهم مالكيو المذهب على طريقة اسلافهم.. ومن أوضاعهم وطرائقهم أنهم لا يتزوجون الا من بعضهم البعض ولا تخرج من بيتهم امرأة الا للمقبرة فاذا عملوا عرسا اولموا الولائم وأطعموا الفقراء والقراء على نسق اعتادوه وتنزل العروس من حريم ابيها إلى مكان زوجها بالنساء الخلص.. الخ».

يبقى اخيراً، وقبل ان نختم الحديث عن اسرة الشرايبي ان نشير إلى تلك المحمدة التي اتصف بها ابناء الاسرة جيلا بعد آخر مما تمثل من رعايتهم

للعلم ولطلابه .

فمن ناحية كانت دارهم الكبيرة القائمة بالازبكية مقصدا لطلاب العلم حيث كانت «مجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة ولا يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها في مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها بأعلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخورنقات وفي مجالسهم جميعا ، فكل من دخل إلى بيتهم من اهل العلم الى أي مكان يقصد الاعارة والمراجعة وجد بغيته ومطلوبه في اي علم كان من العلوم ، ولو لم يكن الطالب معروفاً ، ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فان رده في مكانه رده وان لم يرده واختص به أو باعه لا يسأل عنه وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مرارا ويعتذرون عن الجاني بضرورة الاحتياج».

ومن ناحية أخرى فقد بذل رجال الاسرة من مالهم الكثير لانفاقه على دور العلم فمثلا كان آخرهم ابراهيم الغزالي الشرايبي يتفقد طلبة العلم الفقراء ويعينهم ويشتري المصاحف والالواح ويفرقها على مكاتب اطفال المسلمين الفقراء معونة لهم على حفظ القرآن الكريم .

ومن ناحية ثالثة أخيرة فقد كان لعدد من ابناء هذه الاسرة اهتماماتهم العلمية حيث كانوا يعقدون الندوات التي يقصدها العلماء في دارهم ، أو كما قال الجبرتي : «يتردد إلى منزلهم العلماء والفضلاء» أضف إلى ذلك حرص بعضهم على حضور دروس عدد من العلماء المشهورين مثل حضور ابراهيم الغزالي الشرايبي لدروس الشيخ محمد العقاد المالكي .

وتستحق ظاهرة الاهتمامات العلمية في شتى نواحيها من أسرة الشرايبي تفسيرا وفي تقديرنا يقوم هذا التفسير على جانبين :

الأول : انه كان من تقاليد المجتمعات العربية الاسلامية أن تخصص الاسرة القادرة فيها جانبا من ثروتها لانفاقه على المؤسسات العلمية وعلى غير القادرين من طلاب العلم ، سواء تم ذلك بوقف بعض املاكها أو بتقديم الهبات بشكل منتظم او متقطع ، ولم تكن اسرة الشرايبي لتختلف في هذا الصدد عن سائر الأسر الاسلامية الموسرة التي وجدت في المجتمع المصري وقتئذ .

الثاني : ما كان للعلماء من مكانة متميزة في المجتمع المصري على العهد

العثماني، ذلك انه في ظل نظام حكم اسلامي مثل حكم العثمانيين كان من المطلوب دائما توفير الشرعية لرجال الحكومة، وكان العلماء هم القوة القادرة على منح هذه الشرعية.

وكان من الطبيعي أن يحتاج الرأسماليون، شأنهم في ذلك شأن الحكام، إلى غطاء الشرعية، الذي يبرر تصرفاتهم ويمنع عنهم غوائل تعدي رجال السلطة، وكان تقربهم إلى العلماء واصطناعهم لادوات منهم يوفر لهم مثل هذا الغطاء، خاصة اذا لاحظنا أن المعاملات المالية في تلك الحقبة كانت تتم باشراف من رجال الدين العاملين كقضاة في المحاكم الشرعية، كما أنها كانت تحدث من خلال أحكام الشريعة الاسلامية، اكثر من ذلك، فقد كان التطور الذي حدث خلال القرن الثامن عشر بدخول العلماء ميدان الالتزام، موجهاً لمزيد من تبادل المصلحة بينهم وبين الاسر الرأسمالية التي كثيراً ما كانت تقرضهم الأموال المطلوبة لدخولهم ميدان المزاد العلني الذي يحصلون فيه على التزاماتهم.

● ● ●

واذا كانت أسرة الشرايبي تمثل نموذجاً بارزا للعائلات المغربية التي مارست النشاط الاقتصادي المصري، فان ذلك لا يعني أنها كانت النموذج الوحيد.

فهناك مثلا ذلك التاجر المغربي (أحمد الحدق) الذي اشتهر ايضاً بتجارة البن، وتشير وثائق المحكمة الشرعية على أنه قد نجح بدوره في حيازة عدد كبير من الالتزامات.

وهناك ايضا «الخواجا المنظم والتاجر المكرم السيد أحمد بن عبدالسلام المغربي الفاسي»، ويكفي في هذا الصدد الاشارة إلى تعاظم ثروته، مثلما حدث لأسرة الشرايبي، وان كان قد فاقها في أنه قد ولي منصب شاه بندر التجار في مصر، وهو منصب كان التجار يختارون صاحبه من أكبرهم اذ كان يمثلهم أمام السلطات.

الموضوع الخامس

الوقفة المشتركة

بامتداد الفترة بين عامي ١٧٩٨ (الحملة الفرنسية على مصر)، و١٩٢٠ (قرارات الانتداب على سوريا ولبنان وفلسطين والعراق)، تعرض الوطن العربي للهجمة الاستعمارية، التي ظلت تتصاعد حتى انتهت بأن أصبحت جميع اقطاره خاضعة بدرجة أو باخرى، للقوى الامبريالية الأوربية بريطانية كانت، أو فرنسية، أو ايطالية.

ولما كانت هذه الهجمة قد حدثت على فترات طوال القرن التاسع عشر، فقد كان من المتوقع ان تسبب ردود فعل عربية هنا وهناك، وقد تراوحت ردود الفعل تلك بين كتابات المعاصرين، وبين المشاركة الفعلية في الرد على الزحف الاستعماري، بما يمكن ان يرقى إلى حد الوقفة المشتركة.

ونحن هنا نتجاوز كتّاب الحوليات خاصة من أهل اليمن والشام، الذين امتلأت كتاباتهم بالادعية والتمنيات، بأن يأذن الله بزوال دولة الكفرة الفرنسيس، الذين احتلوا مصر، ونركز على المواقف الجهادية أو السياسية التي اتخذها غيرهم.

ونعثر على هذه المواقف في ثلاث مناسبات:

أولاها: وقفة مغربية ـ حجازية من الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١).

ثانيتها: وقفة مشرقية من الغزو الايطالي لطرابلس (١٩١١ ـ ١٩١٢).

ثالثتها: وقفة مصرية من الهجمة الفرنسية على المغرب (١٩٠٤ - ١٩١٢).

● ● ●

فقد خلف وقوع القاهرة في ايدي «الفرنسيس» اصداء واسعة في العالم الاسلامي، وكان من الطبيعي أن تكون أقوى هذه الاصداء في الحجاز ولأكثر من سبب:

فمن ناحية كانت هناك علاقة خاصة بين مصر والحجاز، ناتجة عن الاعتماد الكبير لأهل الحجاز، وبالذات سكان الحرمين الشريفين، على ما يجيئهم من مصر من معونة سنوية، في «قافلة الحج المصرية»، التي كانت تخرج من القاهرة كل عام، في احتفال كبير، كان من أهم المناسبات التي يعنى بها المصريون.

وقد تصور الحجازيون، وهم محقون في هذا التصور، أن وقوع مصر في قبضة «الكفار» سوف يمنع قافلة الحج المصرية من القدوم بكل ما يعنيه ذلك من دلالات دينية واقتصادية.

من ناحية ثانية، فقد ضمت بلاد الحجاز، نتيجة لوضعيتها الدينية الخاصة، اطرافاً اسلامية متعددة، ويمكن القول ان «المجاورين المغاربة» كانوا أكثر هذه الاطراف تشددا في الدعوة للدفاع عن ديار الاسلام.

بدا ذلك في ان اقوى رد فعل للحملة الفرنسية على مصر، كان بين اوساط هؤلاء المغاربة المجاورين في الحجاز.

يتضح حجم هذا الرد فعل مما جاء في روايات الجبرتي الذي يقول: «تواترت الاخبار ابتداء من شهر رجب (١٢١٣) بأن رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلاني كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس الى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية وانزعج أهل الحجاز، أخذ يدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفاً في معنى ذلك، فانقاد جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم».

تبع عملية الاستنفار، أن اجتمع علي الكيلاني، أو المجاهد المغربي كما اسماه الجبرتي وتبعا لروايته «نحو ستمائة من المجاهدين مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه».

وعبر المغاربة والحجازيون البحر الاحمر، ونزلوا إلى صعيد مصر، ليبدأوا جهادهم مع اخوانهم المصريين، ضد طلائع الهجمة الاستعمارية الاوربية، ونعود مرة أخرى إلى رواية الجبرتي، يقول:

«ركب الغز معهم وحاربوا مع المماليك، فلم تثبت الغز كعادتهم، وانهزموا وتبعهم هواره الصعيد، والمتجمعة من القرى، وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقلتهم وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك إلى ناحية اسنا، وصحبتهم

حسن بك الجداوي، وعثمان بك حسن تابعه، ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع وينفصل الفريقان بدون طائل».

وتتوارد الملاحظات حول هذا النص الذي ساقه المؤرخ المصري:

الملاحظة الاولى: أن المجاهدين تحت قيادة الكيلاني كانوا اثبت في ميدان القتال ضد الفرنسيين من سواهم، وكان الحكام القدامى من الغز (الأتراك) والمماليك، أول المنهزمين، ثم تبعهم رجال القبائل من الهوارة، وكانت أشد القبائل تحكما في أهالي الصعيد حتى ان رئيسهم الشيخ همام (الذي لم يضرب سيطرته على الصعيد سوى علي بك الكبير المملوك الذي حكم مصر بين عامي (١٧٦٩ و١٧٧٣) كان يسيطر على أغلب الصعيد لسنوات قليلة قبل قدوم الفرنسيين. تلاهم ابناء البلاد أو من أسماهم الجبرتي: «المتجمعة من القرى» وأخيراً انكف أتباع الكيلاني «لقلتهم» لا لنكوصهم كما كان الحال بالنسبة للعناصر الاخرى.

الملاحظة الثانية: تتصل باستمرارية جماعة الكيلاني التي عبر عنها الجبرتي «بحروب غير هذه المرة بعدة مواضع»، صحيح أنها كانت تنتهي «بدون طائل» على حد تعبير المؤرخ المصري، أي بدون حسم، وكان مفروضا أن يكون هذا الحسم إلى جانب الجيش النظامي، لا إلى جانب مجموعة المجاهدين.

باختصار يمكن القول من خلال استنطاق هذا النص ان الكيلاني وجماعته كانوا يحاربون القوات الفرنسية شكلا من حرب العصابات لم تتمكن هذه القوات من حسمها لصالحها وكانت مصدراً من مصادر استنزافها.

والواضح ان هذه الحرب قد اقلقت القيادة الفرنسية قلقا شديداً حتى انه لما قرر بونابرت العودة من جملة الشام في يوليو ١٧٩٩ كان سببا من الاسباب الخمسة عشر التي ساقها لعودته ما بلغه من «توجه أهل الحجاز صحبة الكيلاني.»

وقد ظل المجاهد المغربي ومجموعته يشكلان شوكة في جنب الوجود الفرنسي في مصر إلى ان توفي الرجل (ذي القعدة ١٢١٣) فانضمت مجموعته إلى مجاهد مغربي آخر اسمته المناشير الفرنسية المغربي محمد، الذي صار له

جيش كبير وادعى انه من سلاطين المغرب، ولهذا الرجل قصة غاية في الاهمية في تاريخ الكفاح المصري ضد الوجود الفرنسي، وهي قصة تستحق ان تروى.

● ● ●

(المرة الأولى) التي اشارت فيها المصادر إلى هذا الرجل كانت ضمن ما واجهه الفرنسيون من مقاومة في «جهة البحيرة».

واقليم البحيرة يقع غربي الدلتا متاخما للاسكندرية من جهة الجنوب، ولنا أن نلاحظ ان هذا الاقليم، بعد الاسكندرية يعتبز أول الأقاليم قربا لجهة الغرب، وبالتالي فان المغاربة في قدومهم إلى مصر ينزلون به أول ما ينزلون قبل اي اقليم آخر من أقاليم الدلتا وقبل القاهرة نفسها، ولنا أن نلاحظ أيضا انه نشأت في هذا الاقليم حركة مقاومة ساخنة ضد الوجود الفرنسي كان من الطبيعي أن يكون المغاربة احد عناصرها.

غير أن (المرة الثانية) والأهم كانت خلال ثورة القاهرة الثانية (مارس ـ ابريل ١٨٠٠) حيث قاد «المغربي محمد» فصيلة هامة من فصائل هذه الثورة.

وقبل التعرض لهذا الدور تنبغي الاشارة إلى أن العاصمة المصرية قد شهدت ثورتين ضد الاحتلال الفرنسي، أولاهما التي تفجرت في أكتوبر عام ١٧٩٩ وهي وان ظل اثرها باقيا في ضمير الشعب المصري لما جرى خلالها من اقتحام الفرنسيين للازهر، غير انها كانت محدودة على المسطح المكاني حيث كان انتشارها محصورا في أحياء قاهرية.

اختلف الأمر بالنسبة للثورة الثانية التي تفجرت في ظروف مغايرة، ذلك أنه كان قد تقرر في يناير ١٨٠٠، وبمقتضى اتفاقية فرنسية ـ عثمانية، انسحاب قوات الاحتلال الفرنسي من البلاد، وبدىء فعلا في تنفيذ الاتفاقية، ووصلت إلى القاهرة السلطة العثمانية التي كانت قد غادرتها من قبل، ومعها جموع من النازحين، وتهيأ الجميع لتوديع الوجود العسكري الفرنسي، حين تدخل الانجليز ورفضوا شروط الاتفاقية، وتأزم الموقف في العاصمة المصرية خاصة بعد الصدام بين القوات الفرنسية والعثمانية في إحدى ضواحي القاهرة، والذي انتهى بفوز الفرنسيين.

وفي هذه الظروف تفجرت ثورة القاهرة الثانية والتي احتلت مكانا في تاريخ المقاومة المصرية اكثر تميزاً من شقيقتها الكبرى ولأكثر من سبب:

١ ـ فقد تفجرت هذه الثورة وكان الفرنسيون (على رحيل)، لا (على قدوم) كما كان الحال بالنسبة للثورة السابقة، مما اعطاها قوة ضغط أكبر على أساس أن مزيدا من المقاومة قد يؤدي في نهاية الأمر إلى اتمام هذا الرحيل.

٢ ـ ثم انها تفجرت بعد أن كانت بعض العناصر الادارية والعسكرية العثمانية قد عادت إلى المدينة، أضف إلى ذلك جموعاً كبيرة من النازحين الذين تركوا القاهرة لدى احتلالها من جانب الفرنسيين، وكانت هذه العناصر ذات مكانة اجتماعية (مثل السيد أحمد المحروقي سشهبندر التجار)، أو مكانة دينية (مثل السيد عمر مكرم نقيب الاشراف)، مما وفر لها قيادة قادرة.

ومن ثم كان من المنطقى أن تستمر هذه الثورة وقتاً أطول وأن تتسع لتضم جهات أشمل.. ثم الأهم ما ترتب على كل ذلك من تعدد فصائلها، وكان «المغربي محمد» قائدا لفصيلة من أهم هذه الفصائل.

أما ممن تشكلت هذه الفصيلة فنعود في ذلك إلى الجبرتي الذي يقول أنه «التف على طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الكيلاني.»

ويتضح من هذا التشكيل أن جماعة المغربي محمد قد تميزت عن الجماعة التي قادها الكيلاني بميزتين: أولاهما: تعدد مصادر تشكيلها، فهي قد ضمت إلى جانب المغاربة أو غيرهم ممن أتوا صحبة الكيلاني من الحجاز «طائفة من المغاربة البلدية» وهي بذلك كانت أوسع قاعدة من الجماعة الحجازية.

الميزة الثانية والأهم أنها ضمت أعداداً من المغاربة المحليين أو المغاربة المقيمين في مصر الذين أسماهم الجبرتي «بالمغاربة البلدية» وتتضح قيمة هذه الميزة في أنه أصبح للرجل مخزون بشري ظل يستمد منه العناصر الثورية التي قامت بدور فريد في تاريخ ثورة مارس عام ١٨٠٠.

أما جوانب هذا الدور فهي متعددة نستخلصها من رواية الجبرتي ابتداء من تفجير احداثها وصولاً إلى آخر جذواتها.

ففي أول الأمر كادت الثورة ألا تحدث اصلا، ذلك أنه عندما بلغت عناصر

السلطة التي كانت قد دخلت القاهرة الأنباء بفشل الاتفاقية قرروا مغادرة القاهرة، أو كما قال الجبرتي: «لما عاين ذلك الجيش اجمع رأي الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد في تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة». غير أن هذه العناصر الثورية في القاهرة منعت هؤلاء من الخروج وعلى حد رواية المؤرخ المصري أنه لما «تسامع أهل خان الخليلي من الالداشات وبعض مغاربة الفحامين والغورية ذلك فجاءوا للجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وعضدهم طائفة عساكر البنكجرية، وعمدوا الى خيول الأمراء فحبسوها ببيت القاضي والوكائل، واغلقوا باب النصر».

وهكذا أبقى المغاربة والالداشات عناصر السلطة في القاهرة، معهم كبار التجار الذين ارادوا الخروج ايضا والذين لعبوا دورا هاما في تمويل الثورة فقد «باشر السيد احمد المحروقي وباقي التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمشارب، كذلك جميع أهل مصر، كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه واعان بعضهم بعضاً».

وبالامكان من خلال رواية المصدر المعاصر لأحداث الثورة القول بأن «المغربي محمد» وأتباعه كانوا يشكلون الجناح الراديكالي للثورة.

في أول الأمر استلفت النظر باعمال العنف ضد الفرنسيين، والتي سجلها المصدر المذكور بقوله «فعل ذلك الرجل المغربي أمورا ... فكان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيين والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويحبسون النساء ويسلبون ما عليهم من الحلي والثياب».

بعد ذلك، وعندما اشتد ضرب المدفعية الفرنسية للمدينة، فكر بعض العلماء في التوسط لدى كليبر لكف الضرب «ووقف الفتنة» وبعد أن نجحت الوساطة وعاد العلماء إلى مراكز الثورة يناشدونهم التوقف كان «المغربي محمد» من أشد العناصر رفضا لهذا التوقف، ونعود مرة أخرى لرواية الجبرتي:

«فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم... وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العالم؛ ونادى من عند نفسه: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد، ومن تأخر عنه

ضرب عنقه».

وأخيراً وبعد أن تمكن الفرنسيون من ضرب اغلب مراكز الثورة، حتى أنهم دمروا ما يشرف على اربعمائة منزل في بولاق، أكثر أحياء القاهرة اشتعالاً دعا «المغربي محمد» إلى استمرار الثورة.

يقول الجبرتي: «... وركب المغربي فتوجه الى أهل الحسينية وطلب محاربة الفرنسيين فحضر أهل الحسينية إلى عثمان كتخدا يستأذنونه في موافقة ذلك المغربي أو منعه، فأمر بمنعه وكفهم عن القتال.»

وتأكد من كل هذا أن توصيف جناح المغربي في ثورة القاهرة الثانية بالراديكالية توصيف غير بعيد عن الصواب.

ويزداد هذا التأكد من خلال موقف المحافظين المصريين من الرجل، ويمثل هؤلاء أصدق تمثيل الشيخ عبدالرحمن الجبرتي.. عالم الدين المحافظ بحكم انتمائه، وأحد الملاك الخائفين على ممتلكاتهم، أضف إلى كل ذلك أنه كان بتكوينه أحد المؤمنين بفكرة «التقيه» تجاه الغازي الفرنسي.

يدين الجبرتي اسلوب العنف الذي استخدمه الجناح الراديكالي فيقول «فعل ذلك الرجل المغربي امورا تنكر عليه لأن غالب ماوقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه».

ثم أنه لانتمائه لشريحة الأعيان من أصحاب الأملاك يستهجن أفعال المغربي التي تعرض ثروته للتلف واملاكه للدمار فيقول «ان غرضه هو في دوام الفتنة فان بها يتوصل لما يريد من النهب والسلب والتصور بصورة الامارة باجتماع الأوغاد عليه وتكفل الناس له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم اليه.. ثم هو ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو غير ذلك بل كما قيل: لاناقتي فيها ولا جملي. فاذا قدر ما قدر تخلص مع حزبه إلى بعض الجهات والتحق بالريف او غيره، وحينئذ يكون كآحاد الناس ويرجع لحالته الأولى وبطل الهيئة الاجتماعية التي جعلها لجلب الدنيا، وبالجملة فكان هذا الرجل سبباً في تهدم أغلب المنازل بالأزبكية، ومن جملة ما رميت به مصر من البلاء».

وأخيراً يعرب ممثل المحافظين المصريين عن دهشته من عدم انصياع «المغربي» لولاة الأمور فيقول: «وكان ممن ينادي به عليه حين أشيع امر

الصلح وتكلم به الأشياخ: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر ضرب عنقه، وهذا منه افتيات، وفضول ودخول فيما لا يعنيه حيث كان في البلد مثل الباشا والكتخدا والأمراء المصرية، فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحاً أو يبرمه وأي شيء يكون هو حتى ينادي أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه احد لذلك.»

والواقع أن الجبرتي بمثل هذا الموقف لم يكن مؤهلاً لاستيعاب دور الجناح الراديكالي في الثورة، ابتداء من رفض القتل، وانثناء للخوف على الممتلكات، وانتهاء بوجوب طاعة أولي الأمر.

على أي الأحوال، بانتهاء الثورة تفرقت فصائلها بما فيها الفصيلة المغربية، ولم تشر المصادر المعاصرة مرة أخرى الى اي دور «للمغربي محمد».

● ● ●

جرى الاحتلال الايطالي لليبيا (١٩١١ ـ ١٩١٢) في ظل ظروف تؤدي الى ردود فعل قوية في المشرق العربي.

فمن ناحية مصر، والتي كانت اقرب الاقطار إلى ليبيا، كانت الحركة الوطنية التي عرفتها منذ مطلع القرن ضد الاحتلال البريطاني، وكان شقان اساسيان من تلك الحركة توجب عليهما مواقفهما ضرورة مواجهة الغزو الايطالية للقطر الشقيق.

يتمثل الشق الأول في الحزب الوطني الذي اسسه مصطفى كامل، صحيح أن هذا الزعيم كان قد توفي قبل ذلك بثلاث سنوات غير ان خلفاءه وعلى رأسهم محمد فريد لم يكونوا أقل وفاء لمبادئه.

وكان من أهم تلك المبادىء الدفاع عن الدولة العثمانية والايمان بفكرة الجامعة الاسلامية، ولما كانت ليبيا من الاقطار التي كانت تحكمها استنبول حتى هذا الوقت حكما مباشراً، فقد جاء رد الفعل عنيفاً من جانب صحف هذا الحزب خاصة صحيفة العلم الناطقة بلسانه، في ذلك الوقت، بالاضافة إلى صحيفته بالاسكندرية «وادي النيل».

أضف إلى ذلك ان قيادة الحزب الوطني كانت ترى في الهجمة الايطالية على ليبيا شبهة تواطؤ مع سلطات الاحتلال البريطاني في مصر وانها بالتالي مقدمة لتغيير وضع مصر وسلخها النهائي عن الدولة العثمانية، بكل ما يعنيه

ذلك من تكريس الوجود الاستعماري الانجليزي في البلاد، وهو ما تأكد لها بعد أن تواردت الاخبار من لندن عن اتجاه النية إلى ضم مصر بشكل نهائي لممتلكات التاج.

اما الشق الثاني فقد تمثل في جماعة السلفيين وعلى راسهم الشيخ رشيد رضا والذين كانوا على صلة قوية بجماعة السنوسيين التي تولت دور المقاومة الوطنية في مواجهة الهجمة الايطالية جنبا إلى جنب مع المقاومة العثمانية الرسمية.

وقد أدى هذا الشعور العام، الى ردود فعل تجاه الهجمة الايطالية على ليبيا، تمثلت فيما يأتي:

١ ـ نشاط حزبي واسع تولاه اساساً الحزب الوطني برئاسة محمد فريد، وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ذو الاتجاه الاسلامي برئاسة الشيخ على يوسف، وعقدت تلك الاحزاب اجتماعاتها وتوالت احتجاجاتها على العدوان الايطالي.

٢ ـ حملة صحفية مستمرة قادتها صحف تلك الأحزاب مثل اللواء والعلم والمؤيد، كذا صحيفة الحزب الوطني في الاسكندرية، والتي اشتهرت عموماً باعتدالها، غير أنها تخلت في هذه المناسبة عن ذلك الاعتدال، يضاف إلى كل ذلك الموقف المتحمس للمنار والمقالات التي ظل يبثها الشيخ رشيد رضا.

٣ ـ حملة تطوع واسعة دعت اليها تلك القوى السياسية، وقد لقيت هذه الحملة صدى واسعاً، خاصة بين صفوف الضباط والجنود السابقين في الجيش المصري، وزادها حماسا أن من قاد المتطوعين هو «عزيز المصري» الضابط المرموق في الجيش التركي، وقد انضم ايضا إلى صفوف المتطوعين اعداد من قبائل البدو (أولاد علي)، القاطنة في الصحراء الغربية.

وقد أزعج اتساع هذه الحركة سلطات الاحتلال البريطانية مما دعا المعتمد البريطاني في البلاد آنذاك إلى ممارسة شتى الضغوط لتحجيم هذه الشركة، وقد نجح اللورد كتشنر في ذلك.

٤ ـ تكوين جمعية طبية لتقديم المساعدات اللازمة للوطنيين في ليبيا، وهي الجمعية التي اكتسبت شهرة كبيرة بعد ذلك والتي عرفت باسم «الهلال الأحمر المصري»

غير أن ما جرى من تسليم تركيا لشئون ليبيا إلى ايطاليا بمقتضى معاهدة لوزان عام ١٩١٢، قد انهى كل الجهود التي بذلت لمقاومة الوجود الايطالي خاصة وأن الانجليز كانوا قد نجحوا في توجيه ضربات شديدة للحركة الوطنية المصرية نفسها.

●●●

أما المغرب، فقد كان لوضعه المتميز، ليس فقط بحكم أنه كان آخر الاقطار العربية المغربية وقوعا تحت الهيمنة الاستعمارية، بل لأكثر من سبب آخر.

فمن ناحية كان المغرب طرفا في صفقة استعمارية بريطانية ـ فرنسية، وكان الطرف الآخر قطر عربي مشرقي هو مصر، وذلك فيما عرف باسم الوفاق الودي المعقود في ابريل عام ١٩٠٤.

ومن ناحية ثانية، نتج عن الصراع الدولي حول السيادة على المغرب، أن استغرقت عملية السيطرة عليه فترة طويلة بلغت السنوات الثماني حفلت بالمؤتمرات والأزمات مما سمح للقوى السياسية في المشرق، وفي مصر على وجه الخصوص أن تتنبه إلى ما يحيق بالقطر المغربي الشقيق، وتتخذ بالتالي موقفا منه مما يمكن تبينه بسهولة من متابعة مواقف تلك القوى من الهجمة الاستعمارية على المغرب بين عامي ١٩٠٤ و١٩١٢.

كانت الاخبار الاولى قد جاءت الى القاهرة منذ أوائل عام ١٩٠٤، عن احتمالات عقد اتفاق انجليزي ـ فرنسي لتقسيم مناطق النفوذ في مصر والمغرب، وكانت بمثابة صدمة قوية للشارع السياسي المصري.

فهذه الصدمة قد اكدت من ناحية للعاملين في الحقل الوطني بمختلف شرائحهم الوطنية الاسلامية والسلفية، ان مصير الشعوب العربية واحد، أمام الهجمة الاستعمارية كما انها من ناحية اخرى، قد لفتت انظار مختلف اصحاب هذه الاتجاهات للمغرب بالذات، حيث وضعها الاتفاق مع مصر في سلة واحدة أو في صفقة واحدة.

كان أول من تنبه للموقف الجديد أصحاب الجامعة الاسلامية الذين عبرت عنهم صحيفة المؤيد التي ظهر فيها أول مقال في الحملة تحت عنوان «مراكش بين اسباينا وفرنسا» تبعتها مقالات أخرى عن «فرنسا ومراكش» و«الحالة

في المغرب الاقصى» و«الاتفاق الفرنساوي ـ الانكليزي».

والواضح ان الشيخ «علي يوسف» والملتفين حوله من المتعاطفين مع فكرة الجامعة الاسلامية قد عنوا اساسا بما تتعرض له دولة اسلامية من أطماع اروبية، مما يتضح في مختلف المقالات التي نشرتها المؤيد في هذه المناسبة، جاء في احدى هذه المقالات:

«لا نجد مندوحة من الاعتراف بأن الكاتب وهو يخط ما سطره الآن يشعر بألم وأسف شديدين على بلاد اسلامية عربية قد قضى عليها الجهل وسوء التدبير أن تكون موضع منافسة دول أجنبية.»

وبنفس المنطق يرى اصحاب الجامعة الاسلامية في مصر أن شعباً اسلاميا مثل الشعب المغربي لن يؤخذ بسهولة وتقول أن فرنسا «لا تجهل ما كابدته مع الجزائريين من خسائر وما فقدته من رجال وأموال كما هو معلوم مشهور وترتب على هذا المنطق تحذيرات اطلقوها:

١ ـ فهم يرون ان فرنسا تريد «أن تسلك مسلك الانكليز في الاستعمار وتبسط نفوذها بالمسائل المالية والوسائل الاقتصادية وتذر الرماد في عيون أوربا بكلمات كخدمة المتاجر الأوربية ونشر المدنية العصرية وتوطيد السلام والتعصب الاسلامي وهلم جرا...»

٢ ـ ويضعون يدهم على مناسبة تجعلهم يطلقون صيحات التحذير عالية أكثر، وكانت المناسبة ما وصل من أخبار عن ضغوط تمارسها الحكومة الفرنسية لاجبار المغرب على الاقتراض من بنك باريس بدلا من الشركة الحرة، ويرون أن وراء ذلك سعي فرنسا «لوضع اول حجر في دعامة نفوذها» وبمثل هذه الوسائل تنال اوربا اغراضها في البلاد الشرقية واذا لم يكن هذا هو المقصد الحقيقي والغاية من وراء هذه السياسة فأي غرض لفرنسا يحملها على تعضيد بنك باريس تعضيداً رسمياً في حين أن الشركة الأخرى الفرنساوية ولها معاملات كثيرة وتجارات واسعة في مراكش، وهي التي عقدت القرض الأول مع السلطان هناك»

نفس الاهتمام اولته «الصحف الوطنية» على رأسها صحيفة اللواء التي كان يملكها ويرأس تحريرها الزعيم المصري المشهور «مصطفى كامل» نفس الاهتمام أولته هذه الصحف للمسألة المغربية في نفس المناسبة.

غير أننا نلاحظ اختلاف المنطلق لأصحاب التيار الوطني عن المنطلق الذي تحرك منه اصحاب التيار الاسلامي . ذلك أن مصطفى كامل قد قاد بالأساس الحملة ضد «المسؤولين المغاربة» والسلطان عبدالعزيز بالذات باعتباره مسئولا عما تتعرض له بلاده من الأطماع الفرنسية .

ولا يمكن فهم دوافع موقف الزعيم الوطني المصري الا على ضوء علاقته السياسية بالخديو عباس حلمي ، الذي كان يحكم مصر آنئذ ، فبالرغم من ان عباسا كان وراء التيار الوطني في أول الأمر يغذيه ويشجعه بل ويموله ، غير ان عام ١٩٠٤ شهد انقلابا في العلاقة بين الطرفين أدت بمصطفى كامل إلى النظر للخديو على اعتبار انه احدى الأدوات التي تمكن من الوجود البريطاني في البلاد ، وقد أثرت هذه النظرة في معالجته للقضية المغربية .

فاللواء صحيفة الحزب الوطني تعلق على ماجاء في جريدة «الاكلير» الباريسية تحت عنوان «الحالة في مراكش والواجب على فرنسا تلقاء ما يجري الآن» فنتساءل «هل لساسة مراكش وقادة أمورها أن يطلعوا على أمثال هذه المقالة ليعلموا أن بلادهم في خطر كبير وأنه اذا أمكن انقاذها اليوم قد لا يمكن ذلك في مستقبل الايام وأن الساعة الحاضرة غالية في ساعات الدهر لا يصح صرفها في الباطل وترك البلاد مسوقة الى هاوية الخطر العظيم».

وفي اواخر شهر مارس عام ١٩٠٤ يشن مصطفى كامل حملة عنيفة على السلطان عبدالعزيز وحكومته ، وكأنما كان في نفس الوقت يشن ذات الحملة على الخديو عباس .

ينبه في مطلع هذه الحملة إلى خطورة الموقف في المغرب ، وإلى مطامع الدول في هذه المملكة الاسلامية وينتقد بحدة شديدة استدعاء السلطان لعدد من المطربين المصريين ويعبر عن سخريته من أن مولاي عبدالعزيز «لم يجد في حضارة المسلمين وتقدمهم ما ينفع بلاده الا (المطربين) وأنه يلهو ويلعب مسرورا منعم البال بحسبه ملك الدنيا ، والعاملون في خدمته ، والاساطيل طوع اشارته ، والجيوش الجرارة في قبضته ، والممالك تخشاه ، والأمم تخافه ، والدهر خاضع بين يديه يقول له افعل ما شئت ، فانك آمن».

وبعد هذه السخرية يقدم زعيم الحزب الوطني مجموعة من المطالب :

١ ـ يطالب السلطان عبدالعزيز بالاقتداء باليابان «بدرس المشروعات

الحربية واساليب الاصلاح والارتقاء ورفع بلاده إلى المقام الذي حمل الدولة البريطانية على محالفتها وقد ابت من قبل محالفة دول اوربا».

٢ ـ يستنفر من اسماهم «برجال الهمة والاقدام والنصح والارشاد» بالتنبيه إلى الخطأ وتقويم الاعوجاج.

٣ ـ يذكر بأن المسلمين في هذا الزمان في حاجة للتذكير والارشاد «ولو اراد المسلم ان يبكي مصائب الاسلام لما كفاه أطول الأعمار للبكاء»!

● ● ●

تعود المسألة المغربية لتفرض نفسها عام ١٩٠٦ خلال مؤتمر الجزيرة الخضراء وفي اعقابه، ويتولى اثارة المسألة هذه المرة اصحاب التيار السلفي يتزعمهم الشيخ محمد رشيد رضا.

وأول ما نلاحظه في الحملة التي قادها السلفيون نظرتهم لما يجري في المغرب، على انه نتيجة طبيعية للمارسة الخاطئة للاسلام.. يقول رشيد رضا:

«لقد أعدنا النذر والنصائح ولكن القوم في غمرة ساهون، ولا يتوبون ولاهم يذكرون وانما يعتمدون على أهل القبور في دفع الضرر أو تحويله عنهم، كما علمت من التجائهم إلى قبر سيدي ادريس عندما أرادت فرنسا الافتيات عليهم وجؤارهم عنده بكلمة «يالطيف» مئة الف مرة».

ويقول في موضع آخر:

«اذا ارجعت المسببات إلى اسبابها تبين لك أن الذي حال بين أهل مراكش وبين الانتفاع بما ذكرناهم وذكرهم به غيرنا هو الجمود على التقاليد والاتكال على أصحاب القبور، فهاتان العلتان هما المانعتان من فهم الحق، ومن كل تغيير يدعى اليه المقلد للآباء المفوض أموره إلى من أتخذهم اولياء».

ومن تشخيص العلة يستعرض زعيم التيار السلفي في مصر ظروف استدراج المغرب لعرض قضية الاصلاح فيه على مؤتمر أوربي وكيف اتفق اعضاء هذا المؤتمر «على وجوب انشاء مصرف لتلك المملكة وانشاء شرطة يدير أمرها ضباط أوربيون. أما المصرف فلابتلاع أموال الحكومة وأما الشرطة فلتأمين تجارة أوربا التي يبتلعون بها اموال الأهالي ويتمكنون بها من ادارة البلاد ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون».

أما الحل في رأي رشيد رضا فهو المبادرة «إلى اصلاح شأنها بالتربية

والتعليم اللذين تقتضيهما حالة العصر ولاسيما تعليم الفنون العسكرية والمدنية والاقتصادية ».

وتحدث الطامة الكبرى في نظر المصريين عند فرض الحماية الفرنسية على المغرب عام ١٩١٢ ويشن اصحاب الاتجاهات السياسية المصرية اشد حملاتهم على فرنسا هذه المرة.

بالنسبة لاصحاب تيار الجامعة الاسلامية فقد نظروا إلى الحادث من زاويتين: أولاهما: ضياع استقلال اقدم مملكة اسلامية مستقلة، وكما جاء في مقال تحت عنوان «أفول نجم دولة اسلامية» ما نصه:

«تم الأمر يوم السبت ٢٠ مارس ١٩١٢ وبهذا أفل نجم دولة اسلامية يرجع تاريخ دخول الاسلام فيها الى القرن الأول من الهجرة».

أما الزاوية الثانية فقد تمثلت فيما كانت تتعرض له اقسام اخرى من العالم الاسلامي من غزوة أوربية وبالذات ليبيا التي تعرضت في العام السابق للهجمة الايطالية التي استهدفت انتزاعها من أحضان الدولة العثمانية. ولما كانت ايطاليا لا تزال تلقى المقاومة من أهل طرابلس والمتطوعين المسلمين، فقد حذر أصحاب الجامعة الاسلامية فرنسا من خطوتها ونبهوا إلى الموقف الحرج الذي وضعت نفسها فيه.

فقد جاء في مقال تحت عنوان «مركز فرنسا الحرج في مراكش ـ المقدمات والنتائج» ما نصه:

« .. كان على الفرنساويين أن لا يتعجلوا في الامر وان يأخذوا لهم من دفاع أهل طرابلس عن بلادهم وهم اقل من المراكشيين مالا ورجالا وقوة درسا يعلمهم أن العرب لا يمكنهم أن يؤخذوا بالقوة والجبروت، وأنه مهما كانت قوة الدولة التي تحاربهم ومهما كانت نتائج القتال فإنهم لا يقبلون حكم الاجنبي عليهم بحال من الأحوال.

« .. ان فرنسا عرضت نفسها بوضع الحماية لتحمل أعباء مسؤولية هائلة وجلبت عليها أثقالا وهموماً ترزح تحت أثقالها عشرات السنين تهرق فيها دماء الكثيرين من ابنائها وتصرف فيها ملايين الجنيهات وتظل على الدوام شجى في حلقومها حتى يحكم الله بينها وبينهم وهو خير الحاكمين».

● ● ●

أما اصحاب التيار الوطني، فقد كانت حملتهم أعنف، صحيح أن مصطفى كامل كان قد لقي ربه قبل ذلك باربع سنوات (١٩٠٨) غير أن خليفته محمد فريد كان ذا عود صلب ومن أكثر الوطنيين تشددا.

وكانت حملة صحيفة «العلم» التي حلت محل «اللواء» كصحيفة ناطقة بلسان الحزب الوطني أشد حدة وأطول عمراً.

بدأت هذه الحملة في منتصف ابريل بتعليق على اتفاقية الحماية مؤكدة أنه «يجب ان تحسب للامة حساباً كبيراً.»

الجانب الثاني من الحملة وجهه الحزب الوطني المصري لنقد تصريحات أدلى بها السلطان لصحيفتين فرنسيتين اعترف فيها بأن الحماية الفرنسية سلبته كل سلطة، وتعلق قائلة:

«قرأنا الحديث فقلنا (على نفسها جنت براقش) وتأثرنا لضياع مملكة اسلامية غنية كبرى كانت تحوم حولها آمال جم غفير من المسلمين والشرقيين فلا حول ولا قوة إلا بالله».

ويتجه الجانب الثالث إلى سائر المسلمين تستنفرهم في مقالة تحت عنوان «المسلمون والفرنج قديما وفرنسا ومراكش حديثاً» وبعد استعراض تاريخي طويل يعلق المقال الافتتاحي في الصحيفة الوطنية بقوله:

«تلك عظات بالغات ولكننا معشر المسلمين لم نتعظ بها الآن وعمي عنها عظماء المسلمين وكبراؤهم طمعا في المحافظة على مراكزهم والقابهم».

أما آخر جوانب الحملة واهمها فهو الجانب الذي اتصل بمتابعة ألوان المقاومة المغربية لفرض الحماية الفرنسية، وقد هلل لها الحزب الوطني اشد التهليل.

جاء أول مقال في هذه الحملة يستعرض المقاومة المغربية لفرض الحماية ويقول: «لا يكفي لامتلاك الأمم امضاء الاتفاقات أو التصديق على أوامر الاستلحاق وانما يجب ان تملك القلوب وانا لا يمكننا أن نفهم كيف يقدر غاصب على امتلاك قلوب مغصوبة مهما بذل في هذا السبيل من الجهد ومهما اكثر من الوسائل ومهما طال على الاغتصاب من أمد».

ومنذ أواخر مايو حتى اواخر يونيه عام ١٩٠٦ والدوائر الوطنية تبدي تلهفها على اخبار المقاومة المغربية للسيطرة الفرنسية وترحب بها وتنذر فرنسا

بالويل والثبور وعظائم الأمور!

فتكتب «العلم» تحت عنوان «الأمة المراكشية تدافع عن استقلالها - حرج مركز فرنسا في فاس» تقدر عدد الثائرين في المدينة المغربية بعشرين الفا وتشير إلى معارك دامية «قتل فيها من الفرنسويين ما يزيد عن الستين وجرح نحو المائة».

وتستطرد الصحيفة الوطنية بان «سبب هذه الثورة القلوب الملأى بالحقد على الأجانب والحكومة المغربية التي ساعدتهم خصوصا حين سمعوا ان اخوانهم الطرابلسيين قرروا أن يدافعوا عن دينهم ووطنهم وحريتهم فاستبسلوا وأخذتهم الأنفة».

وتعرب دوائر الحزب الوطني عن املها بأنه «ستعقب هذه الثورات ثورات أهم وأعظم».

مقال آخر من نفس الصحيفة تستعرض فيه ماجاء في جريدة «الحق» التي كانت تصدر في طنجة، ويمتلىء بتشجيع الثورة ضد الفرنسيين.

أما المقال الثالث، فقد كان أشد المقالات اثارة، ويكفي تسجيل عنوانه لتوضيح مقدار ما به من اثارة، جاء في هذا العنوان «الأحوال في مراكش - الهجوم على فاس - رسالة مكتوبة على قصف المدافع - خوف القناصل - اعدام طلبة العلم».

وتنتهي هذه الحملة بتحذير العالم الاسلامي كله مما تنويه فرنسا في المغرب وتنبه إلى «قانون الظهير البربري» قبل صدور هذا القانون بثماني عشرة سنة... تقول صحيفة الحزب الوطني في مصر:

«يرى معظم الفرنسويين أن الواجب يقضي بتعليم البربر اللغة الفرنسوية بأن لا يسهلوا عليهم تعلم اللغة العربية لأنهم اذا تعلموها يزداد تعصبهم ولذلك أخذ بعض الفرنسيين يتعلمون لغة البربر ليتمكنوا بسهولة من تعليمهم اللغة الفرنسوية.

«ويريد بعضهم أن يجعل للغة البربر قواعد وترتيبات خصوصية تغنيهم فيما بعد عن اللغة العربية لغة التعصب الديني على زعمهم...»

● ● ●

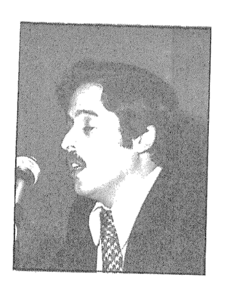
وعند هذا الحد تتوقف الحملة الوطنية التي امتلأت بها الصحف المصرية

كرد فعل لفرض الحماية الفرنسية على المغرب، بل تتوقف الصحف ذات الاتجاه الوطني عن الصدور نتيجة لسياسة المصادرات والاغلاق، التي اتبعتها السلطات البريطانية حيالها، في نفس الوقت يشرد زعماء الحزب الوطني، حتى ان رئيسه محمد فريد قد غادر البلاد في نفس السنة (١٩١٢)، ولم يعد اليها ابداً.

غير ان صيحة تحذير، أطلقتها الصحف المصرية حول المغرب، وهي صيحة التحذير من سياسة فرنسا البربرية، كانت عندما تحققت في قانون الظهير البربري عام ١٩٣٠ هي التي ادت إلى ظهور معركة المقاومة الحديثة، وتوجه العديد من ابناء المغرب إلى المشرق لرفع راية المقاومة، مما كان بمثابة مرحلة جديدة من مراحل العلاقات المشرقية ـ المغربية، تلك هي مرحلة القرن العشرين!

المحاضرة الثامنة

أبرز الأحداث والتطورات السياسية في الشرق الأوسط ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥



للأستاذ الدكتور / أسعد عبد الرحمن



الاستاذ الدكتور أسعد محمد أسعد عبدالرحمن

● من مواليد القدس في ١٩ / ١١ / ١٩٤٤.

● حصل على درجة البكالوريوس في الادارة العامة من الجامعة الامريكية في بيروت عام ١٩٦٥.

ـ درجة الماجستير في الادارة العامة من الجامعة الامريكية في بيروت ١٩٦٧.

ـ درجة الدكتوراه من جامعة كالجري في البيرتا ـ كندا ١٩٧٣.

● عمل كباحث مساعد بمركز الابحاث الفلسطينية في بيروت ٦٦ ـ ١٩٦٧.

ـ قسم الدراسات في مركز الابحاث الفلسطينية في بيروت ٦٨ ـ ١٩٧٠.

ـ معيد في جامعة كالجري في كندا ٧٠ ـ ١٩٧٣.

ـ مدرس بقسم العلوم السياسية في جامعة الكويت ٧٤ ـ ٧٥.

ـ مستشار لمركز الابحاث الفلسطينية في بيروت ٧٣ ـ ٧٤.

ـ المدير العام لمؤسسة عبدالحميد شومان بالاردن.

● أهم المؤلفات:

ـ المساعدات الاميركية والالمانية الغربية لاسرائيل ١٩٦٦.

ـ التسلل الاسرائيلي في اسيا ١٩٦٧.

ـ المنظمة الصهيونية العالمية ١٨٩٧ ـ ١٩٤٨ (١٩٦٨).

ـ اوراق سجين: عشرة شهور بالمعتقلات الاسرائيلية ١٩٦٩.

● أهم المؤتمرات والندوات التي شارك فيها.

ـ ندوة دورة الامم المتحدة والمنظمة الدولية في خطط السلام العالمي فيينا ١٩٧٤.

ـ مؤتمر قضايا تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي ـ الكويت ١٩٧٥.

ـ المؤتمر الفكري حول الصهيونية ـ بغداد ١٩٧٦.

ابرز الاحداث والتطورات السياسية
في الشرق الاوسط
١٩٧٥ ـ ١٩٨٥

اخترت هذا اليوم أن نستذكر سوياً، على شكل حديث سريع أرجو أن لا يطول أبرز المعالم والتطورات التي شهدتها المنطقة الشرق أوسطية في السنوات العشر الماضية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٥) ونحن لن نطيل في هذا الحديث لأن من الأفضل في مثل هذه المحاضرات ترك مجال واسع للنقاش المأمول الذي سيعقب حديثي اليكم. وكي ابدأ، ارجو الاشارة إلى أننا في الحديث عن الحقبة الاخيرة من الصراع الاقليمي والدولي في الشرق الاوسط، لن نحصر انفسنا تماما بسنوات هذه الحقبة. ذلك انه لا انقطاع عن الماضي باعتبار ان الماضي هو والد الحاضر، تماما مثلما ان الحاضر هو اب للمستقبل.

كان العام ١٩٦٧، عبر حرب حزيران/يونيو، عام كارثة سياسية وهزيمة عسكرية كبرى للعرب. وكان العام ١٩٧٧، نتيجة زيارة الرئيس السادات لاسرائيل، عام كارثة سياسية وعسكرية، ربما أكبر، للأمة العربية. واذا كانت الهجمة الامريكية التي قادها الرئيس ليندون جونسون ضد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ومجمل قوى حركة التحرر العربية في العام ١٩٦٥ هي المدخل لهزيمة ١٩٦٧، فان الهجمة الاميركية التالية التي قادها هنري كيسنجر في اواخر عهد الرئيس ريتشارد نيكسون، وبالذات في عهد الرئيس جيرالد فورد في العام ١٩٧٥، كانت هي المدخل لهزيمة ١٩٧٧. وفي هذا الصدد نجد ان العام ١٩٧٥ هو ـ حقيقة ـ عام متميز باحداثه ووقائعه:

فعلى الصعيد الفلسطيني الأضيق، توسط ذلك العام السنتين (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦) اللتين شهدتا مجموعة من التطورات في غاية الأهمية منها: نجاح منظمة التحرير في العبور من فوق وتحت مختلف الكيانات الرسمية العربية

لكي تنال اجماعا رسميا عربيا على كونها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وقد تلا ذلك مباشرة العبور إلى الأمم المتحدة على الصعيد الدولي. ثم وفي العام ١٩٧٦، جرى تثبيت منظمة التحرير فلسطينيا، من خلال اول انتخابات شرعية في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين، على أساس اعتبار المنظمة فعلا ورسميا الممثل الحقيقي للشعب الفلسطيني. وبذلك وضعت المنظمة نفسها ، مع العام ١٩٧٥ وما تلاه، على الخريطة السياسية الفلسطينية، تماما مثلما وضعت نفسها بشكل جذري وراسخ على الخريطة الرسمية العربية والخريطة الدولية وطبعاً ـ قبل هذا وذاك ـ على الخريطة الجماهيرية العربية.

وعلى الصعيد **العربي** الواسع، شكل العام ١٩٧٥ نقطة انعطاف كانت ـ في تقديري ـ بغاية الأهمية. ففي آذار/ مارس، تم اغتيال الملك فيصل بن عبدالعزيز عاهل السعودية، الذي كان، كما تعلمون، «دينامو» ما اصطلح على تسميته ـ بتعبير محمد حسنين هيكل ـ «الحقبة السعودية». وقد بدأت هذه الحقبة عمليا بعد كارثة ١٩٦٧، وانتهت فعليا بكارثة ١٩٧٧. هذا مع العلم أنه اثناء الحقبة السعودية كانت المملكة قد نجحت في قيادة السفينة الرسمية العربية بطاقة الثروة بدلا من قوة الثورة. ومع غياب الملك فيصل، ضعف دور السعودية وبرز من جديد دور مصر لكن بعد أن خلت الساحة للرئيس انور السادات الذي قاد مصر وتعامل مع العرب والعروبة بمفاهيم ومضامين مختلفة جذريا عن المرحلة الناصرية. وفي الشهر التالي لاغتيال الملك فيصل، بدأ كذلك المسلسل الدموي الذي عرف لاحقا ـ دون دقة في التعبير ـ بأسم الحرب الأهلية اللبنانية التي لم تنته بعد. أما التطور المهم الاخر على الصعيد العربي فقد وقع في غمرة الالتهاء بحرب لبنان (سواء بتأجيج أو بمحاولة اطفاء نيران تلك الحرب) وذلك عندما بدأ الرئيس السادات، في ظل غياب اي قوة فاعلة في الساحة الرسمية العربية، مسيرة الفترة النوعية المختلفة من حكمه (١٩٧٥ ـ ١٩٨١). وقوام هذه المرحلة مباشرة النظام الساداتي في رحلة «الافراط في الاعتدال» تجاه الولايات المتحدة واسرائيل، وبالتالي بدء رحلة الطلاق الحاسم مع العرب والعروبة والدول العربية عبر منهج واسلوب كياني مصري مريض وليس عبر منهج قطري بالمعنى الوطني والقومي

العربي، والاشارة هنا هي بالتحديد إلى اتفاقية سيناء الثانية التي جرى التوقيع عليها في العام ١٩٧٥ وكانت - في نتائجها - مجحفة في حق مصر أولاً، وفي حق الأمة العربية ثانياً.

وعلى الصعيد العالمي الأوسع، تمثل التطور الدولي الأبرز في انتهاء السياسة الاميركية الفاشلة والخاصة بفتنمة الحرب في جنوب شرق آسيا وبالذات عندما نجح الثوار الفيتناميون في السيطرة على «سايجون» عاصمة الجنوب وذلك في ابريل/نيسان من العام ١٩٧٥. ومنذئذ، نجد أن الولايات المتحدة - التي اختل ميزان القوى ضد مصلحتها في جنوب شرق آسيا - بدأت بتجميع قواها في محاولة منها للامساك بالتطورات المحلية والاقليمية في منطقة الشرق الاوسط لمصلحتها. وبذلك أوجدت الولايات المتحدة لنفسها متنفسا من مرارتها في جنوب شرق آسيا عبر هجمة جديدة في المنطقة الشرق أوسطية أو بما عرف في الغرب بمنطقة «قوس الأزمات» في الشرق الأوسط بشكل عريض، وتحديداً في الوطن العربي الذي يشكل قلب هذه المنطقة.

وكي نتابع التطورات المحددة في الأعوام التالية، نسجل كيف شهد العام ١٩٧٦ بداية تحول «الحرب الباردة» العربية إلى «حرب ساخنة» متخذة من الساحة اللبنانية ارضا لمعاركها المتعددة الاطراف والمتشابكة التحالفات لبنانيا وعربيا ودوليا. وفي هذه الصدد، لم ينجح لا «مؤتمر الرياض السداسي» ولا مؤتمر القمة العربي الثامن في القاهرة في تشرين الاول/اكتوبر من عام ١٩٧٦، في وقف رحلة «الافراط في الاعتدال» الساداتية وما واكبها من ابتعاد وهجر وطلاق ساداتي عن غالبية الدول العربية وبالتأكيد عن منظمة التحرير الفلسطينية التي وجدت نفسها ايضا في معمعان الحرب «الاهلية» اللبنانية.

غير أن العام ١٩٧٧ كان أهم الأعوام في هذه الفترة. فقد وقعت إبانه ثلاثة انقلابات سياسية حقيقية غيرت الخارطة السياسية ولا تزال: أولهما، انقلاب فلسطيني في آذار/مارس اثناء الدورة (١٣) للمجلس الوطني الفلسطيني، حيث بدأت عملية طرق ابواب التسوية بشكل واضح بل ربما تكون قد بدأت عملية شق الباب فعليا للدخول في دائرة التسوية السياسية عبر ما عرف باسم البرنامج المرحلي السياسي الفلسطيني. وكان هذا التطور نوعا من التحول من موقف فلسطيني متشدد إلى اتجاه معتدل كي لا نقول أكثر.

أما ثاني الانقلابات فكان على الصعيد الاسرائيلي وربما كان أكثر قوة ويحمل مغـزى اكبـر مـن الإنقلاب الفلسطينـي . ذلـك ان ممثلي «الحـركـة الصهيونية التصحيحية » التي كانت دوما اقلية ، نجحوا في الوصول إلى قمة السلطة السياسية في اسرائيل . والمفارقة هنا أنه بعد شهرين أو ثلاثة من الاعتدال الفلسطيني رسميا ، بدأت موجة التشدد والتعصب الاسرائيلي في الوصول إلى قمة السلطة والتربع على الهرم السياسي في الكيان الصهيوني . وقد تواكب هذا التطور مع زخم جديد لعملية الافراط الرسمي العربي في الاعتدال بقيادة السادات . وقد تجلى ذلك في رحلة هذا الاخير إلى الكيان الصهيوني في اعقاب وقوع الانقلاب السيـاسي الاسرائيلي الذي غيـر الخـريطـة السيـاسيـة الاسرائيلية عندما تولى السلطة في الكيان الصهيوني مناحيم بيغن وكتلته الليكود بكل ما عناه ذلك من تعصب وشوفينية صهيونية عدوانية وتعسفية اضافية .

كذلك فان جميع التحولات والتطورات الشرق الأوسطية تمت في ظل بنية دولية مختلفة سرعان ما تحولت إلى « انقلاب دولي » ففي ظل ادارة اميركية جديدة ، دشن الرئيس جيمي كارتر عهده بسياسة قوامها اللعب وفق لعبة التوازن ، وفي ذلك السياق ، اطلق الرئيس الاميركي الجديد مجموعة من التصريحات « الفلسطينية » المعتدلة وخاصة بمناسبة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في آذار/مارس/ ١٩٧٧ الذي كان منذئذ وحتى الوقت الراهن آخر مجلس وطني يعقد في القاهرة . وضمن لعبة التوازن هذه ، قام كارتر بجملة اتصالات مع الرؤساء العرب حيث قابل الملك حسين والرئيس السادات في نيسان/ابريل في واشنطن ، مثلما قابل الرئيس الاسد في ايار/مايو في جنيف ، ثم قابل كلا من الامير فهد في نهاية ايار/مايو ومناحم بيغين في تموز/يوليو في العاصمة الاميركية .

ثم في الاطار الدولي الأوسع حاول كارتر أن يلعب لعبة متوازنة فيها نوع ربما من الاعتراف بالواقع من جهة ، وفيها ايحاء بامكانية التحول الحقيقي في المواقف الاميركية تجاه الشرق الاوسط من جهة ثانية . وقد تجسدت هذه اللعبة في البيان السوفياتي/الأميريكي الشهير حول الشرق الاوسط في مطلع تشريـن الاول/اكتـوبـر مـن العـام ١٩٧٧ . لكـن نتيجـة التحـالـف

الاسرائيلي/الساداتي الذي تم برعاية اميركية وعبر وسطاء عرب، عاد كارتر فلحس توقيعه على البيان السوفيتي/الاميركي قبل ان يجف الحبر الذي صيغ به ذلك الاتفاق. وكان ذلك التطور نوعا من «الانقلاب» وبداية النهاية لمرحلة كاملة من الانفراج الدولي، وبداية لمرحلة جديدة من التوتر في العلاقات الدولية بين المعسكرين الدوليين.

وكما هو متوقع، ونتيجة تداخل ما هو محلي مع ما هو اقليمي ودولي، تواكبت هذه التطورات الدولية مع حالة من الفرز والاستقطاب والتمحور «المحلي» على الصعيد الفلسطيني/الاسرائيلي. فقد بدأ تنفيذ المخطط البيغيني/ألشاروني مع نهاية العام ١٩٧٧ حيث انتشرت المستوطنات الصهيونية كما السرطان في المناطق الفلسطينية والعربية المحتلة. ايضا، اندلعت نيران الحرب الاسرائيلية شبه المستمرة (آذار/مارس ١٩٧٨ - وتموز/يوليو ١٩٨١) ضد القوى الفدائية الفلسطينية في الجنوب اللبناني وضد القوى الوطنية اللبنانية. كذلك، فانه في العام ١٩٨٠ جرى اعلان القدس رسمياً «العاصمة الأبدية لاسرائيل» بالمعنى «القانوني» للضم. وبالمقابل، قوبلت تلك التطورات بمزيد من الوحدة الوطنية الفلسطينية وبالذات في مؤتمري المجلس الوطني الفلسطيني ١٩٧٧ المنعقد بالقاهرة، والمجلس الوطني للعام ١٩٧٩ المنعقد في دمشق. وبدأت كذلك مجموعة من الانتفاضات الفلسطينية في الداخل سواء عندما حاولت سلطات الاحتلال في العام ١٩٨٠ طرد المناضل بسام الشكعة رئيس البلدية المنتخب في نابلس، أو عندما حاولت اسرائيل «غير الرسمية» - ضمن موجة التطرف والعنف التي سادت على ايدي المستوطنين الصهيونيين المسلحين في المناطق المحتلة - اغتيال رؤساء البلدية الثلاثة (ابراهيم الطويل - كريم خلف - وبسام الشكعة).

وعلى الصعيد العربي والدولي، وكي اختصر، وقعت في الاعوام (١٩٧٨ - ١٩٨٠) مجموعة تطورات رئيسية كانت في غاية الاهمية مثلما كانت كلها متداخلة ومتشابكة بعضها مع بعض. وقد تمثلت هذه التطورات في انتقال مصر على نحو حاسم إلى المعسكر الاميركي بعد زيارة الرئيس السادات لاسرائيل في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٧، وتوقيعه اللاحق على اتفاقات

كامب ديفيد في ايلول/سبتمبر ١٩٧٨، وعقده الصلح المنفرد مع اسرائيل في آذار/مارس ١٩٧٩. ثم بدأت الثورة ضد الشاه في ايران وما واكب ذلك حملة معادية للولايات المتحدة الاميركية اساسا في نهاية العام ١٩٧٨، وقيام الجمهورية الاسلامية الايرانية في مطلع العام ١٩٧٩، واطلاق العنان لازمة الرهائن الاميركية طوال الفترة اللاحقة حتى كانون الثاني عام ١٩٨١. أيضا لابد من الاشارة الى وقوع الانقلاب الشيوعي في افغانستان ودخول القوات السوفيتية الاراضي الافغانية في كانون الاول/ديسمبر ١٩٧٩، ومباشرة الولايات المتحدة في خوض حرب سياسية واقتصادية واعلامية ضد الاتحاد السوفييتي بالاضافة الى الدعم العسكري الاميركي الذي قدم إلى المحاربين الافغان ضد القوات السوفيتية. كذلك، بدأ الحديث بشكل متسارع عن تشكيل قوات التدخل السريع الاميركية في نهاية العام ١٩٧٩ ومطلع العام ١٩٨٠. وفي هذه الاثناء جاء الاعلان عن «مبدأ كارتر» الخاص بالخليج العربي او بما أسماه الرئيس الاميركي «حماية الخليج» من الخطر السوفيتي مع المباشرة في تكثيف الحشود البحرية الاميركية والغربية في المحيط الهندي. ثم بدأ تدفق التسليح الاميركي على المملكة العربية السعودية وغيرها في اعقاب نشوب الحرب العراقية - الايرانية في ايلول/سبتمبر عام ١٩٨٠. كذلك، جرى توضيب انقلاب عسكري ضد قوى وطنية وتقدمية وايضا قوى اسلامية ذات طبيعة تقدمية في تركيا وذلك في ايلول/سبتمبر ١٩٨٠ مع عودة اليونان إلى حلف الناتو. كذلك قامت الولايات المتحدة بمساندة القوى المعادية للاتحاد السوفييتي والتي تحركت في بولندا عبر «نقابات التضامن» مع نهاية العام ١٩٨٠. وعلى صعيد مختلف، قامت الصومال بالغاء معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتي وازدادت عندئذ سرعة حركة انتقالها باتجاه الولايات المتحدة. كذلك توترت العلاقات السوفيتية/العراقية بسبب الأزمة بين حزب البعث السوري الحاكم والحزب الشيوعي العراقي في شهر حزيران/يونيو ١٩٧٨. غير أن قيام كل من اليمن الديمقراطية وسوريا بعقد معاهدتي صداقة مع الاتحاد السوفيتي في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٧٩ وتشرين الاول/اكتوبر ١٩٨٠ على التوالي أعاد بعض الحيوية للوجود السوفياتي في المنطقة العربية. هذا، علاوة على توثيق عرى التعاون السياسي والعسكري بين

ليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية من جهة والاتحاد السوفييتي من جهة ثانية. وكان التطور البارز الأخير هو إعلان الرئيس السوفيتي الراحل ليونيد برجينيف عن مبادرته حول الخليج اثناء زيارته للهند.

هذه التطورات البارزة والمتداخلة في «قوس الازمات» افرزت - في تقديري - اربع نتائج رئيسية:

أولاً: بدء المرحلة الجديدة من التوتر والاستقطاب على الصعيد العالمي الواسع.

ثانياً: ولأن منطقة الشرق الاوسط تتأثر بما يكون عليه الحال بين الدولتين العملاقتين، ترسخت الحالة الاستقطابية الجديدة القائمة على صعيد الثنائية القطبية الدولية بل وحفرت لنفسها مجرى في «منطقة الشرق الاوسط» بالمعنى الجغرافي الواسع للعبارة.

ثالثاً: دخلت السياسة الاميركية (التي بدأت معتدلة في بداية عهد كارتر وتشددت في العام الأخير من رئاسته) في مرحلة تشدد لم تنته. بل ان التشدد الاميركي تصاعد مع مجيء الرئيس الجديد رونالد ريغان.

رابعاً: السياسة الاميركية السابقة التي بدت وكأنها ضعيفة وأثرت على «هيبة» الولايات المتحدة وساهمت في اسقاط كارتر سرعان ما سقطت هي نفسها نتيجة نمو قوى جديدة داخل الولايات المتحدة ذات طبيعة مغرقة في يمينيتها وعدوانيتها ورجعيتها وعسكريتها. وقد عبرت هذه القوى الفاعلة عن نفسها سياسيا بايصال الرئيس ريغان إلى السلطة مرتين منذ العام (١٩٧٩ - ١٩٨٠).

وكما كان العام ١٩٧٥ عام تغيرات، وكان العام ١٩٧٧ عام تحولات، كان العام ١٩٨١ ايضا عام تبدلات لا تقل أهمية. ففي هذا العام، تصاعدت حركة الفرز والاستقطاب التي لا نزال نعيش في اجوائها والتي نتوقع ان نعيش في ظلها ربما لسنوات قليلة قادمة. فمع مجيء الادارة الاميركية الجديدة إلى السلطة، سرعان ما أصبح الرئيس ريغان معروفا ليس على صعيد تهديد سلام العالم فحسب، وانما على صعيد المعاداة الخاصة للعرب والدعم الكريم لاسرائيل وبخاصة وأنه اكثر من الحديث عن «التحالف الاستراتيجي» مع اسرائيل وعن «الكنز الاستراتيجي» الذي تمثله. بل وقام بترجمة ذلك كله

على صعيد الواقع ترجمة عملية . وقد تعزز ذلك التوجه الاميركي بعودة بيغن عام ١٩٨١ إلى السلطة على نحو دل على ان ظاهرة الليكود ليست ظاهرة عابرة في الحياة السياسية الاسرائيلية كما حاول البعض ان يقنعنا به . بل ثبت ان الشارع الاسرائيلي وان الجماهير الاسرائيلية هي : بحد ذاتها ، جماهير لا تنقصها عدوانية الليكود ولا تعصبيته ولا تعسفيته ، ثم جرى ايضا في العام ١٩٨١ اغتيال الرئيس السادات بعد ان تكرس فشل سياسته في ابعاد اسرائيل عن الحضن الأميركي ليجلس هو فيه . وكان ذلك العام كذلك عام «حرب باردة» عربية اعقبت مؤتمر القمة العربية في عمان حيث كان واضحا ان مؤتمر فاس الاول في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١ الذي تمحور حول مبادرة الامير فهد شكل ايضا نقطة استقطاب وتمحور . كل هذه الأمور ، ودون خوض في التفاصيل ، افرزت مع مجموعة من التطورات اللبنانية وغير اللبنانية الاخرى في اواخر عام ١٩٨١ ومطلع ١٩٨٢ ، افرزت «حرب حزيران ١٩٨٢» أو الغزو الاسرائيلي الكبير للبنان في مطلع حزيران/يونيو ١٩٨٢ . ومنذئذ ، بدا - أو هكذا تخيل الكثيرون - أننا دخلنا «العصر الاسرائيلي» و/أو العصر الاستعماري الاميركي لكن ليس في إطار ظاهرة «الاستعمار الجديد» وانما في إطار ظاهرة «الاستعمار القديم» حيث عادت القوات الاميركية - على شكل احتلال مباشر - إلى اكثر من منطقة عربية وفي لبنان بالذات . فقد عادت القوات الاميركية (والأوروبية الغربية) لتتمترس على أرض لبنان تحت عنوان «القوات متعددة الجنسيات» . ورست القوات الأميركية البحرية - كما تذكرون - قبالة الشواطىء اللبنانية . وقد نجحت هذه الهجمة الاستعمارية الأميركية في فرض «اتفاقية ١٧ آيار» في العام الذي تلا (١٩٨٣) والتي كان يمكن فعلا أن يضيع معها لبنان وتضيع معه اقطار عربية عديدة فيما لو نجحت هذه الهجمة وحققت أهدافها .

لكن العام ١٩٨٣ جاء - لحسن الطالع وبقوة النضال العربي والتحالف السليم دوليا - حاملاً معه مجموعة من التحولات ابرزها : مجيء يوري اندروبوف ادى إلى تحول رئيسي في القيادة السوفياتية التي كانت قد هزمت وشاخت وبدأت تتصرف بردود فعل وبطريقة سلحفائية ازاء الاحداث المهمة التي كانت تجري في ظل الهجمة الأميريكية الجديدة على المنطقة . واعتقد أنه

رغم الحياة القصيرة التي عاشها اندروبوف كرئيس للدولة وأمين عام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي بدء من نهاية ١٩٨٢، فانه ترك بصماته الواضحة على السياسة السوفياتية الجديدة. ورغم انتخاب الرئيس قسطنطين تشيرننكو بعده وحكمه حوالي احد عشر شهراً (علما بان تشيرننكو ينتمي إلى العائلة السياسية التي اسسها وقادها بريجينيف) فان صعود الرئيس ميخائيل غورباتشيف، الذي يدير الدفة الرسمية السوفياتية الآن، هو نوع من الامتداد والعودة إلى عهد اندروبوف.

وهذا يعني أنه الامتداد الاكثر تشدداً وشبابا واستعدادا للمواجهة مع الهجمة الأميريكية. ثم كان ذلك العام ايضا عام تحول في السياسة السورية التي حاولت في الماضي ان تقيم وتحافظ على نوع من العلاقة مع الاميريكيين بحيث أنها حرصت، منذ العام ١٩٧٦، على ان تكون لها قدم واحدة (على الاقل) لدى المعسكر الأميركي والاخرى لدى الاتحاد السوفيتي. لكن مع العام ١٩٨٣، اختارت سوريا اقامة نوع من التوازن او اختارت بالاحرى ترجيح الميل نحو الاتحاد السوفياتي. ثم لاعتبارات قد نعود اليها اثناء النقاش، كان العام ١٩٨٣ - وعلى نحو مؤسف - عام الانشطار التنظيمي في الساحة الفلسطينية بعد انشقاق الفلسطينيين ايديولوجيا وسياسيا إلى «مفرطين في الاعتدال»، و«مفرطين في التشدد»، وتيار ثالث وسط بينهما، بكل ما قاد اليه ذلك التمحور والفرز وذلك الانشقاق من مآس ما نزال نعاني منها منذئذ وحتى اللحظة الراهنة. لكن نهاية العام ١٩٨٣ وبداية العام ١٩٨٤ شهدا مجموعة حقيقية من الانجازات التي ردت لنا بعض الروح بل ربما ردت لبعضنا بعض الوعي على طريق الخلاص. فما الذي جرى في هذين العامين؟

أساسا، تم احتواء المد الكتائبي المتصهين واسقاط الدولة الكتائبية بعد اغتيال بشير الجميل. ففي الحقيقة، كان مطروحا في لبنان قيام دولة كتائبية ضيقة، وليس دولة مارونية شاملة، وانما دولة بشير الجميل الفاشية المتصهينة، وبالتأكيد، حمل العامان الجديدان معهما اعادة الحديث عن صيغة التوازن اللبناني على ارضية عروبة لبنان، حيث تم في مؤتمرات القمة السياسية اللبنانية التي انعقدت في أوروبا وضع اليد على «الاكتشاف العظيم» القاضي بأن للبنان

صلة بالعرب. ولكن اعادة تثبيت هذه النقطة لم تكن قضية هامشية أو غير مهمة خاصة في ظل المشروع الكتائبي الصهيوني القائم عندئذٍ. كذلك، عادت بيروت الغربية إلى ايدي قوات بعضها له وجوده الراسخ، وبعضها له وجوده المهتز، داخل الحركة الوطنية اللبنانية. ولكن النزيف الدموي، في ظل هذا المستنقع اللبناني الغريب العجيب، استمر بل وبدأت بعض القوى اللبنانية «الوطنية جدا» معاركها ضد القوى الفلسطينية نفسها التي كانت ضحية للمشروع الكتائبي. ونحن نتحدث هنا تحديداً عن الفلسطينيين في مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة وما يجري ضدهم من قبل «حركة امل» منذ ايام والذي اصطلح على تسميته في صحف هذا الاسبوع «حرب المخيمات»!

ومن التطورات الايجابية الهامة التي شهدها العام ١٩٨٣ قبول الدولة اللبنانية المفتتة بالدور السوري. وهذه ايضا لم تكن قضية هامشية اذا اخذنا بعين الاعتبار انحياز الدولة اللبنانية في البداية إلى المخطط الاميريكي والرهان على الولايات المتحدة، بل واستعداد الدولة اللبنانية للانحياز إلى اسرائيل على حساب سوريا وباقي العرب. ولقد بدأ الاعتراف بالدور السوري وبالدور السوفياتي، علاوة على تنامي النضال المسلح بفضل هذين الدورين، يعطي نتائجه سريعاً عندما ادى الى انسحاب الولايات المتحدة والقوات المتعددة الجنسية بشكل مهين يتوقع منه ان يجعل «دولة ريغان» حذرة ومترددة في كل تعاملاتها المستقبلية مع المنطقة. وفي السياق ذاته، سقطت اتفاقية (١٧) ايار بشكل حاسم على ارض الواقع السياسي أولاً، وبشكل رسمي من قبل السلطة اللبنانية التي بدأت تتحول باتجاه العرب والعروبة لاحقا. كذلك بدأت عملية قبول كل الاطراف (بما فيها الكتائب والقوات اللبنانية في عهد ايلي حبيقة بعد انتهاء مرحلة سمير جعجع) بالدور السوري الخاص في لبنان وعلى نحو يجعلنا نستنتج ان لبنان (على الاقل) يعيش الان «العصر السوري» بعد «العصر السعودي» و«العصر الاسرائيلي». وقد نجم عن كل هذا وواكبه تحرك وتحريك للدور السوفياتي في المنطقة.

نحن الآن في العام ١٩٨٥، فما هي ابرز المعالم السياسية في هذه اللحظات؟

ومع أننا لن نفصل في عرض وقائع ما تزال حية في اذهانكم، لا بأس من

الاشارة إلى أن الولايات المتحدة تنشطت من جديد في هجمة جديدة مع اعادة انتخاب الرئيس ريغان. وكان هذا التطور على عكس كل ما روهن عليه قبيل هذه الانتخابات حيث كان البعض يقول لنا ان الرئيس الامريكي القديم - الجديد سيأتي بسياسة «متوازنة» وربما أنه «انحاز» للعرب وللحق العربي. وعلى عكس كل ذلك نجد أن عودة ريغان، وما رافقها من تطورات عربية واسرائيلية اخرى، سرع في عملية الانشطار الفلسطيني وجعله رسميا في نهاية ١٩٨٤ وبالذات مع انعقاد «المجلس الوطني الفلسطيني» في عمان. كما تسارعت عملية حسم المواقف من قبل العرب والفلسطينيين المفرطين في الاعتدال والمفرطين في التشدد وذلك في اعقاب توقيع «الاتفاق الفلسطيني/الاردني للتحرك المشترك» في ١١ كانون الثاني/يناير ١٩٨٥. ثم جاءت بعد هذا الاتفاق الاخير بأيام، وبشكل فيه مناقصة بدل المزايدة «مبادرة الرئيس مبارك التي حملت المزيد من الافراط الرسمي العربي في اعماق الاعتدال. ثم ازدادت حركة الاستقطاب والفرز والتمحور على الصعيدين الفلسطيني والعربي وبخاصة في اعقاب فشل رحلات القادة المعتدلين العرب للولايات المتحدة طوال الاشهر الاولى من العام ١٩٨٥. وتجسدت معالم الفرز الفلسطيني بتشكيل «جبهة الانقاذ». كما اختلطت الاوراق مع بدء «حرب المخيمات» (المرتبطة عضويا بالفرز الفلسطيني والعربي) والتي نعيش هذه الايام في ظلامها وننزف بسببها ونكاد نختنق بسمومها. وغنى عن الذكر ان هذه «الحرب» رغم كونها حربا قذرة وغير مبررة، فانها لم تكن للعين المبصرة ذات البصيرة السياسية حربا مفاجئة أو غير متوقعة. فحركة الاستقطاب والفرز والتمحور الدائرة على قدم وساق - فلسطينيا وعربيا ودوليا - منذ العام ١٩٨٣ كفيلة بتوليد ما هو أغرب وأفجع من «حرب المخيمات»... وحماكم الله وحمانا مما يحمله لنا المستقبل... وبخاصة إذا مضى عهد ريغان الجديد دون تحقيق انفراج في علاقات الدولتين العملاقتين... واذا «أصرت» بعض الدول العربية على معاداة البعض الآخر «من أجل عيون» الولايات المتحدة... واذا «أصر» الفلسطينيون، المفرطون في الاعتدال أو المفرطون في التشدد على حد سواء، على نسيان طبيعة المرحلة التي هي مرحلة تحرر وطني تقتضي منهم الاصطفاف الشامل على ارض معاداة ومقاتلة الامبريالية «وكنزها الاستراتيجي» - اسرائيل!

المحاضرة التاسعة

نحو مسرح شعبي عربي

للدكتور / يوسف عايدابي




نحو مسرح شعبي عربي

رغماً عن كل الذي يرفد المسرح عـربيـا مـن دم جـديـد ... اتجـاهـات وتيارات ... وتجريب ومحاولات، نصية وعرضية، فهو لا يزال يبحث عن «هوية» برغبة ملحة وضرورية لتجذير المسرح «الرسمي» في الآخر الباطن الحي ـ المسرح (الشعبي)، لاحياء وتجديد الحياة المعاصرة، تلك التي تفتقر إلى الحرية والديمقراطية، ويعاني فيها المواطن العربي معاناة صعبة ومضنية من أجل احتمال الحاضر واحتمالات المستقبل.

وهذا البحث عن هوية ـ رؤية وصيغة عربية للمسرح تستجيب لمطاليبها المحلية ـ الوطنية ـ القومية، ولا تنفصم عن المسرح الانساني في اطاره العام والشامل، بدأ يجد خيوط فجـره ويشـع مـن عتمـة التـوليـف والاقتبـاسـات والمداخلات والاقلمة وغير هذا من المزاوجات العقيمة غالبا والمفضية إلى ضنك التساؤل وحيرة الفيلسوف احيانا.

ولعلنا، وحتى لا نلجأ إلى اقتسار أو ابتسار، نقتصر حديثنا هاهنا عن ذلك الاتجاه ـ التيار الذي نشأ مع المسرح العربي ـ التراثية، ذلك ان المسرح، عربيا، ابتدأ اسطورياً، واخذ من الاساطير والتراث الشعبي العربي والانساني ما أخذ، وقلد المسرح الاوربي فاستلف شكله، ولم يلتفت الى الاشكال التراثية الشعبية الا في مرحلة متأخرة ـ مرحلة المعاصرة المتأخرة.. فكثر الحديـث فيهـا عـن المسرح الشعبـي العـربـي، والتقـاليـد والطقـوس والممارسات التثميلية، ومسرح خيال الظل وظل الخيال والدمى والعرائس.. ومسرح الشعـب ... وتنـادى البعـض الى الطقـوس الدينيـة والممـارسـات والمجالس الشعبية ـ وكلها باعتبارها فرجة شعبية قريبة بل ولصيقة بالمخيلة والذهنية العامتين، ويمكنها أن تقترب من المشاهد العربي المعاصر وتلج به

مرحلة أعلى من التذوق والفاعلية المسرحية بتحويله من مشاهد محايد إلى مشارك متفاعل وفاعل في الحدث ـ الفعل ـ التظاهرة المسرحية ـ اذا ما وظفت وأعمل فيها دراميا وفنيا بما تمتلىء به هما معاصرا وهاجسا حياتيا مقيما في عصرنا ومن مشاكلنا وأوجاعنا الحاضرة السارية في بقاع الوطن العربي بتباين طفيف هنا وهناك.

ولعل كل هذا الجهد الجهيد الجديد قد بدأ بنفور فطري، فتمرد فوعي فحلم، فغضب، فولادة جديدة ـ بمعنى: كان المؤلف الدرامي العربي يخضع الموضوعات العربية للاشكال الأوربية المسرحية والدراماتورجية، ولا يقنع دائما بالنتائج لانها من ذلك الزواج العقيم العاقر... فطرح على بساط البحث أمره ـ يريد شكلا متميزا، قادرا على همومه بسعة ماعونه وطواعيته، ولكن الشكل لابد له من موقف ورؤية ومنظور متكامل دراميا وفلسفيا وسياسياً ـ اذا ما وعينا عدم انفصال الشكل عن المضمون.. وهكذا وصل بعض المسرحيين إلى بعض اشكال مستلهمة من التراث، ووصل البعض إلى صياغة مسرحهم بروح المسرح الشعبي ووفق اساليبه، ومع ذلك فالمحاولات كلها وان بقيت جهود محاولة فانها ـ ايجابيا ـ لم تنفصم عن الرصيد المسرحي الانساني، بمعنى أنها تندغم وتندمج في روح العصر وجوهر المسرح كوظيفة وجمالية وتقنية.

برزت في مجلة «الكاتب» المصرية (صرخة حق) ليوسف ادريس ـ نحو مسرح مصري، حول التراجيدي والبطولي عبر منظور عربي للمأساة وللمسرح الذي يريده.. وناقش (أوديب) كرؤيا أوربية ـ اغريقية (وعنترة) كرؤيا عربية قومية.

برزت مفاهيم توفيق الحكيم حول الابوللوني والاوزيريسي والديونيسوسي والعربي عبر المازجة.. ثم ظهرت دعوة الكاتب إلى قالب مسرحي خاص بالعرب، استلهمه من الأشكال التراثية للمسرح المصري وخيال الظل والقصص الشعبي الدارج.

برزت محاولات محمود دياب «والسامر ـ المسرح» من مسرح الفلاحين وصلا لجهود يوسف ادريس، فكانت (ليالي الحصاد) وغيرها من مسرحيات حاولت توطيد تيار جديد لتلاحم النص ـ المشاهد.

برزت محاولة الفريد فرج للدراما الشعبية الملحمية ما بين بريخت واساليب المسرح الشعبي والتراثي ـ «الحاكي» تقنية الف ليلة وليلة والمقامات .. الخ».

برزت بشكل العند استلهامات الف لينة وليلة ـ جاءت «الليالي العربية» في الحياة المعاصرة لا استمراراً للتخدير الثقافي والفكري وسعيا وراء نمطية وسلوكية .. ولكن توكيدا لاحتياج موضوعي، أولا من قبل الكتاب لاشكال وصيغ اصيلة لصيقة بالناس، وثانياً لمواجهة القمع والرقابة المتعسفة، وفي هذا توصل الدراميون العرب إلى نضوج رؤياوي وفكري واسلوبي في النظرية والتطبيق المسرحيين فحققوا المزاوجة الخصبة إلى حدود جد بعيدة.

وفي هذا الخصوص التجريبي برزت لدى البعض رؤية مسرحية درامية، في زخم الأحداث والمجريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبيئة والمناخ الثقافي والفكري، وينتظم الرؤية هذه المعتقد الاسلامي من أفق وسيع يشتمل الضوء والظل، الديني والعلماني، الجبري والاختياري .. وهكذا، فعبرنا إلى انسانية مفعمة عند (باكثير) ثم محمد فريد أبو حديد ثم فتحي رضوان فالمسعدي .. الحكيم أيضا خطا خطوات واسعة تجاه منظور يدغم الدرامى في الاسلامي.

ثم برزت لدى جملة من الكتاب المسرحيين ممازجة لتيارات واساليب معاصرة في المسرح العالمي في تجاريبهم العربية فظهرت مسوح الوجودية والملحمية البريختية والواقعية الاشتراكية والابسنية واللوركاوية وغيرها في نسيج عربي يؤلف ويؤلف. يمازج «ويهرمن» في اطار مسرح الشعر أو النثر، الرمز أو الواقع ـ مما يسمح بالحديث عن تيارات واتجاهات تجديدية ـ تحديثية، وان صعب الحديث عن «مدرسة» أو «مسرح عربي» واحد، فنحن بعد في مرحلة (تجريب) متقدمة حقيقة وقياسية ... ولئن اشتركت، هنا وهناك، في الملامح فهذا ما يسمح بنحو آخر من الحديث عن خصائص مشتركة وملامح ومفاهيم متناغمة في بقاع الوطن العربي ـ وهي مجتمعة تنبىء عن ذلك الاسم وتلك الشخصية العربية للمسرح ـ وهو ذا شأن المستقبل.

مداخلة

بدأت الدراما المسرحية العربية باستلهام الاسطورة واستلاف الشكل الأرسطي (كتابة) والايطالي (خشبة): محاكاة ترسخت منذ القرن الماضي، ولما برز استلهام المواضيع التراثية كان ذلك (للفرجة والتسلية وتزجية الفراغ)..

ولما صار الاستلهام والاتكاء على (التاريخ) فان البطولي اسهم عربيا في نضال التحرر الوطني والقومي على امتداد الاقطار العربية، ولكن الدراما الشعبية العربية كانت في كل قطر عربي تقوم بدورها لا تسلية وفرجة وتخديراً، بل عبر طبيعتها الساخرة الناقدة الكاشفة تقوم بوظيفتها الاجتماعية السياسية والتربوية من منطلقها الفطري (التزام جانب الكادحين والمغلوبين).

ثم أتى اليوم الذي توقف المثقف والكاتب الدرامي حيال الظاهرة الايجابية للمسرح الشعبي، متأملاً طبيعته النافذة في المجتمع وأساليبه وصيغة وأشكاله اللصيقة بالروح الشعبي والوجدان العام، وسرعان ما اندغم فيها كثيرون.. ولكن نتائج هذا الاندغام ـ الزواج ـ لم تظهر الا اخيرا، وان لم تفلح بعد في الخلاص من (الارسطية) و(الشكل الايطالي للمسرح) ان كان لابد من الخلاص منهما.

في العقدين الاخيرين فقط، وآخذين في الاعتبار تأثيرات المسرح الاوربي والنظرية المسرحية العالمية ومفاعلاتها محليا وقومياً، يمكن أن نرصد نجاحات الدراميين العرب في طروحاتهم المسرحية والدرامية والجمالية ـ الفلسفية حيال التراث والتقاليد الشعبية باعادة نظرها وتقويمها والتعامل معها بغية انضاج صيغة وتحديد لغة جديدة لمسرح عربي جديد... ولئن تلاحظ ان الدعوة له بدأت بأصوات محلية في كل قطر على حدة وباستخدامات للموروث الايجابي، فان تلكم الأصوات لابد تتحد وتصوغ ذلك المسرح والنظرية:

● في الستينات نادى توفيق الحكيم بالمسرح الشعبي، بالتحديد دعا إلى استخدام وسائله وتقنياته البسيطة لتوصيل المسرح والقيم العظيمة إلى قطاع اوسع من الناس... وبتحويل المسرح إلى جامعة شعبية باعتباره وسيلة تربوية اجتماعية. الحكيم وظف المسرح الشعبي بعدئذ في مسرحياته بالاتكاء على

اشكاله وممارساته وبعض شخوصه، ومن جهة اخرى صاغ عبر فحص جوهر التراجيديا ـ التراجيدي الارسطي ومأساة اوزيريس والفكرة العربية منظوره المسرحي «التعادلية» وأن شابها كثير ارتباط بالافلاطونية..

وكان الحكيم، ومنذ مسرحياته التراجيدية الاولى، قد اجتهد في الاقتراب بها إلى الروح العربي والمعتقد الاسلامي فخلصها من الخوارق والخرافات ونظره إلى القدرية تأرجح كثيرا وطويلا وان خلص الى ترجيح وسطي بين التسيير والتخيير.

يوسف ادريس فيما يبدو، قد أوغل بعيدا في تأمله وطموحه في خلق مسرح عربي، ضاهى (التراجيدي) الاغريقي القديم (بالبطولي) العربي التليد: أوديب في مقابل عنتره: الأول تحول من ملك إلى شحاذ والاخير تحول من عبد إلى أمير.

الأغريقي ـ الاوربي يتكىء على المأساوي، العربي يلجأ إلى البطولي. دعوة يوسف ادريس تنطلق من مسرح الفلاحين (السامر والفرق الجوالة مثل أولاد زمر) إلى الأخذ بشكل ومضمون التراث العربي: أشكال وصيغ مسرح الكوميديا الساخرة الشعبية، والفولكلور المحلي، السامر المصري والسيرك وغيرهما.. ليطبق رؤياه في «الفرافير» وبغض الطرف عن المضاهاة أو المقارنات الممكنة أخذا وتأثراً بين «الفرافير» والمسرح العالمي فان الكاتب يبقى في طليعة الجهود من خلال هذا المنظار الجديد، ويجب ألا نفصل عن هذه الرؤية محمود دياب ومن بعده جهود اللاحقين من أبناء المسرح المصري.

في المغرب العربي، في ذات الوقت والمرحلة، تنضج وتتكامل تجربة لها عمقها ودلالاتها ـ فالمؤلفون المسرحيون هم المخرجون والممثلون ايضا ـ حيال «المسرح الشامل» الكامل تقف التجربة في المغرب العربي. على أن تأثيرات المسرح الاوربي هنا جلية وكبيرة وجسورها أمتن. ولكن فلاح التجربة يكمن في تلك المزاوجة السعيدة بين الشرق والغرب وعلى نحو يناظر ما شعر به جوته في «ديوان الشرق والغرب» حين قال: «رائع هو الشرق، القائم خلف الحوض المتوسط، فالذي يحب (حافظاً) ويعرفه، يعلم وحده ما أنشده كالديرون».

قامت من ثمة نظرية وتطبيق مسرحي من رياح المزاوجة التي ستهب على المشرق العربي سريعاً، وستبرز في مواليد، ذات اصالة ايضا وان تباينت التجربة الاخيرة عن سابقتها.

لابد من اشارة تمييز: التجربة المغربية طابعها بصري مرئي ـ الفرجة مسرح بصر ورؤيا، فهي تظاهرة مسرحية لا تعتمد فقط على الكلمة المحاورة.. بينما التجربة المشرقية هي بالاساس تظاهرة تجديد دراماتورجي يتعلق بالتأليف والتكنيك والحرفية في النص المسرحي. وعندما نصل إلى مرحلة تكافل وتكامل النص المسرحي والتظاهرة المسرحية (الفرجة) سنتوفر على خصائص مسرحية وملامح مميزة لذلك المسرح العربي.

ان التجريب المسرحي في الآونة الاخيرة يتوصل إلى ذلك التلاحم الضروري بين عناصر المسرح الشعبي وإلحاح الحياة المعاصرة بما يفجر المسرح الجديد الباحث عن حرية وديمقراطية وثورة: مسرح التغيير، وظيفة والتزاما ـ بمعنى ان يتحول من الاسطورة إلى الواقع الضد ـ المستقبل، فالبحث العربي لم يكن عن شكل مسرحي أو دراما بلا نظير، بل كان من اجل ادغام المؤسسة المسرحية في البنيان والكيان الاجتماعيين، وابراز تلك الملامح التي تؤكد على الروح العربية الثورية في زمان يفتقر إلى تلك الروح اللازمة.

الصيغة ـ الرؤية

تجربة المسرح الشامل في المغرب العربي اعتمدت على تقاليد (الفرجة) الشعبية عبر المسرح الفولكلوري التراثي حتى نضجت تجربة (تسييس) الدراما. أما تجربة المشرق العربي فلقد اجتهدت في الخروج بالكتابة المسرحية من حيز التقليد إلى التجديد الابداعي حتى الاصالة.

● مسرح الطيب الصديقي الشامل في (المغرب) أعتمد على مصادر المسرح الشعبي المغربي: مسرح البساط، وعلى التراث العربي الادبي (المقامات) وعلى تراث الشعر الشعبي والفولكلور المغربي (عبدالرحمن المجذوب) في مسرحية ديوان سيدي عبدالرحمن المجذوب يواجهنا الصديقي بموضوع تراثي وشكل مسرح تراثي: الممثل الحاكي ـ الشاعر الجوال ـ في

مسرح بلا ديكور وبلا ملابس وبلا اضاءة. مسرح فقير ينفر من التقنية المستوردة ولكنه يغنى بتظاهرة الممارسات الراسخة المحلية. في تجربة «مقامات بديع الزمان الهمذاني» يتكىء الصديقي على (المقامات) ويجرب تجريد الديكور وفق تجريد الخط العربي. أما في «سلطان الطلبة» فيستقي المؤلف ـ المخرج تجربة المسرح الشعبي المغربي المعروفة وتظاهرة التلاميذ الذين يدفعون شعبهم إلى تفجير ثورة. ويصل الصديقي في «السفود» إلى مزاوجة المحلي بالانساني اضاءة للتجربة.

نلاحظ علاقة النص، بالمخرج والممثل والمتلقي وتجددها وخروجها عن المألوف والتقليدي، اذ يطمح الصديقي في تذويب الحواجز ويدفع بالمتلقي للمشاركة في الحديث المسرحي في مسرح الحلقة او البساط.

المنصف السويسي في (تونس) يؤمن على التجريب الجماعي وتكامل النص عبر العرض وتفاعل المتلقي.. مثلما يرفض الاقتباس ويقبل على «الاقلمة» بما يضفي إلى اعادة تنوير النص بمعطيات الواقع المحلي.

وتتنامى الظاهرة وتتكامل عبر الدراما الشعبية عند عز الدين المدني ومسرحياته التي تمتلىء بالتراث وتعبر به إلى الواقع المعاصر، ثمة ضرورة لتنظير وتخطيط:

عبدالكريم برشيد يؤلف للمسرح وبذات الوقت يسعى الى ترسيخ مفهوم مسرحي ينطلق من الممارسة الشعبية ورؤاها الى الحاضر.. ومثل هؤلاء مصطفى كاتب في الجزائر ومناداته بمسرح شعبي تجريبي وهي مناداة تأتي في مرحلة جرب فيها مسرحيو الجزائر (مثل عبدالرحمن ولد كاكي) مسرحة التراث وأسموا التجربة «ما قبل المسرح» ومازجوا فيها تيارات تثري المحاولة كمثل ادغام الملحمية والتغريب من بريخت.

كاتب ياسين ايضا يتحول الى هذه الجبهة فيترك اللغة الفرنسية إلى «لغة الشعب» المحكية ويسعى إلى مسرح سياسي كوميدي، انتقادي مرتجل، يلغي المسافة بين الممثل والمتلقي.. وبرز ما أسموه بالجمعية التعاونية المسرحية.

على ان المشرق العربي ما نال من تجربة المغرب العربي الاقليلها عبر (الصديقي) و(السويسي).

● «تسييس المسرح» هو مربط فرس المشرق الرازح تحت نير ظروف

ومصادمات وصراعات وإحن . سعد الله ونوس يبرز وبه كبير اثر للصديقي وتجربة المغرب ، وبه كبير وعي بتجربة المسرح السياسي وتقاليده ومنطلقاته الشعبية ، فصار إلى حوار الصالة والخشبة ، يلجأ إلى الاساطير والحكايات الشعبية (في «الفيل ياملك الزمان» وفي «مغامرة رأس المملوك جابر») ويلجأ الى تقاليد وأشكال الفرجة والمنتديات فيختار المقهى صيغة لمسرحية «حفل سمر من اجل ٥ حزيران». يعتمد ونوس على الحاكي، على السهرة الشعبية ليفجر في المتلقي ذلك الاحساس المصادمة حتى يلج عليه هاجس الحاضر فيعمل فيه بالتغيير والبناء للجديد الصالح . ان تجربة تستقي من أنهر متعددة (بريخت وأرتو ومصادر الارتجال المسرحي العربية التقليدية) تلح على أهل المسرح المشرقي: سلمان قطاية يدعو إلى استلهام مسرح خيال الظل والعرائس وهما في طريق انحسار وزوال، رياض عصمت ينطلق في آفاق مسرح شعبي سياسي ملتزم .. وفرحان بلبل ايضا ، لربما كانت اشارة «وليد اخلاصي» إلى «التجريب الثلاثي» في المسرح العربي نافعة: تجربة على طريق المسرح الاوربي من الاغارقة القدامى حتى ميللر وأصحابه . تجربة تتبع خطى بريخت ومسرحه الملحمي التغريبي . وتجربة ثالثة تأخذ بطريق مسرح اللامعقول والعبث .

يقول اخلاصي: بريخت نحتاجه «موقفاً»، واللامعقول «ثورة ضد القوالب الجامدة» وعبر هذا وذاك تخلق الدراما العربية طقسها المسرحي . ولا يبتعد عن هذا كثيراً دريد لحام ومحمد الماغوط في تجربة مسرحهما التنفيسي وان كانت خطاهما في مسرح الشوك ذات صلة حميمة بتجربة مسرح «الخبز والحرية».

نخلص إلى لازمة: مسرح المشرق يتأثر بشكل مباشر بالحدث السياسي، وأزمة التعبير والديمقراطية والحرية، والمسرح يتوظف لهذا النضال الذي لا هوادة فيه . لقد كانت تجربة «مسرح القهوة» السورية تظاهرة سياسية لم تخلق مناخها فماتت . ان ملاحظة اثر بريخت وارتو وفايس وحركة التجديد الاوربية والاشتراكية على تجربة المشرق العربي المسرحية لازمة وملاحظة كون المسرح يرتبط بقضايا مصيرية لازمة ايضا، وملاحظة تغلغل تيار الرؤية الواقعية لازمة كذلك .

● «ملحمية مسرحية» اخرى تنبت في العراق يمهد لها جيل يوسف العاني في صبر وأناة. تجربة قاسم محمد تنطلق من بريخت وترتكز تقنيا على «فاختانجوف» الروسي وتسير إلى المسرح المفتوح وآفاق «جوزيف شايكن». قاسم محمد تأثر بشكل واضح ومباشر بالطيب الصديقي والمقامة كشكل مسرحي، كما تأثر بتجربة سعد الله ونوس ومسرح المقهى. عند قاسم محمد المقهى شكل مسرحي: «بغداد الأزل بين الجد والهزل» مسرحية استلهم فيها المؤلف المقامات (١٦ لوحة تراثية من الادب الكلاسيكي العربي - ومن ضمنها لوحات نقلها قاسم عن الصديقي مباشرة). واعتمد المقهى العربي اشارة فتحول به - معادلة - إلى السوق البغدادية القديمة... على أن التجربة نفذت على الخشبة التقليدية (الايطالية). عرض قاسم محمد كان وثيقة تؤكد على امكانات التراث والملحمية البريختية في تجربة رصينة للمسرح السياسي يستخدم فيها الملصق السياسي والفيلم السينمائي والشرائح الملونة والاغنيات السياسية والتمثيل الصامت و«الراوي».

أما في «أشخاص وأحداث من مجالس التراث» فيصل قاسم إلى الجماعية (في مقابل التعاونية المسرحية) ويتأصل لديه الكورس الشعبي (بروح من كورس الاغارقة القديم).. يتحول الراوية الشعبي إلى صوت بريختي والنص إلى لعبة مسرحية تنقلب إلى حياة وواقع ومجتمع حى على المنصة في جذب وتتوتر في تعاطيها مع المتلقي.

يأخذ عادل كاظم بذات التيار: المقامة أمل المسرح العربي (وكان الصديقي يصرح: للمقامة أكمل شكل عربي للمسرح) في «مقامات أبي الورد» نواجه راوية ومجموعة من الممثلين الجوالين فنخرج معهم من المسرح الشعبي إلى تظاهرة مسرح السياسة، ولكن تظل روح الوثيقة وضعف النسيج، تنضج الادوات والمفاهيم في «الزمن المقتول في دير العاقول» - تراجيديا المتنبي - وهي تراجيديا شعبية مليئة بالرموز الفلسفية.. بطلها المتنبي؟؟ أو الشعب العربي؟؟ عادل كاظم يسعى إلى رؤية تراجيدية وبطولية عربية تماماً. يتحول من الشخصية المحورية للبطل.. فيؤلف بطولة جماعية... بملحمية بريختية يحول البطل من التاريخ إلى الاسطورة - ولكنها تلك الاسطورة المعادلة لفعل المستقبل. نحن حيال المعادل الاسطوري للبطولة

بديلا عن المأساوية الاغريقية. ليس هذا فحسب، بل ويتحول دور الكورس إلى متلاحقات تتكامل بها ومنها شخصية البطل، الكورس يغدو جزءاً من الحدث وتطوره.. على ان الممثل الاول فيه هو الراوية لا مجمل الكورس. ويتغير دور الكورس من قاطع للحدث إلى موصل له، فكريا تتوهج اضاءة مفهوم عربي عبر تناسخات وصراعات واحتدامات في صيرورة المتنبي حتى يتحول من ذات فردية إلى روح جماعي متكامل.

● محاولة عادل كاظم لرؤية عربية تناظرها تجربة شوقي عبدالحكيم في مصر - أصولها مصرية قديمة واسلامية ومسيحية ومعاصرة. فهو يخرج بالناي يردد اسطورة أوزيريس ويلاقحها برحيق صنع منه المصري حياته ووطنه. في «ملك عجوز» بنائية جديدة للشر والخير (ايزيس - أوزيريس - حورس). في «المستخبي» قراءة مصرية تعادل «اجاممنون». شوقي عبدالحكيم وهو الباحث الفولكلوري يأخذ بالروح المصرية (بسالبها وموجبها) عبر «الثأر» و«المقدر والمكتوب» فتغدو «شفيقة ومتولي» تراجيديا مغايرة تماما للقدرية الاغريقية وتصبح «حسن ونعيمة» مأساة عصرية فيها صوت مصر ووجدانها وتركيبة شعورها الجمعي والقومي.. مداخلات شوقي عبدالحكيم تشكل حقيقة رؤيا ورؤية يسود بعض جوانبها غموض ولكنها تعبر عن مجتمع مصر وتمازجات الحضارات فيها حتى تشكلت عربية اسلامية.

لعل نجيب سرور قد فطن إلى ذلك الناي ايضا فتحول بياسين وبهية إلى عدالة الماعت المصرية القديمة وإلى عدالة ثورة التغيير. فترك الموال إلى اضاءة الملحمة وانفتاح العقل في «آه يا ليل يا قمر».. يتجدد نجيب سرور تقنية وشكلا مسرحيا مترعا بالوجدان الشعبي والاساليب الشعبية... ولكنه بنحو بريختي - يؤلف الكورس المتنقل من الغنائية الى الملحمية إلى الحلم الى اليقظة فالتنوير... ولأن نجيب سرور يفهم المأساوي ضمن البطولي فانه يمسرح البطولة ويغدو قريبا من مسرح لوركا والذي يستبطن شخوصه وشاعريته في ملحمية مسرحياته..

● انه الطريق المفضى إلى الشعب

لا يمكن الجزم بأنه يوجد ما يقابل مصطلح «المسرح العربي» في الواقع

المسرحي في انحاء الوطن العربي حيث الجهود ما تزال تعاني من ذلك التشتت الذي لا يتيح لها القدر القليل من فرص التواصل الخلاق والحوار حول التجارب المفضية إلى ترسيخ ملامح ومميزات وتحديد هوية لمسرح عربي.

على أنه من الصحيح تماما ان نحدد قول ان جهود المسرحيين العرب، وبصفة خاصة منذ اوائل الستينات في مشارق ومغارب العالم العربي، قد اتجهت للتأكيد العملي لضرورات «تعريب المسرح وتوطينه» ولا نعني هنا التوطين الاجتماعي وتوجيه المسرح وجهته الصحيحة كمفاعل يعبر الناس بواقعهم ويطرح عليهم آفاق صيغ المستقبل الممكن فقط، بل ونرمي كذلك إلى ذلك التجذر والتأصيل في البنية الثقافية الوطنية والقومية بما يخلق ذلك المؤشر إلى نضج الحوافز المشتركة والعلامات الفارقة لمسرح عربي عما سواه.

ومن هنا كانت دعوة استلهام التراث ذلك الاستلهام الايجابي لا عبر القيم والمضامين بل وعبر تلك الاشكال والصيغ اللصيقة بتقاليد الذهنية العربية العامة ومقومات طقس الفرجة العربية.. ولم تنحصر المناداة بالتراث الادبي فقط بل تعدته إلى تأكيد ضرورة التعمق في الممارسات الشعبية بغية استلهام طرائق واساليب المسرح الشعبي.. بمعنى أن الدعوة إلى سبر غور التراث الادبي الكلاسيكي أو الظواهر المسرحية ينبغي أن توصل المسرحي العربي لا إلى مجرد اسلبة تأليفية (وبالتالي أدبية محضة) بل إلى بنى وتراكيب للعرض المسرحي الشامل (وبالتالي إلى صيغة فنية تعبيرية وحركة حية) تصادف الواقع المباشر في مأتاة غنية وفكرية مؤثرة.

بهذا الفهم طرحت قضية التراث والمعاصرة في بحث أهل المسرح العربي عن صيغة عربية للتظاهرة المسرحية. وبهذا الفهم تنادى مؤلفو المسرح إلى الحكاية الشعبية ـ الحاكي ـ الراوية ـ السامر ـ لا بحثا عن نص وأسلوب مسرحة بل بغية صيغة تضم مضمونا وشكلا يعولان على تقاليد عربية ما تزال حية وماثلة.

أفضى هذا البحث إلى بروز تيارين: الأول عني بالكتابة المسرحية وسعى الى توليفة مسرحية عربية اذ نصب اهتمامه على المضمون وتوصيل فكر بعينه.

أما التيار الثاني فقد اهتم بالشكل المسرحي وتوفر العرض الدرامي على تقاليد وأساليب الفرجة العربية.. وقد عول بعض أهل هذا التيار على العرض

المسرحي كوحدة شاملة، النص المسرحي فيها مجرد عنصر .. وقالوا يكون المسرح تظاهرة بصرية في مقامها الأول.

واضح من هذا ان الفريق الاول انتج عددية لا بأس بها من كتاب الطليعة الباحثة عن هوية فكرية للمسرح العربي .. بينما الفريق الآخر جهد في تأكيد دور جديد للمخرج وفي ابراز «رجل المسرح الشامل».

وكان لابد أن تمتزج تجربة التيار الاول بالتيار الثاني وأن يتحول الجهد المسرحي العربي إلى ذلك الميدان التجريبي الذي يتحقق فيه العمل الجماعي وتنطرح فيه اساليب المسرح الشامل باعتباره المخرج السوي .. ولكن هذا يتم بصعوبة لضعف الجسور الثقافية العربية .. الأمر الذي دفع بعدد من المخرجين ذوي التصور الشامل المنطلقين إلى ترسيخ مسرح شعبي عربي، إلى التوغل في تجربة البحث في العرض المسرحي متخذين من الكتابة - التأليف الجماعي والاعداد الجديد طريقا إلى الصيغة المسرحية العربية.

وهكذا برز تيار حظي ويحظى باستجابة كبيرة يوما بعد يوم لأنه - حتى الآن - يظل التعبير الألصق بطموحاتنا لتأصيل المسرح عربياً في المجالين الفكري والفني التعبيري.

رؤية عربية .. وشكل عربي

تطورت الدعوة لتأصيل المسرح العربي من البحث في النص وشكل العرض المسرحي إلى التأكيد على أن الرؤية والموقف والتصور المسرحي لابد أن تتجذر في مكونات الذهن العربي .. ومن هنا كان لابد لأهل المسرح من اعادة النظر في استقبالهم للمسرح الآخر .. المسرح الانساني .. لا من حيث اعادة صياغة حواره بلهجة عامية بعد تعريبه، بل العمل المتكامل على رؤيته عربيا .. بمعنى أن يتحول العمل من مجرد امكانية توصيل ونقل فكر على خشبة المسرح إلى صياغة من منظور عربي تنقل الفكر الانساني إلى ساحة الواقع العربي بادواته المحلية لا بمنظور وطرائق غيره.

ففي (هاملت) لوليم شكسبير يمكن لنا أن نجد المثال الدال على التجربة .. فقد اخرج نور الدمرداش المسرحية من منظورها ووفق تقاليد اخراج المسرح الشكسبيري باعتباره مفسرا وعارضا (دون أن ينتقص هذا من

امكانية الدمرداش كمخرج له باعه الطويل).

ولكن أهل البحث عن صيغة عربية للمسرح يذهبون إلى ما هو أبعد من مجرد التفسير والشرح والرؤية المتطابقة مع النص.. فاذا ما كان توفيق الحكيم قد دعا في كتابه (قالبنا المسرحي) إلى استخدام الحاكي ـ المقلد ـ المادح ـ المقلدة، في توصيل المسرح العالمي وتبسيطه وتكثيفه ليصل إلى اكبر دائرة من الجمهور.. فان التجربة العراقية في «هاملت عربيا» قد تجاوزت هذه الدعوة الى ايجاد معادل عربي يمكن عبر مواعينه أن نوصل المسرح الانساني إلى الانسان العربي وفق ذهنيته العربية (الاسلامية) ووفق تقاليده في الفرجة.. وأصبح الأهم هو الكيفية.. المعالجة.. الرؤية ـ فجاءت تجربة «هاملت عربيا» (والعنوان يفسر ويوضح الهوية).

اذن صارت التجربة العربية لا إلى الاهتمام فقط بالنص، بل بمجمل العملية المسرحية.. وبوعي بقيمة المردود.

وتتصل حلقات هذه التجربة بما يؤكد على بروز هوية عربية للاخراج... ولعلها تجربة تستحق التأمل والدرس بشكل أعمق انطلاقا من عدة نقاط ارتكاز جوهرية المخرج ليس ناقلا وموصلا فقط بل هو مبدع وسيد عرض مسرحي ايضا ينطلق من رؤية وموقف وتصور ومعالجة.

ان تميز العرض المسرحي العربي عن غيره لا بد يكسر حاجز القداسة المفروضة على النص لكي يتمكن من الاضافة واثراء التجربة من منظور عربي.. وان التقنية الاوروبية ليست غير اداة نتحكم فيها ولا تحكمنا، وان المسرح وظيفة ودور ورسالة لا مجرد تزجية فراغ وترويح وترفيه... وبالتالي لابد من وضوح الرؤيا وبروز الشخصية والموقف فيه.

نحو مسرح شعبي

لعل الدعوة إلى (صيغة المسرح الشعبي) هي اكثر الدعوات المسرحية قبولا منذ بداية الستينات لا في المشرق العربي فحسب بل وفي المغرب العربي.. وقد تمكنت من تأسيس سديد لفاعليتها في اوساط «المسرح العربي».

لابد هنا من التأكيد على حقيقة ان المسرح الشعبي لا يعني مجرد

النصوص الشعبية بل هو أكبر وأكثر من ذلك بكثير اذ تعنى ضمن ما يعني ذلك التوظيف الواعي لعناصر العرض بحيث يتزاوج ويتفق الشكل مع المضمون الشعبي للعمل.

وللتمثيل على ما نقول نشير مجدداً إلى تلك الاسماء الساعية إلى ترسيخ المسرح الشعبي: المنصف السويسي في تونس، قاسم محمد في العراق، سعدالله ونوس في سوريا، الطيب الصديقي في المغرب، سمير العصفوري في مصر... سمير العصفوري كمخرج طليعي برز بشكل واضح ومؤثر منذ الستينات ولا يزال يركز اهتمامه على ضرورة تأسيس المسرح الشعبي التجريبي عملا بشعار مسرح الطليعة المصري والذي يقول: سيظل تراثنا الشعبي مرجعا اساسيا للمسرح المصري التجريبي.

وسمير العصفوري مخرج متميز.. جاد.. وملتزم جرب واجتهد في صياغة رؤية اخراجية خاصة في أعمال المسرح الحديث والمعاصر.

عبر التجريب غير المنقطع انكب سمير العصفوري على المسرح التراثي الشعبي فجرب وسائل العرض المسرحي في «مأساة الحلاج» و«ايزيس» ونصوص شوقي عبدالحكيم الباحث هو الآخر عن صيغة شعبية عربية للمسرح و«ياعنتر وأبوزيد» ثنائية يسري الجندي.

ويحرص سمير العصفوري على ضرورة الفهم والرؤية والتصور العربي لا ذلك التصور المأخوذ عن تقاليد المسرح الشعبي الاوربي.. وله محاذيره في تناول التراث ومخاوفه من الابتعاد عن البيئة الحقيقية للدراما الشعبية والاقتراب من الروح السياحية والتسجيلية العقيمة أو الانكباب غير الواعي على التراث.. وكلها محاذير وقع فيها بعض أهل المسرح العربي إما لقلة الخبرة واما لقصور في التصور.

وقد كانت تجربة العصفوري في «ياعنتر وأبوزيد الهلالي» محاولة طيبة كموقف من التراث ـ البطولة الاسطورية ، وكرؤية اذ حاول العصفوري كما يقول «تمزيق الرؤية الرومانسية الخيالية عن التراث ودفع الابطال على المسرح في موقف معاصر».

ويتواصل فكر سمير العصفوري مع جهود من سبق ان ذكرناهم، ويثمن ايجابيا التجربة باعتبار انها لم تنحصر في عنصر دون غيره من عناصر

العرض المسرحي بل شملت كل العناصر حتى تلك الثانوية من اجل فرجة شعبية مفيدة.

وفي اطار الجهد العربي في مصر لايجاد مسرح شعبي تقف تجربة سمير العصفوري حافزا للجيل الجديد من المخرجين الملتزمين وما تجربة المخرج الشاب محسن حلمي (دقة زار) الا محاولة في هذا الاتجاه الساعي إلى ايجاد تجانس كامل بين الشكل والمضمون الشعبي.

لكن ما يحز في النفس ان يحرم الجمهور العربي من مشاهدة تجارب هذا التيار الفاعل وان تظل العلاقات المسرحية الاصيلة الجادة محجوبة عن جمهورها المتعطش لها.. أو يعتم عليها غبار وضجيج المسرح التجاري الاستهلاكي الهابط الذي يخيم على ا لحياة المسرحية العربية.

على أن الامل يكبر من جهة أخرى عبر ذلك الحرص الذي تظهره الدراسات المسرحية والمتابعات الجادة للجهود الرامية إلى تأصيل المسرح العربي وتأسيس المسرح الشعبي.. فالدوريات والمجلات المتخصصة والكتب عبرت طوال العقد الفائت عن حرصها على التجربة وسعيها لتأسيس نظري لها... ولعل خير مثال على هذا هو كتابات د. على الراعي، د. بلقاسم النصيري، روجيه عساف، ود. محمد يوسف نجم وعبد الكريم برشيد ود. خالد المبارك وعز الدين المدني وقاسم محمد ورياض عصمت وجلال خوري ويعقوب شدراوي وغيرهم.

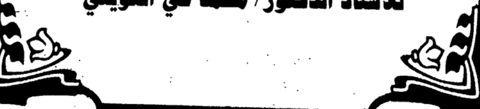
نحن على قناعة بأن الموضوع يعني ويهم كل مسرحي. وان الحوار فيه لابد يتصل لمزيد من الاضاءة والتعريف بذلك الجهد الرامي إلى رفد الحركة المسرحية العربية بما يعينها على مزيد من التميز والخصوصية..

انها اذن دعوة للحوار.

المحاضرة العاشرة

قضايا الإعلام السياسي
في منطقة الخليج

للاستاذ الدكتور/ محمد علي العويني



الاستاذ الدكتور محمد علي العويني

● من مواليد جمهورية مصر العربية.

● حصل على درجة البكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ٦٧ والماجستير ١٩٧١.

- حصل على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية جامعة القاهرة ١٩٧٥.

● مدرس الاعلام الدولي والعلاقات الدولية بكلية الاعلام - جامعة القاهرة.

- عمل كاستاذ مساعد بكلية الإعلام بجامعة القاهرة وكلية العلوم الادارية والسياسية بجامعة الامارات.

- شارك في حلقات دراسية دولية بجامعات باريس، بلجيكا، المانيا الغربية.

- مثل جامعة الدول العربية في عدد كبير من المؤتمرات واللجان والحلقات الدراسية الدولية.

● كتب العديد من المقالات في الصحف والمجلات العربية.

● له العديد من المؤلفات اهمها:

- الاعلام الاسلامي الدولي بين النظرية والتطبيق.
- الاعلام الدولي بين النظرية والتطبيق.
- الاعلام العربي.
- الراديو والتنمية السياسية.
- العلاقات الدولية المعاصرة.
- الفكر والنظم السياسية العربية.

● شارك في العديد من البرامج في الراديو والتلفزيون.

قضايا الاعلام السياسي في منطقة الخليج

يتمثل مكان هذه الدراسة في دول مجلس التعاون الخليجي، أي دولة الإمارات العربية المتحدة، وقطر، والبحرين، وعمان، والكويت، والعربية السعودية بوجه عام، ودولة الإمارات بوجه خاص.

أما مجال الدراسة فهو الإعلام السياسي، وهذا المجال يعد مجالاً بينياً Interdisciplinary اي يزاوج بين الاعلام والسياسه، اي انه يستخدم الاعلام بصفة وسيلة medium، ويستخدم السياسة بصفتها مضموناً Content. وبهذا المفهوم يعد الاعلام السياسي شكلا ومضموناً، والسياسة هنا تتعرض للظواهر السياسية بالمفهوم الواسع، اي انها وان كانت في المقام الاول سياسية الا انها تأخذ في الحسبان الجوانب الاخرى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية وغيرها، وتغلفها بالغلاف السياسي.

الدراسة هنا تعد استطلاعية، اذ انها تلمس الجوانب السياسية في الموضوع، اذن هذا الموضوع لم يدرس بعد، وبالتالي فانني هنا، استطلع الموضوع في اطار الدراسات المتوفرة عن الاعلام والعلوم السياسية عن الناحية النظرية، والتطبيقية، والمصادر المكتوبة المتوفرة عن السياسة والاعلام في منطقة الخليج، بالاضافة إلى ملاحظة الظاهرة، ومعايشتها في المنطقة.

وهذا قد يعتبر مقدمة لدراسة تفصيلية عن هذا الموضوع آمل ان انتهى منها، وتنشر لامكانية الاستفادة منها ولا سيما في مجال اجهزة الاعلام الخليجية.

وبالتالي فالدراسة ليست نقلا عن مراجع اجنبية أو عربية ولكنها في الاساس رصد جديد لهذا الموضوع من خلال زواياه المختلفة.

● القوة الذاتية للاعلام

يمكن القول ان للاعلام قوتين، قوة ذاتية، وقوة يعكسها وفيما يتعلق بالقوة الذاتية للاعلام، فتتكون من عدة مكونات. منها قوة القائم بالاتصال، وقوة الوسائل المستخدمة وقوة المضمون، وقوة تكنولوجيا الاعلام، ومدى الالمام بخصائص المستقبل، ومدى تحديد فاعلية الاعلام بالاضافة إلى عامل التوقيت في الاعلام. والاستمرارية ومدى استفادة هذه المكونات بعضها من البعض الاخر، بحيث ان كل مكون يتأثر قوة وضعفا بالمكون الاخر، ومحصلة هذه القوى مجتمعة تعني القوة الذاتية للاعلام، وهذه القوى تساند بعضها البعض، بحيث ان محصلتها النهائية تساهم في تحديد القوة الذاتية للاعلام، ايجابا او سلبا.

وقد تكون القوة الذاتية للاعلام نسبية التقدير، لاسيما في المجال الدولي حيث تسود الحروب الاعلامية او المواجهات الاعلامية الساخنة، او الباردة حسب الأحوال ووفقا لهذا المنطلق فان اعلاما معيناً قد يكون قويا ذاتيا في مواجهة اعلام اضعف منه ذاتيا، وقد يكون ضعيفا ذاتيا في مواجهة اعلام اقوى منه ذاتيا ، وهنا نجد نسبية القوة الذاتية للاعلام.

● القوة التي يعكسها الاعلام

يعد الاعلام مهما بلغ من القوة انعكاسا للاوضاع القائمة، وهنا يمكن ان يعتبر بمثابة المرآة، فان كان له قوة ذاتية، فان له قوة يعكسها، واذا كانت القوة الذاتية مهمة، فان القوة التي يعكسها تعد اكثر اهمية.

وتتمثل القوة التي يعكسها الاعلام في القوة السياسية، والقوة الاقتصادية، والقوة العسكرية، والقوة الاجتماعية، وغيرها. فكلما كانت محصلة القوة التي يعكسها الاعلام ملائمة كلما اعطى ذلك للاعلام قوة، هي اصلا ليست قوته، ولكن قوة القوى التي يعكسها، اي ان مكونات القوة التي يعكسها الاعلام تنعكس سلبا وايجابا على الاعلام في حد ذاته.

وتأتي القوة التي يعكسها الاعلام في المقام الاول، وتأتي القوة الذاتية للاعلام في المقام الثاني، ولكن الوضع المثالي هو توفر القوة الذاتية للاعلام، والقوة التي يعكسها الاعلام.

ويلاحظ ان مفهوم القوة التي يعكسها الاعلام، يعد مفهوما نسبيا، فقد تبدو القوة التي يعكسها الاعلام لدولة معينة اقوى من القوة التي يعكسها

الاعلام لدولة أخرى، وقد تبدو القوة التي يعكسها الاعلام لدولة معينة اضعف من القوة التي يعكسها الاعلام لدولة أخرى.

واذا ربطنا بين القوة الذاتية للاعلام، والقوة التي يعكسها الاعلام.. يبدو من الأهمية ان نقدم القوة التي يعكسها الاعلام على القوة الذاتية للاعلام، وفقا لمايلي:

الوضع الاول

القوة التي يعكسها الاعلام + القوة الذاتية للاعلام = القوة التي يعكسها الاعلام والقوة الذاتية للاعلام

اي ق + ق = ٢ ق للاعلام

الوضع الثاني

القوة التي يعكسها الاعلام + الضعف الذاتي للاعلام = القوة التي يعكسها الاعلام والضعف الذاتي للاعلام

اي ق + ض = ق ض

الوضع الثالث

الضعف الذي يعكسه الاعلام + القوة الذاتية للاعلام = الضعف الذي يعكسه الاعلام والقوة الذاتية للاعلام

اي ض + ق = ض ق

الوضع الرابع

الضعف الذي يعكسه الاعلام + الضعف الذاتي للاعلام = الضعف الذي يعكسه الاعلام والضعف الذاتي للاعلام

اي ض + ض = ٢ ض

واضح مما سبق ان الوضع الاول هو الوضع المثالي وان الوضع الثاني يسبق الوضع الثالث، لأن القوة التي يعكسها الاعلام تسبق القوة الذاتية للاعلام، اي ان الوضع الرابع هو اسوأ الأوضاع.

- **القوة الذاتية للاعلام في منطقة الخليج**

تتنامى القوة الذاتية للاعلام في منطقة الخليج، نظرا للتطورات والامكانيات

المتعلقة بهذه الدول، فقد اعطت القوة البترولية دفعة قوية لمكونات القوى في الدول العربية الخليجية وقد انعكس ذلك على القوة الذاتية للاعلام في هذه الدول. وذلك في مجالات القائم بالاتصال، والوسائل المستخدمة، والمضمون وقوة تكنولوجيا الاعلام وغيرها.

واذا اخذنا دولة الامارات العربية المتحدة كحالة للدراسة نلاحظ القوى المتنامية لتليفزيون ابوظبي وتلفزيون دبي[1].

وفي هذا الصدد ابرمت عقود لتقوية الارسال التلفزيوني فوق جبل حفيت بمنطقة العين حتى تغطي هذه المحطة هذه المنطقة بشكل كامل. كما اقيمت محطة جديدة لتقوية الارسال التلفزيوني برأس الخيمة لتقوية وتوضيح ارسال المحطة الرئيسية من ابوظبي وذلك في امارة رأس الخيمة وانتهى العمل في هذه المحطة في اكتوبر ١٩٧٩. كما بدأت في ديسمبر ١٩٧٩ المرحلة التنفيذية في انشاء احد الاستوديوهات التلفزيونية في تليفزيون الامارات العربية المتحدة من ابوظبي.

وفي يونيو ١٩٧٧ بدأت وكالة انباء الامارات ارسالها رسميا كما تشارك وكالة انباء الامارات في وكالة انباء الخليج ومقرها البحرين، وهي عضو مؤسس فيها.

وفيما يتعلق بالصحافة، توجد خمس صحف يومية ناطقة بالعربية وهي الاتحاد وصدرت في ٢٠ اكتوبر ١٩٦٩، والوحدة التي صدرت في ٦ اغسطس ١٩٧٣، والفجر التي صدرت في ١٧ مارس ١٩٧٥، والخليج التي صدرت في ١٩ اكتوبر ١٩٧٠، والبيان التي صدرت في ١٠ مايو ١٩٨٠.

أما الاسبوعيات فهي اربعة، الظفرة وصدرت في ٢٣ ابريل ١٩٧٤، والأزمنة العربية وصدرت في ٨ مارس ١٩٧٩ وتم وقف صدورها في ١٩٨١، و«هي» التي صدرت في يناير ١٩٧٨ وزهرة الخليج التي صدرت في اول ابريل ١٩٧٩، والاخيرتان نسائيتان.

وهناك دوريات اخرى تصدر عن المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية والاندية والجمعيات ويوضح ذلك الجدول التالي[2]:

---

(١) **الكتاب السنوي ١٩٧٩ ـ ١٩٨١**، دولة الامارات العربية المتحدة وزارة الاعلام والثقافة، ابوظبي، ص ٥ ـ ٥١.

(٢) **الصحف والمجلات المحلية التي تصدر في دولة الامارات**، مركز التوثيق الاعلامي وزارة الاعلام والثقافة، دولة الامارات العربية المتحدة ص ١ ـ ٥.

اسم الصحيفة	صاحبها	نوعها	موعد الصدور	مكان الصدور	تاريخ الصدور
جريدة الاتحاد	مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع	سياسة	يومية	ابوظبي	٦٩/١٠/٢٠
جريدة الوحدة	مؤسسة الظفرة	سياسية	يومية	ابوظبي	٧٣/٨/٦
جريدة الفجر	عبيد المزروعي	سياسية	يومية	ابوظبي	٧٥/٣/١٧
جريدة الخليج	دار الخليج للصحافة والنشر	سياسية	يومية	الشارقة	٧٠/١٠/١٩
جريدة البيان	البيان	سياسية	يومية	دبي	٨٠/٥/١٠
مجلة الايام	يوسف عمران	سياسية شاملة	اسبوعية	ابوظبي	٦٩/٦/٢٥
مجلة ابوظبي	غرفة صناعة وتجارة ابوظبي	اقتصادية	شهرية	ابوظبي	اكتوبر ١٩٧١
مجلة منار الاسلام	وزارة العدل والشؤون الاسلامية	اسلامية	شهرية	ابوظبي	٨ محرم ١٣٩٥ هـ
مجلة الشرطة	وزارة الداخلية	امنية	شهرية	ابوظبي	نوفمبر ١٩٧٥
مجلة اخبار البترول والصناعة	وزارة البترول والثروة المعدنية	اقتصادية	شهرية	ابوظبي	ابريل ١٩٧٠
مجلة درع الوطن	مديرية العلاقات العامة والشئون المعنوية	عسكرية	شهرية	ابوظبي	اول أغسطس ٧١
مجلة التربية	الاعلام التربوي وزارة التربية		فصلية	ابوظبي	يناير ١٩٧٩
مجلة اخبار دبي	دائرة الاعلام ببلدية دبي	اعلامية	اسبوعية	دبي	١٦ يناير ٦٥
مجلة رأس الخيمة	دائرة الاعلام والسياحة	اعلامية	شهرية	رأس الخيمة	يوليو ١٩٦٩
مجلة الاصلاح	اللجنة الثقافية جمعية الاصلاح والتوجيه الاجتماعي دبي	اجتماعية	شهرية	دبي	ربيع اول ١٣٩٨ هـ
مجلة التجارة	غرفة تجارة وصناعة الشارقة	اقتصادية	شهرية	الشارقة	ابريل ١٩٧٢
مجلة الامن	قيادة شرطة دبي	امنية	شهرية	دبي	ابريل ١٩٧٥

مجلة الجندي	ادارة الشئون المعنوية والثقافة وزارة الدفاع دبي	عسكرية	شهرية	دبي	اكتوبر ١٩٧٣
مجلة العهد الجديد	الجمعية النسائية ام القيوين	نسائية وفنية	شهرية	ام القيوين	نوفمبر ١٩٧٣
مجلة بلدية رأس الخيمة	بلدية رأس الخيمة	ثقافية تعنى بالشئون البلدية	شهرية	رأس الخيمة	٢٥ مايو ١٩٧٧
جريدة الخليج تايمز بالانجليزية	عبداللطيف كلداري	سياسية	يومية	ابوظبي	١٤ ابريل ١٩٧٨
مجلة القافلة	جمعية الفنون الشعبية بأم القيوين	فنية		ام القيوين	١٩٧٧
مجلة التنمية في الخليج	مؤسسة التنمية للاعلام		دورية كل ٣ شهور	ابوظبي	
مجلة صوت المرأة	اللجنة الثقافية جمعية الاتحاد النسائي الشارقة	نسائية	فصلية	الشارقة	٢٥ مارس ١٩٧٦
مجلة الصناعة والتجارة	غرفة تجارة وصناعة دبي	اقتصادية	شهرية	دبي	١ نوفمبر ٧٥
جريدة اخبار الخليج جلف نيوز		سياسية	يومية	دبي	٣ نوفمبر ١٩٧٩
الدبلوماسي	وزارة الخارجية	سياسية	شهرية	ابوظبي	اول فبراير ١٩٨٠
المسيرة	اللجنة الثقافية نادي عمان الثقافي الرياضي	ثقافية اجتماعية	شهرية	رأس الخيمة	مارس ١٩٨٠
الطيران المدني	دائرة الطيران المدني ابوظبي	علمية	شهرية	ابوظبي	فبراير ١٩٨٠
مجلة الفريدة	نادي ابوظبي السياحي	رياضية	شهرية	ابوظبي	سبتمبر ١٩٧٦
مجلة الظفرة	مؤسسة الظفرة	سياسية	اسبوعية	ابوظبي	٢٣ مارس ١٩٧٤
مجلة زهرة الخليج	مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر	نسائية	اسبوعية	ابوظبي	اول ابريل ١٩٧٩
مجلة ماجد	مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر	شئون الاطفال	اسبوعية	ابوظبي	٢٨ فبراير ١٩٧٩
اميرتس نيوز	مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر	سياسية	يومية	ابوظبي	٧ مايرو ١٩٧٠
مجلة هي	مؤسسة الظفرة	نسائية	اسبوعية	ابوظبي	اول يناير ٧٨

واضح مما سبق التعدد في عدد الصحف ونوعياتها رغم ان عدد السكان يقدر بحوالي مليون وربع، وهذه ظاهرة متميزة في الدول العربية والدول النامية عموماً.

ويبين الجدول التالي متوسط البث الاذاعي اليومي في دولة الامارات العربية المتحدة حسب المادة المذاعة عام ١٩٧٩[1]:

الاذاعة	ابوظبي			ام القيوين			رأس الخيمة		
	المدة الزمنية			المدة الزمنية			المدة الزمنية		
المادة الاذاعية	ق	س	٪	ق	س	٪	ق	س	٪
قرآن كريم	٥	١	٦ر٥	٣٠	-	٩ر٤	٤٢	-	٩ر٥
برامج دينية	٢٨	١	٦ر٧	١٨	-	٩ر٢	٣٦	-	١ر٥
اخبـــار	٥٥	١	١٠	٤٨	-	٨ر٧	٣٠	١	٧ر١٢
برامج اخبارية وسياسية	١٩	-	٦ر١	١٢	-	٢	٥	-	٧ر
برامج ثقافية وادبية	١٥	١	٥ر٦	٤٢	-	٨ر٦	٥٠	-٠	٧
برامج الخدمات	١٥	١	٥ر٦	٢٤	-	٩ر٣	٥٠	-	٧
برامج المنوعات	٥٠	١	٥ر٩	٣١	١	٨ر١٤	٥٥	-	٧ر٧
غناء وبرامج غنائية	٣٠	٨	٢ر٤٤	٣٥	٣	٢٥	٣٥	٥	٢ر٤٧
دراما	٢	١	٤ر٥	٣٠	١	٧ر١٤	٣٨	-	٤ر٥
البرامج الشعبية	٣٠	-	٦ر٢	٣٠	-	٩ر٤	٩	-	٣ر١
أخـــرى	٦	-	٥ر	١٤	-	٣ر٢	-	-	-
الجملة	١٥	١٩	١٠٠	١٤	١٠	١٠٠	٥٠	١١	١٠٠

واضح ان الغناء والبرامج الغنائية تحتل مكانة عالية تقدر بـ ٢ر٤٤٪ في ابوظبي ، ٢ر٤٧٪ في رأس الخيمة ، ٣٥٪ في ام القيوين، ويحتل القرآن والبرامج الدينية ٢ر١٣٪ في ابوظبي، ٨ر٧٪ في ام القيوين، ١١٪ في رأس الخيمة، أما الاخبار والبرامج الاخبارية والسياسية فتحتل ٦ر١١٪ في ابوظبي، ٨ر٩٪ في ام القيوين، ٤ر١٣٪ في رأس الخيمة.

(١) المجموعة الاحصائية السنوية، العدد الخامس، وزارة التخطيط دولة الامارات العربية المتحدة ١٩٨٠، ص ٣٤٣.

ويوضح الجدول التالي متوسط ساعات البث التلفزيوني الاسبوعي في دولة الامارات العربية المتحدة حسب المادة المذاعة عام ١٩٧٩[١]:

التلفزيون	ابوظبي			رأس الخيمة		
	المدة الزمنية			المدة الزمنية		
المادة المذاعة	ق	س	٪	ق	س	٪
قرآن كريم	٣٠	٣	٨ر٣	٤٥	١	٦ر٤
برامج دينية	٤٥	٨	٦ر٩	-	-	-
اخبار	-	٧	٧ر٧	-	-	-
برامج اخبارية وسياسية	٣٠	٣	٨ر٣	-	-	-
برامج ثقافية وادبية	٣٠	١٧	٣ر١٩	٣٠	٣	١ر٩
برامج الخدمات	٣٠	٣	٨ر٣	-	-	-
برامج المنوعات	٤٥	٨	٦ر٩	٣٠	٨	٢ر٢٢
غناء وبرامج غنائية	١٥	٥	٨ر٥	٣٠	١	٤
دراما	-	١٤	٤ر١٥	٣٠	٣	١ر٩
البرامج الشعبية	١٥	٥	٨ر٥	-	١١	٨ر٢٨
أخرى	-	١٤	٤ر١٥	٣٠	٨	٢ر٢٢
الجملة	-	٩١	١٠٠	١٥	٣٨	١٠٠

هذا ولم تتوفر معلومات عن تلفزيون دبي، وفيما يتعلق بتلفزيون ابوظبي يلاحظ ان القرآن والبرامج الدينية تحتل ٤ر١٣٪، اما الاخبار والبرامج الاخبارية والسياسية فتحتل ٥ر١١٪ وتحتل البرامج الثقافية والادبية ٣ر١٩٪.

وفيما يتعلق بعدد الافلام المعروضة من خلال القوافل الثقافية موزعة حسب الامارة عام ١٩٧٩ فكانت كمايلي[٢]:

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٤٤

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٣٤٥

الامارة	عدد الافلام
ابوظبي	٥٩٨
العين	٢٥٤
الجملة	٨٥٢
دبي	٢٨٧
الشارقة	١٤٧
عجمان	١٥٠
ام القيوين	١٤٢
رأس الخيمة	٣٧٢
الفجيرة	٣٢١
الجملة	٢٢٧١

اي ان ابوظبي تأتي في المرتبة الاولى ويليها رأس الخيمة والفجيرة، ثم دبي ثم عجمان والشارقة واخيرا ام القيوين.

واضح مما سبق القوة الذاتية المتنامية للاعلام في دولة الامارات العربية المتحدة من حيث العتاد الاعلامي وتكنولوجيا الاعلام وعدد اجهزة الارسال وقوة الارسال ومحطات التقوية. وعدد الصحف ونوعياتها.

وبينما يتم التعرض للراديو بدرجة اكبر من التليفزيون في الدول النامية نجد التعرض يتم بدرجة اكبر بالنسبة للتليفزيون ويليه الراديو وذلك في الدول البترولية العربية الخليجية، نظرا للقوة الاقتصادية وتأثيرها على قوة شراء وسائل الاعلام.

ويلاحظ ان الوسيلة المسموعة والمرئية تأتي في المرتبة الاولى ويليها الوسيلة المكتوبة نظراً لارتفاع معدل الأمية في الدول محل الدراسة، مما يقلل من درجة القابلية للقراءة readability يزيد من درجة القابلية للانصات listenability وان كانت النخبة وقادة الرأي يتعرضون بشكل بارز للوسيلة المكتوبة، الأمر الذي يبين اهميتها.

ومع ذلك لازالت هناك مشاكل فيما يتعلق بالكوادر الاعلامية فلا زالت نسبة كبيرة منها وافدة من الدول العربية، وبالطبع يحمل بعضها عقائد سياسية، بالاضافة إلى مشاكل تاهيل هذه الكوادر سواء بمعيار الخبرة او معيار التخصص التعليمي وانعكاس ذلك على المضامين المستخدمة في الوسيلة الاعلامية فقد تخدم عقيدة سياسية معينة أو تشهر بزعامة معينة، او تهتم بقضايا معينة، سواء اكان ذلك مستترا او غير مستتر. اي ان القوة الذاتية للاعلام السياسي الخليجي تحتوي على مكونات ايجابية ومكونات سلبية.

القوة التي يعكسها الاعلام في منطقة الخليج

لا شك ان القوة السياسية المتنامية للدول العربية في مجلس التعاون الخليجي والقوة الاقتصادية اساسا، والقوة العسكرية، والقوة الاجتماعية، كل ذلك انعكس على الاعلام الخليجي بالقوة، وهذه القوة هي اصلا ليست قوة الاعلام الخليجي، ولكن قوة القوى التي يعكسها ولاسيما القوة البترولية.

فالنفط احدث تغييرا كبيرا في البنيان الاقتصادي لدولة الامارات بينما كان اهم مصادر الانتاج قبل ظهور النفط يتمثل في صناعة اللؤلؤ وصيد السمك والرعي والثروة الحيوانية والتجارة ـ ومع الطفرة البترولية زادت القوة التي يعكسها الاعلام.

وقد انعكس ذلك على الصادرات النفطية وقيمتها، اذ ان اجمالي قيمة الصادرات النفطية قد زاد من ٢٦٦٤٢ مليون درهم عام ١٩٧٥ إلى ٣٣٤٢٩ مليون درهم عام ١٩٧٨، اي بزيادة تقدر بـ ٥ر٢٥٪.

وفيما يتعلق بالزيادة السنوية للصادرات النفطية خلال الفترة من ١٩٧٥ ـ

١٩٧٧، فقد زادت بنسبة ١ر٢٣٪ عام ١٩٧٦ مقارنة بعام ١٩٧٥، وزادت بنسبة ٢ر٩٪ عام ١٩٧٧ مقارنة بعام ١٩٧٦، وزادت بنسبة ٦ر٦٪ عام ١٩٧٨ مقارنة بعام ١٩٧٩[١].

ويؤخذ في الاعتبار التغيرات الاجتماعية السائدة، والتحديث والتغيرات في بنيان الحكم بالاضافة إلى ارتفاع معدل التعليم وزيادة التكامل السياسي والاجتماعي وبروز الولاء للدولة بالاضافة إلى الصراع الدولي تجاه المنطقة.

كل ذلك يساهم في تفهم تزايد عدد السكان في هذه الدول بالاضافة إلى الانتقال من المجتمعات التقليدية إلى المجتمعات الانتقالية والسياسات الاجتماعية الخاصة بتحقيق معدلات عالية من الداخل لمواطني هذه الدول.

اي ان الطفرة الجديدة في دول مجلس التعاون الخليجي بوجه عام اعطت قوى وامكانيات جديدة زادت من مكونات قوتها وبالتالي انعكست على الاعلام السياسي الخليجي.

قضايا الاعلام السياسي في منطقة الخليج.

هناك العديد من قضايا الاعلام السياسي في منطقة الخليج، التي تجسد التفاعل بين السياسة والاعلام، وسيساعدنا العرض السابق الخاص بالقوة الذاتية للاعلام، والقوة التي يعكسها الاعلام، والقوة الذاتية للاعلام في منطقة الخليج، والقوة التي يعكسها الاعلام في منطقة الخليج، على تفهم قضايا الاعلام السياسي في هذه المنطقة، ومن هذه القضايا:

١ ـ التدفق الاعلامي الدولي في منطقة الخليج.
٢ ـ التنمية الوطنية في منطقة الخليج.
٣ ـ الدعاية المضادة في منطقة الخليج.
٤ ـ المسئولية الاجتماعية.

---

(١) انظر التجارة الخارجية والميزان التجاري في دولة الامارات العربية المتحدة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٩، وزارة التخطيط، دولة الامارات العربية المتحدة فبراير ١٩٧٩، ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

٥ ـ القائم بالاعلام.
٦ ـ مضمون الاعلام.
٧ ـ وسائل الاعلام.
٨ ـ جمهور الاعلام.
٩ ـ تأثير الاعلام.
١٠ ـ تعليم الاعلام.
١١ ـ تكنيكات الاعلام.

التدفق الاعلامي الدولي في منطقة الخليج

يتسم الاعلام الدولي بسوء توزيع مصادر الانباء في العالم، اذ انه بفضل الامكانيات والتقدم التكنولوجي والسياسات الخارجية الاكثر نضجا من غيرها، ان تمكنت الدول المتقدمة من التحكم في وسائل الاعلام الدولي[(١)].

وذلك من خلال وكالات الانباء الدولية، والاذاعات الدولية، والصحف والمجلات الدولية وهكذا تركزت وسائل الاعلام في الدول المتقدمة اما الدول النامية وكذلك الدول البترولية ومنها دول مجلس التعاون الخليجي فتعد دولا تابعة اعلاميا[(٢)].

كما ان وسائل الاعلام الدولي تقوم بدور الوسيط بين الدول النامية، ومنها دول مجلس التعاون الخليجي، والدول العربية والاسلامية اذ تخدم في المقام الاول سياسات الدول التابعة لها اي ان الدول التابعة تتعرف على بعضها البعض من خلال الوسيط الاعلامي الاجنبي، كما تعتمد اساسا على استيراد العتاد الاعلامي من الخارج[(٣)].

---

(١) انظر/ د. محمد علي العويني، العلاقات الدولية المعاصرة: النظرية، التطبيق الاستخدامات الاعلامية، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٢، ص ص٢١٣.

(٢) د. محمد على العويني، الاعلام الدولي بين النظرية والتطبيق، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٨١ ص ص ٥٣ ـ ٥٤، ٥٧ ـ ٦٠، ٦٣ ـ ٦٥.

(٣) - Sympsium Ljubljana 1968 Mass Media and International Understanding, Ljubljana, 1968.

وحيث ان وسائل الاعلام الدولي تخدم سياسات معينة، فانها تغطي قضايا الدول النامية بشكل لا يمثل حيزا يتمشى مع هذه القضايا بل بشكل يشوه هذه الدول، ومنها دول مجلس التعاون الخليجي، منها مثلا جعل هذه الدول مسئولة عن ارتفاع اسعار البترول، وعدم استقرار النظام الاقتصادي الدولي، وتقديم صور نمطية سلبية للعرب، ووصفهم بانهم متوحشون وجبناء ومنحطون، وتقديم البدوي في شكل غير واقعي، ووصف العرب بالتعطش للدماء، وانهم متعطشون للجنس، وخداعون، ويتحدثون عن شيوخ النفط الذين يمتلكون الجمال، والسيارات الكاديلاك كما بدأوا في ضم الشقروات الامريكيات إلى قوافل الحريم، وانهم تجار رقيق ومولعون بالجواري.

وفي احد المسلسلات الغربية يصور احد العرب المسلمين صورة مشوهة فقد اشترى خمس طائرات نفاثة، اربعاً بيضاء لكل من زوجاته الاربع، وواحدة زرقاء لأخية، وسرعان ما يقتل الشيخ على يد اخيه، واذا تناولنا الاستثمارات في الولايات المتحدة لوجدنا ان مصدرها الرئيسي هو هولندة، وبريطانيا وكندا والمانيا ولكن الاعلام الغربي يصور العرب بأنهم يحاولون شراء الولايات المتحدة وانهم يهددون الحضارة بالدمار.

وتتحدث الدعاية الغربية عن فساد اللغة العربية، وانها لغة لا يستطيع الفرد ان يعبر بها عن الحقيقة.

وقد استنتج المعهد الامريكي للاعلام السياسي في دراسة له ان معلقا واحدا من اصل ١٨ معلقا يكتبون من واشنطن اعطى صورة واضحة عن اهداف العرب ومشاكلهم.

وتعد القوة البترولية، عاملا اضافيا، وعلى سبيل المثال تحدثت الصنداي تايمز في ٢٥ يوليو ١٩٧٦ عن قوافل سيارات الرولز رويس خارج مخازن هارودز وتقول هذا يذكرنا بقوافل الجمال التي تنتظر لتحمل كنوز السلطان.

وتتهم الصحافة البريطانية العرب باساءة استخدام المرافق العامة والازعاج من خلال اصوات التليفزيون المرتفعة ويربطون ذلك باسعار البترول، بل هناك ربطٌ بين نقود البترول وبناء المساجد في الدول البترولية، في محاولة تشويه الاسلام.

علما بأن بعض الخبراء يؤكدون انه في مقابل كل دولار يحصل عليه

العرب من النفط، فان الشركات الاجنبية تحصل على خمسة دولارات من جراء عمليات التسويق والنقل والتكرير والتصنيع كما ان العوائد التي تصل إلى العرب ترجع معظمها إلى العالم الغربي، في اطار الارصدة والحسابات فى المصارف أو شراء الاسلحة التي تتحول إلى خردة فيما بعد أو الاستيراد(١).

وهذا يؤكد أن التدفق الاعلامي الدولي يتم من جانب واحد Onesided، كما يلاحظ ان دول مجلس التعاون الخليجي والتي تعتمد على الاستيراد في الكتب والدوريات والافلام وورق الطباعة واجهزة التصوير والورق واجهزة الراديو والتليفزيون واجهزة الارسال والاستقبال واجهزة الطباعة، واجهزة تسجيل الصوت والأدوات العلمية والخرائط واللوحات ووسائل التعليم الاخرى.

ولذلك فان صيغة التدفق الحر والمتوازن للاعلام، تعد اكثر ملاءمة، فالتوازن الحر لا يخل بالتوازن بين الدول الاقوى اعلاميا والدول الضعيفة اعلاميا، اي انه حر ومتوازن، ومن هذا يصعب تنفيذه علميا، لان الاعلام الدولي من مظاهر القوة في العلاقات الدولية، وبالتالي فهو يعكس هذه القوى.

وبالتالي فان مواجهة الدول الخليجية وغيرها من الدول النامية للنظام الاعلامي الدولي لا تكون بالدعوات او الدعوة إلى ما يسمى بالنظام الاعلامي الدولي الجديد الذي يحقق صيغة الاعلام الحر والمتوازن، ولكن من الأهمية التركيز على قواها واعادة النظر فيها، واي تغيير في هذه القوى سينعكس على النظام الاعلامي الدولي.

ورغم ذلك تحاول دول مجلس التعاون الخليجي ان تتخلص من سلبيات التدفق الاعلامي الدولي الحالي، من خلال الاساليب المباشرة وغير المباشرة، ومنها انشاء وكالات الانباء الوطنية ووكالة انباء الخليج التي تقوم بمجهود لازال في البداية، وفقا للجدول التالي:

---

(١) انظر د. محمد على العويني ، في اوربا وامريكا: كيف ينظرون إلى العرب والمسلمين جريدة الاتحاد، ابوظبي ١٢ مارس ١٩٨١.

اسم الدولة	عدد الاخبار التي بثت عنها
ـ دولة الامارات العربية المتحدة	٢٥٦٢
ـ العراق	٢٢٦٣
ـ المملكة العربية السعودية	١٣٠١
ـ قطر	٦٣٣
ـ عمان	٣٠٤

وهكذا يبين الجدول السابق عدد الاخبار التي بثتها وكالة ابناء الخليج عن دول الخليج المشاركة فيها في الفترة ما بين بدء بثها الرسمي في مطلع ابريل ١٩٧٨ ونهاية ديسمبر ١٩٧٨[١].

وواضح ان هذه محاولة من المحاولات ولكن الطريق لازال طويلا[٢].

التنمية الوطنية في منطقة الخليج

هناك علاقة ارتباطية بين وسائل الاعلام والتنمية الوطنية، وهناك من يربط بين مقاييس النمو الاقتصادي ومقاييس النمو الاعلامي وعلى سبيل المثال فان دانيل ليرنر لاحظ وجود علاقة ارتباطية قوية بين اربعة عوامل وهي التحضر ومعرفة القراءة والكتابة، والاقبال على وسائل الاعلام والمشاركة السياسية.

كما ان وسائل الاعلام تقوم بدور يعتد به في تحقيق الوعي الوطني، بالاضافة إلى العلاقة الوثيقة بين البنيان الاعلامي وبنيان المجتمع وتطوره، كما يعمق الاعلام من الشعور بالوطنية Nation-ness والانتماء الديني.

(١) نشرة وكالة انباء الخليج، ٧ فبراير ١٩٧٩.

(٢) انظر:

- Philips w. Davison, International Political Communication, New York Frederick K.A. Praerger, 1965

ويزداد دور الراديو والتليفزيون في منطقة الخليج، حيث تسود الامية وتزداد اهمية المادة المسموعة والمرئية.

ويجب ان يؤخذ في الاعتبار الوزن الحقيقي لوسائل الاعلام في التنمية، فقد بالغ البعض في دور وسائل الاعلام، وقد اثبتت الدراسات ان الصحافة والراديو يمكن ان يكون لهما تأثير عميق في التغيير اذا صاحبهما استخدام الوسائل الاخرى للاتصال الاجتماعي حيث ان التنمية الوطنية السريعة تستدعي استخدام كل من وسائل الاعلام الجماهيرية والشخصية بالاضافة إلى الاتصال المباشر او المواجهي.

وفيما يتعلق بالمجتمعات الخليجية نلاحظ ان قبل البترول ساد نمط المجتمع التقليدي، وبالتالي لم تكن توجد وسائل اعلام جماهيري Mess Media بشكل حقيقي، ولكن وجدت وسائل اعلام للصفوة Elitmedia حيث كان معدل الامية مرتفعا بدرجة ضخمة، بالاضافة إلى العزلة القبلية بدرجة معينة وضعف تسهيلات النقل والمواصلات، وانخفاض المستوى الاقتصادي وبالتالي تصل وسائل الاعلام إلى الجماهير بصعوبة ومن هنا امتلكت هذه المجتمعات وسائل اعلام للصفوة او النخبة، ولم تمتلك وسائل اعلام جماهيري بالمعنى الحقيقي.

ومع ظهور البترول وتحقيق الطفرة الاقتصادية تحول المجتمع تدريجياً من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الانتقالي، وهنا تحولت وسائل الاعلام لتصبح وسائل اعلام جماهيري. حيث تتم مواجهة حواجز الامية، وزاد الثراء، وبالتالي زاد الاقبال على وسائل الاعلام وبالذات التليفزيون، ومن هنا تميزت وسائل الاعلام بالجماهيرية.

ويلاحظ ان المجتمعات الخليجية دخلت بعض مكونات المرحلة الثالثة من وسائل الاعلام وهي السائدة في اوربا الغربية وامريكا الشمالية اساسا، وهنا تصبح وسائل الاعلام متخصصة Specialized Media اذ توجد درجة عالية من التعليم والغنى وحجم معقول من السكان، واوقات فراغ، ومن هنا تبدو الحاجة إلى وجود مواد مكتوبة متخصصة، وبرامج متخصصة لمواجهة الحاجات المتعددة، كما ان توفر الاموال يساعد على اقتناء وسائل متعددة، كما ان الاسرة الواحدة يمكن أن تجد ليها مجموعة من الوحدات المتخصصة داخل

الوسيلة الواحدة وعلى سبيل المثال خمس مجلات واربعة اجهزة راديو وثلاثة اجهزة تليفزيون ... الخ .

ويتمثل وجود بعض خصائص هذه المرحلة في المجتمعات الخليجية من خلال اقتناء وسائل متعددة كأكثر من جهاز تليفزيون وأكثر من جهاز راديو واكثر من جهاز فيديو - اما سمات المرحلة ككل فلم تدخلها بعد .

ويلاحظ ان الاعلام يهيىء المناخ اللازم للتنمية في الدول الخليجية واذا استخدمت وسائل الاعلام بشكل معقول، فيمكن لها ان تساعد في تجميع القوى المنعزلة والقبائل المتنافرة والثقافات المحلية والافراد والجماعات المختلفة والمساعدة على دمجها في اطار التنمية الوطنية .

ويدخل في هذا الاطار السماح لكل جزء من الدولة ان يتعرف على الجزء الاخر ، ويمكن الشعب ان ينقل آراءه ومواقفه إلى صناع القرار السياسي ، وتحقيق التغيير الاجتماعي والسياسي ، كما ان الاعتبارات الكيفية الخاصة بطريقة استعمال وسائل الاعلام ونقل السياسة الاعلامية في مضمون يحتوي على المعنى ، ويتمشى مع مستقبل الرسالة الاعلامية ، تؤثر كثيرا في فاعلية دور الاعلام في التنمية .

ويدخل في اطار التغير الانتقال إلى عادات واساليب جديدة ، وادخال علاقات اجتماعية متطورة ، ويلاحظ ان عملية التنمية ليست سهلة ، فالعادات والاساليب التي يراد الابتعاد عنها او الأخذ بها تتصل اتصالا وثيقا بعادات ومعتقدات اخرى .

وقد يكون التليفزيون او الراديو قليل الفاعلية او سلبيا اذا استخدم بشكل غير علمي او استغل لاغراض شخصية ولم يركز على صانعي التنمية ، ومن الاهمية يزيد الاعتبار للاشخاص الذين يبرزون من خلال عملية التنمية ، والمساعدة في قيام قيم جديدة خاصة بتشجيع العمل والكفاءة اي التركيز على صانعي التنمية ، كما يمكن لها ان تزيد المشاركة السياسية وتحقيق الاستقرار السياسي وتغير المعايير الاجتماعية وتطور السلوك وترشيده بالقيم الدينية بالاضافة إلى دورها في التعليم ومحو الامية .

ومن الاهمية ان يكون هناك توازن في توزيع الاعلام بين المدن والقرى وتجمعات البدو ومضاربهم وان يكون المضمون الاعلامي في اطار اهداف

التنمية، مع الابتعاد عن التركيز على الشخصيات الهامشية وتنمية وسائل الاعلام في حد ذاتها، من خلال تطور المعدات الاعلامية والاعتماد على المتخصصين وليس ادعياء التخصص.

ويلاحظ وجود علاقة بين التغير الاعلامي Communication change والتغير السياسي Political change فالدور الجديد للاعلام وما يرتبط به من وسائل ومضمون وادوات يؤثر في التغيير السياسي وذلك بالتطور في القيم والمعتقدات السياسية في اطار الاتجاه نحو المجتمع الحديث اي ان انماط الاعلام المقدمة تؤثر في التغير السياسي وهناك علاقة بين النمو السريع في وسائل الاعلام وتزايد المشاركة السياسية اذ ان العامل الاول ينمي من المدركات السياسية للجماهير وبالتالي يزداد تفاعلها في الحياة السياسية.

وتقوم وسائل الاعلام بدور يعتد به في التنشئة، وتعد التنشئة السياسية Political socialization جزءاً من التنشئة بالمفهوم العام، وبالتالي فانها تتعلق بأنماط السلوك والتجارب السياسية وما يرتبط بها من قيم ومعتقدات.

وتقوم وسائل الاعلام بدور يعتد به في التحديث Modernization من خلال المساهمة في ايجاد بنيات تلاحق التطور وتأخذ بزمامه وتستجيب له بالاضافة إلى التطور في القيم والمعتقدات ويرتبط التحديث ببناء الامة building Nation كهدف للسياسة العامة وهذا البناء جزء من عملية التغير للوصول في النهاية إلى المجتمع الحديث وفي هذا الصدد فان وسائل الاعلام تعد محركات Movers للتنمية، بالاضافة إلى مساهمتها في تعميق الشعور الوطني والديني.

ويلاحظ ان الصحافة المسموعة والمرئية، تعد قوى هامة من قوى التحديث في المجتمعات التقليدية والانتقالية.

وفي احيان كثيرة يحدث التناقض بين الالتزام السياسي Political Commitment والموضوعية في مضمون رسالة الراديو والتليفزيون في الدول النامية، نظرا لخصائص المتلقي في الدول النامية فاطاره الثقافي محدود نسبيا بالاضافة إلى الامية، ومن هنا يبرز الالتزام السياسي لوسائل الاعلام على حساب الموضوعية في بعض الاحيان، نظرا للتركيز على اهداف التحديث وبناء الامة.

وهناك علاقة بين التعرض Exposure للراديو والتليفزيون من جانب،

والتغير من جانب اخر فـالـراديـو والتليفـزيـون كلاهمـا يسـاهـم في التغيـر الاجتماعي والسياسي، ويزداد هذا الدور حيث ترتفع درجة التعرض للراديو وتفضيله على الوسائل الاخرى

ومن الأهمية بمكان الربط بين القيم الروحية والتنمية

The equation of spirituality with development.
John C. Merrill, Media and National Development, in International and Intercultural Communication, edited by Heinz. Dietrich Fischer & John oun Merrill, New York: Hastings House Publishers, 1976, pp. 186-235.Calb
Leslie G. Meller, Mass Media and National Goals, op. cit.
Ralph L. Lowenstein, Use of Foreign Media by Developing Nations, op. cit.
Clause Mueller, The Politics of Communication: A Study of the Political Socioligy of Languages Socialization and Legitmation, London: Oxford Univ. Press, 1973.

ولا شك ان هناك نقاطاً جديرة بالاعتبار فيما يتعلق بدور وسائل الاعلام في تحقيق التنمية الوطنية في منطقة الخليج منها:

- التناقض في المضمون، كأن يبث برنامج ديني ذو مضمون معين ثم يعقبه برنامج ذو مضمون متناقض معه.

- المعدل الكبير من البرامج التليفزيونية المستوردة وباللغات غير العربية ونذكر في هذا الصدد الافلام الامريكية والافلام الهندية، وهي اساسا لا تتمشى مع التنمية في منطقة الخليج ولا تعكس وتقوي من القيم والمعتقدات السائدة.

- ضعف البرامج السياسية في الراديو والتليفزيون والتركيز على الاخبار، وعدم التركيز على البرامج السياسية التي تنمي الوعي السياسي وتساهم في تحقيق التغير السياسي بالاساليـب السلميـة وتحقيـق الاستقـرار الذي يـدعـم التنمية.

- عدم تمشي الصحافة المكتوبة في حالات معينة مع المتلقي كأن تخدم اهدافاً معينة، أو تروج لافكار معينة - ولا تركز على اهتمامات المتلقي.

- اهمية المساهمة في قيام ثقافة سياسة متماسكة وغير متناقضة، فمن الاهمية مثلا ايجاد صيغ تماسك بين الولاء للدولة، ثم التجمع الخليجي،

والعروبة والاسلام، والانسانية والعائلية. وهذا يبين اهمية التخطيط السياسي، ثم التخطيط الاعلامي الذي يعد صورة من صور التخطيط السياسي، ثم التنفيذ والمتابعة.

الدعاية المضادة في منطقة الخليج:

مع تزايد الاهمية البترولية والاقتصادية والاستراتيجية لمنطقة الخليج تزايد دور الدعاية المضادة في هذه المنطقة، واتخذت الدعاية المضادة عدة اشكال منها الاذاعات الدولية الموجهة لهذه المنطقة، ومنها المنشورات التي ترسل بالبريد، بالاضافة إلى الدعاية المضادة المرتبطة ببعض الوافدين إلى هذه المنطقة سواء اكانوا من الغرب او من الشرق او من العالم العربي في اطار ترويج الافكار المرتبطين بها.

ويؤخذ في الاعتبار اتصال بعض الوافدين من هذه الانواع بمواطني هذه البلاد، ولا يمكن اغفال تأثير هذا الاتصال على المدى الطويل.

كل ذلك يبين اهمية الاعلام والتعليم في تحقيق تحصين السكان من الدعايات المضادة.

كما ان محتوى البرامج المذاعة او المواد المكتوبة قد يحمل بعض جوانب الدعاية المضادة سواء اكان ذلك بوعي القائم بالاعلام او عدم وعيه، مثل الحديث عن كمال اتاتورك باعتباره بطلا في تركيا...؟ أو المبالغة في مواقف الاتحاد السوفيتي من القضايا العربية... أو ربط النصر بزعامة كان لها دور في الهزيمة.. او تشويه صورة رجال الدين.. وتحسين صورة الشيوعيين المعلنين او المتسترين وراء اسماء كثيرة كما يتعرض عرب الخليج لدعاية مضادة عند سفرهم إلى الخارج ولاسيما في الغرب، سواء اكان ذلك من خلال الصحافة المكتوبة او المسموعة او المرئية.. ولكن الاجنبي الغربي عندما يأتي إلى منطقة الخليج يجد المساعدة وعدم التعويق بالاضافة إلى مواد الدعاية في الكتب الدراسية، وعلى سبيل المثال جاء في كتاب مدرسي مقرر على تلاميذ المرحلة الابتدائية في الولايات المتحدة الامريكية، ونشر عام ١٩٧١ انك تشاهد ملايين الذباب الذي يؤدي إلى الاسهال الشديد في اي مكان تزوره في الشرق الاوسط سواء المدن او القرى والعرب اي هؤلاء المسلمون الذين يتكلمون اللغة

العربية يتمسكون بمشاعر قوية لجنسهم، ويرغبون في ابقاء الشرق الاوسط منطقة عربية الامر الذي ادى الى قيام المشاكل.

المسئولية الاجتماعية

لا شك ان الحرية ترتبط بالمسئولية الاجتماعية، واذا لم ترتبط بالمسئولية، يمكن لها ان تتحول إلى فوضى، وفي الغرب والشرق تلتزم وسائل الاعلام بالمسئولية الاجتماعية واي خروج على المسئولية الاجتماعية يعني خرقا لحرية الاعلام... وبالتالي هناك اجراءات تتخذ في هذا الصدد.

وفي دول مجلس التعاون الخليجي يمكن القول ان المسئولية الاجتماعية تتمثل في عدم الاساءة الى الاسلام او النظم الاساسية التي يقوم عليها المجتمع وعدم انتهاك حرمة الاداب العامة أو الدعوة إلى اعتناق او ترويج المبادىء الهدامة، او التجني على العرب او تشويه الحضارة العربية أو التراث العربي، وعدم انتهاك اسرار الحياة الخاصة او العائلية للافراد ولو كانت صحيحة اذا كان من شأن نشرها الاساءة إلى من تناوله النشر، وعدم نشر الاخبار الكاذبة او الاوراق المزورة او المصطنعة او المنسوبة كذبا الى الغير، وعدم نشر مواد تتنافى مع الاداب العامة، او يكون من شأنها تضليل الجمهور.

ومن الأهمية بمكان ان يتم الالتزام بالمسئولية الاجتماعية ولا يتم الخروج عنها، واذا تم الخروج عنها تتخذ العقوبات المناسبة وذلك لان وسائل الاعلام تقوم بدور يعتد به في التنشئة وتحقيق الوعي الوطني، وبالتالي فاذا خرجت على مسئوليتها الاجتماعية، فهذا يعني انها تساهم في الاخلال بالتنشئة وتقدم قيماً ومعتقدات لا تتمشى مع عقائد المجتمع وقيمه الاساسية.

مكونات العملية الاعلامية

تتمثل مكونات العملية الاعلامية في القائم بالاعلام ومضمون الاعلام ووسائل الاعلام وجمهور الاعلام وتأثير الاعلام.

القائم بالاعلام

هناك عدة مسائل تتعلق بالقائم بالاعلام في منطقة الخليج منها نوعية

تعليمه وخبرته وميوله السياسية والعقـائـديـة ... وقـد اعتمـدت المنطقـة على الخبرات العربية اساسا في هذا المجال بالاضافة إلى الخبرات الاجنبية، وقد حملت بعض هذه الخبرات معها العقائد السياسية الخاصة بها، وموارثها الفكرية في البلاد القادمة منها، الامر الذي انعكس بشكل مباشر وغير مباشر على الاعلام الخليجي، وقد يكون من الأهمية العمل على تلافي هذه المشكلات.

مضمون الاعلام

كثيراً ما يحمل الاعلام الخليجي مضامين لا تتشمى مع التنمية، أو مع الدين الاسلامي او النظم الاساسية التي تقوم عليها المجتمعات الخليجية، بالاضافة إلى التناقض في المضامين، بمعنى التركيز في الوسيلة على القيم الروحية، ثم الانتقال منها في برنامج لاحق إلى التركيز على ما يسيء إلى القيم الروحية والقيم والمعتقدات المرعية.. وقد يكون مهما محاولة مواجهة هذه القضية.

وسائل الاعلام

لا شك ان مواجهـة الجمـاهيـر في منطقـة الخليـج تقتضي التـركيـز على التليفزيون والراديو في المقام الاول نظرا لعامل الامية والمسافة.. وتأتي بعد ذلك الصحافة المكتوبة، أما مواجهة النخبة فتقتضي التركيز على الصحافة المكتوبة في المقام الاول ووسائل الاعلام في منطقة الخليج لديها تكنولوجيا متطورة وفي حاجة إلى الاستفادة منها بشكل متكامل. وقد يكون من الأهمية ايجاد وسائل اعلام او برامج ولأوقات محددة توجه إلى العمالة الاسيوية غير الناطقة بالعربية، ولفرنسا تجربة في ذلك خاصة بالتوجه الى العمالة التي على دراية قليلة باللغة الفرنسية، أو عدم الدراية على الاطلاق.

جمهور الاعلام

من الأهمية بمكان التركيز على دراسة جمهور الاعلام في دول مجلس التعاون الخليجي وهذا يشمل طرق المعرفة والقيم والمواقف والمعتقدات والاراء وانماط السلوك والسن والجنس والتعليم والوضع الاجتماعي والاقتصادي،

وهذا يفيد في زيادة فاعلية الاعلام .

ومثل هذه الدراسات تساعد القائمين بالاعلام على التوجه بشكل مناسب إلى الجمهور ، والدخول اليه بالمداخل المناسبة ، اما التوجه إلى جمهور غير محدد لدى القائمين بالاعلام فقد يعني كما يقولون «اطلاق الرصاص على الهدف في الظلام Shooting in the dark اي عدم اصابة الهدف بدقة .

وهناك عدة مسالك في دراسة الجمهور تتراوح بين التعقيد والبساطة ، والتكلفة الكبيرة والتكلفة الاقل ، وادراك هذه المسائل يساعد في تزايد تأثير الاعلام .

تأثير الاعلام

كلما كان القائم بالاعلام ينقل رسائل تتمشى مع المتلقي واخذ في الاعتبار عدة عوامل كالسن والجنس والمظهر كلما ساهم ذلك في زيادة تأثير الاعلام .

وكلما كانت الرسالة تتمشى مع الاحتياجات التي تؤدي إلى تحقيق الهدف وتأخذ في اعتبارها القيم السائدة والمواقف والاراء والمعتقدات الخاصة بالمستقبلين كلما ساهم ذلك في زيادة تأثير الاعلام .

ولا شك في أن طريقة تقديم الرسالة من خلال الوسيلة ذو تأثير قوي إلى حد يصل إلى اهمية الرسالة في حد ذاتها ، ولذلك يقول البعض ان الوسيلة هي الرسالة Medium is the Message .

ونظراً للاختلاف في تكلفة وسائل الاعلام ، فان هناك تأكيدا على درجة التأثير الاعلامي لكل وسيلة ، ويركز بعض الكتاب على اهمية الاتصال المباشر ، وانه بوجه عام أكثر تأثيراً من الراديو والاخير بدوره اكثر كفاءة من المادة المطبوعة ، وربما ان التليفزيون والافلام تمثل المرتبة التالية للاتصال المباشر ويليها الراديو ولكن لا يمكن القول ان هذه قاعدة عامة[١]

(١) ـ د . محمد علي العويني ، الراديو والتنمية السياسية ، القاهرة : عالم الكتب ١٩٨١ ، ص ص ٢٠ ـ ٢٢ .

وكلما تمشى ذلك مع المتلقي كلما زاد التأثير وهذا في مجموعه يحدد المحصلة النهائية للتأثير .

تعليم الاعلام

يأخذ تعليم الاعلام في العالم طريقا اما العالم العربي فيأخذ طرقا مختلفة ، ففي الولايات المتحدة بدأ الاهتمام بالدراسات الاعلامية منذ ١٩٠٤ ونظراً لخصائص المجتمع الامريكي والاقتصاد الامريكي الذي ارتبط بالتخصص الدقيق ، نجد ان استقلالية دراسة الاعلام اصبحت سائدة هناك بالاضافة إلى وجود معهد الصحافة الامريكي ومركز الصحافة بواشنطن ، ومعهد الفيلم الامريكي ، ومعهد الاعلام السياسي الامريكي ، كما يدرس الاعلام في اطار اقسام العلوم السياسية ومعاهد العلاقات الدولية بالولايات المتحدة وبينما تعطي الجامعات الامريكية درجتي الماجستير والدكتوراة في علوم الاعلام ، فان كثيرا من الدول المتقدمة تقف عند درجة الماجستير او ما يعادلها في الاعلام ، أما درجة الدكتوراه فتعطى للدراسات الاعلامية في اطار علوم مختلفة كالعلوم السياسية او الاقتصادية او القانون او الاجتماع حسب موضوع البحث .

اما في فرنسا فتدرس علوم الاعلام في اطار بعض المعاهد المستقلة التي تدخل في اطار جامعات الاقتصاد والقانون والعلوم السياسية ، او في اطار اقسام العلوم السياسية ، او في اطار اقسام الاجتماع ، وهناك عدة مؤسسات فرنسية بارزة في تدريس علوم الاعلام مثل قسم العلوم السياسية بجامعة السربون الذي يمنح درجة دبلوم الدراسات العليا المتخصصة في الاعلام والاتصال D.E.S.S.d. Information et Communication والمعهد الفرنسي للصحافة وعلوم الاعلام الذي يتبع جامعة باريس ـ ٢ ـ للقانون والاقتصاد والعلوم الاجتماعية ومركز تأهيل الصحفيين بباريس ، والمدرسة العليا للصحافة بليل ، والمركز الجامعي لتعليم الصحافة باستراسبورج .

وفي بريطانيا يتولى جهاز التدريب في صناعة الطباعة والنشر تدريب الصحفيين البريطانيين بالاشتراك مع المجلس الوطني لتدريب الصحفيين ، بالاضافة إلى تدريب العاملين في الطباعة والنشر والتصوير ، وهناك تدريب في

مجال الصحافة يقدمه اتحاد صحافة الكومنولث ومؤسسة طومسون وامانة الكومنولث وبعض الجامعات البريطـانيـة ، كمـا ان كليـة الاقتصـاد والعلـوم السياسية بلندن تجرى عدة دراسات وبحوث في مجال الاعلام .

وفي المانيا الغربية تقوم اقسام العلوم السياسية بدور يعتد به في الدراسات الاعلامية .

أما في العالم العربي فسادت المدرسة الادبية في البداية بقيام معهد الصحافة والتحرير والترجمة بجامعة القاهرة ، وواضح من الاسم انه يركز على المسائل الادبية ، ثم احتضنته كلية الاداب ، فانضم اليها واصبح قسما من اقسامها ، وانتقلت هذه الفكرة إلى العراق والسعودية والكويت والامارات اما في قطر فان دراسات الاعلام تقوم من خلال قسم اللغة العربية .. ولكن جامعة القاهرة تخلت عن هذه الفكرة بقيام كلية الاعلام ، بالاضافة إلى قيام قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة بتدريس الاعلام ، وتقديم بحوث اعلامية لدرجتي الماجستير والدكتوراة في العلوم السياسية وفيما يتعلق بدول مجلس التعاون الخليجي ينبغي اعادة النظر في اقسام الاعلام التابعة لكلية الاداب واعطاء اهمية للمدارس الاخرى السياسية والاقتصادية وغيرها في الاعلام سواء باقامة كليات جديدة للعلوم السياسية والاعلامية كما هو حادث في الجزائر او كليات للاعلام تراعي المدارس المعاصرة في الاعلام ولا تركز على المدرسة الادبية بمفردها . فالمدرسة الادبية مهمة ولكن هناك مدارس اخرى مهمة ... حتى وصل الامر في العالم العـربـي ان مسـاقـات اعلاميـة كثيـرة يـدرسهـا غيـر متخصصين في الموضوع مثل مساقات الاعلام السياسي او الاعلام الدولي او الاعلام الاقتصادي ويقدمون انفسهم على انهم متخصصون .

كما قد آن الاوان للدول التي لم تنشىء اقساما للاعلام والعلوم السياسية ان تسارع في انشائها ، على اسس عصرية مع الاخذ في الاعتبار ظروف المنطقة ، فهذه الدراسات تساعد هذه الدول داخليا وخارجيا ، وتعطي دفعات للتنمية ، اذا خطط لها بعناية وتم التنفيذ والمتابعة بشكل مناسب ، اما الخوف المتعلق بهذه الدراسات فيفتقر إلى الاساس الصحيح .

تكنيكات الاعلام

من الأهمية التأكد من تجنب وسائل الاعلام الخليجية للتكنيكات اللا

اخلاقية مثل تكنيك الكذب lie technique وذلك بتلفيق الحقائق وقلبها رأساً على عقب وتشويهها او تكنيك المبالغة Exaggeration وذلك بتضخيم الموضوعات والمبالغة فيها سعيا وراء الاثارة .

او تكنيك عرض الرأي على انه حقيقة ، بمعنى تقديم الاراء التي تخدم سياسات هدامة مثلا على انها حقيقة خالية من اللبس والتشويه علما بأنها ليست كذلك ، كما أو ان تتبع تكنيك الارتباط المزيف False association وذلك بالربط بين موضعين لا ربط بينهما .

ومن الأهمية التركيز على التكنيكات الاخلاقية مثل تكنيك جذب انتباه مستقبل الرسالة الاعلامية والمحافظة عليه وربطه بها ، وتكنيك القابلية للتصديق Credibility بحيث يتم قول الصدق وجعل المتلقي يدرك هذا الصدق الحقيقي وتكنيك التشخيص identification بأن يكون رجل الاعلام اكثر قربا من مستقبل الرسالة الاعلامية الامر الذي يزيد من تأثير الاعلام ، مما يمكنه من القيام بالتشخيص بشكل فعال ، وتكنيك الاعتماد على المصادر الموثوقة appeal to authority في اطار زيادة تأثير الرسالة الاعلامية ، فكلما زادت الثقة في المصدر كلما زاد تأثير الرسالة على المتلقي(١٢) .

اعادة صياغة الاعلام السياسي في منطقة الخليج

يتضح مما سبق اهمية اعادة صياغة الاعلام السياسي في منطقة الخليج ، باعادة النظر في قوته الذاتية ، والوعي بالقوى التي يعكسها ، ومعالجة المشاكل المترتبة على التدفق الاعلامي الدولي ، والتنمية الوطنية ، والدعاية المضادة ،

(12) Ralph K. White, Propaganda, Morally Questionable and Morally Unquestionable Techniques, The Annals of the American Academy of Political and Social Science, Vol. 398, Nov. 1971, pp. 26 - 35.

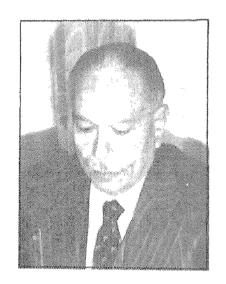
Charles A. Siepmann, Propaganda Techniques, Voice of the People, Readings in Public Opinion and Propaganda, Edited by Reo M. Christenson and Robert O. McWilliams, 2nd Edn., New York: McGRAW-Hill Book Co., 1967, pp. 331 - 339.

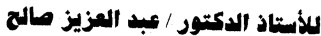
والمسئولية الاجتماعية ، وحدود القائم بالاعلام ومضمون الاعلام ووسائل الاعلام وجمهور الاعلام وتأثير الاعلام وتعليم الاعلام وتكنيكات الاعلام..

وكلما اخذ الاعلام الخليجي بهذا ، كلما ساعد في ذلك على تحقيق التنمية الوطنية ، وزادت فاعلية سياساته في المجال الدولي ، واصبح تأثير وتأثر الاعلام بالسياسة ، والسياسة بالاعلام ، يسير في الاطار المناسب... الامر الذي يجب النظر اليه بعين الجد .

المحاضرة الحادية عشرة

المزج الحضاري في الآثار القديمة للعلا ومدائن صالح





للأستاذ الدكتور / عبد العزيز صالح



الاستاذ الدكتور عبدالعزيز صالح محمد

● من مواليد جمهورية مصر العربية ١٩٢١.

● حصل على درجة الليسانس في الآداب قسم التاريخ ودرجتي الماجستير والدكتوراه في الآثار القديمة من كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.

● عضو هيئة التدريس بجامعة القاهرة ٥٣ ـ ٨٣.

- رئيس قسم الآثار المصرية بجامعة القاهرة.
- رئيس قسم التاريخ بجامعة الرياض ٦٥.
- رئيس قسم التاريخ بجامعة الملك عبدالعزيز ٧٢.
- عميد كلية الآثار بجامعة القاهرة ٧٧.
- رئيس الجمعية المصرية للآثار.
- عضو المجمع العلمي المصري.
- نائب رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- عضو المجالس القومية المتخصصة بجمهورية مصر العربية.
- عضو لجنة الموسوعة الافريقية ـ اليونسكو.
- عضو المعهد الالماني للآثار الشرقية ـ برلين الغربية.

● له العديد من المؤلفات أهمها:

- حضارة مصر القديمة وآثارها ١٩٦٢.
- التربية والتعليم في مصر القديمة ١٩٦٦.
- الشرق الأدنى القديم.
- شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة.
- شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة.

● شارك في العديد من المؤتمرات والندوات الخاصة بالآثار والتاريخ القديم في مراكش وكمبردج بانجلترا، وبرلين وتوبنجن في المانيا الغربية وجرينوبل بفرنسا وتورنتو بكندا.

المزج الحضاري في الآثار القديمة للعلا ومدائن صالح

قامت العلا ومدائن صالح والحجر بالحجاز إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة بأكثر من ٣٣٠ كيلومتراً، عن قرب من وادي القرى ووادي الحمض. وتمايزت كل منهما بآثار قديمة تخصها. فازدانت العلا وخريبة الحجر بآثار ددان ولحيان ومعن مصرن والثموديين، وازدانت مدائن صالح بآثار الأنباط وقلة من الثموديين ايضا. واعتمدت الاقتصاديات القديمة للمنطقة في مجملها على الزراعة لوفرة مياهها الباطنية وخصوبة ارضها، وعلى التجارة البرية لميزة موقعها على طريق القوافل الرئيسي القديم الممتد رأسا في غرب شبه الجزيرة بين دول الجنوب العربي وبين اطراف مصر والشام شمالاً بغرب، وبينها وبين اطراف العراق شمالاً بشرق. ثم انتفعت بالتجارة البحرية كذلك عن طريق ميناء الوجه المواجهة لها على ساحل البحر الأحمر.

تداولت على حكم المنطقة قديماً فيما قدمنا دول ددان ولحيان وجماعات من الثموديين فضلا على الأنباط. وانصرف اقدمها باسم «ددن» أو «ددان» إلى تعريف المنطقة ودولتها وعنصر سكانها، ربما مع تحوير طفيف في نطقه مع كل حالة. وقد ذكرته عبارات من التوراة يحتمل إرجاع نصوصها إلى ما بين القرن التاسع وبين القرن السادس قبل الميلاد. ومنها أنساب الشعوب في سفر التكوين على سبيل المثال، وقد اعتبرت ددان أخا لسبأ. ثم الترجمة السبعينية للتوراة التي ذكرته باسم «دايدان» وهم اسم يقرب مما ذكره ياقوت الحموي بصيغة «ادّيدان»، ورددت نصوص العلا اسم «ددن»، أو «ددان» منذ القرن السابع او السادس قبل الميلاد، كما ذكرته نصوص عربية جنوبية لعدة قرون، ومنها نص سبأي من القرن الميلادي الأول، ثم نص آخر عبر عن اهل المنطقة باسم «بنوددن» و «ددنيم» اي «ديداني»، و«ددنية».

أما عن نشأة الدادانيين الأولى كقبيلة، فثمة فرض يربط بين اسمها وبين تسميات عتيقة تشبهه لجماعات أمورية سامية ذكرتها نصوص مسمارية عراقية منذ اوائل الالف الثاني قبل الميلاد، بصيغ «ددنو» و«تدنو» و«ددانم».

وبعد أجيال عدة عرفت المنطقة ودولتها وقبيلتها الحاكمة باسم «لحيان»، وهو اسم تردد في نصوصها منذ أواسط القرن الخامس قبل الميلاد. واحتفظ به بطن من بطون العرب حتى ظهور الاسلام، ثم انصهر في قبيلة هذيل، وأخيرا في قبيل القرن الثاني قبل الميلاد وضح امتداد نفوذ الأنباط إلى المنطقة وصبغها بطابعه، لاسيما في مدينة الحجر وجبانتها في مدائن صالح، والأنباط قوم من العرب كما دلت على ذلك اسماؤهم وعقائدهم وإن اختلطت الصبغة الآرامية بنصوصهم في حروفها وفي تعبيراتها. أما الاسم الحالي للمنطقة وهو العلا، فلعله يحمل معنى العلا أي الرفعة، بمفهومه العربي العام، أو يكون ذا صلة قديمة باسم اللات إحدى معبوداتها قبل الإسلام، بحيث كان ينطق «علاة» أو شيئاً من هذا القبيل.

ونتخير من حضارات المنطقة حضارتين، حضارة اللحيانيين وحضارة الانباط، وكانت كل منهما من الحضارات المتفتحة التي احتفظت باساليبها المحلية وطورتها، ثم نقلت عن حضارات جيرانها والمتعاملين معها ما وافق بيئتها واستطاعت أن تهضمه، ثم زادت عليه ما تيسر لها أن تضيفه، وتلك هي إحدى الخواص الرئيسية التي ظهر العرب بها في عصورهم الإسلامية المبكرة، حينما زاد اتصالهم بمواطن الحضارات القديمة والمعاصرة لهم، واستزادوا من المعارف الخارجية فانتفعوا بها وهضموها، ثم أضافوا اليها مازاد من حيويتها وعبر عن شخصيتهم ونسيج حياتهم. وهكذا انتفع اللحيانيون والأنباط بما عاصر كلا منهم من الحضارات المصرية والسورية والفارسية والهيلينستية والبارثية، بل والرومانية، كل بمقدار، وجمعوا بين ما استطاعوا استيعابه من فنون هذه الحضارات وبين فنونهم المحلية فيما اقاموه من آثار معمارية وزخرفية.

وسوف نجتزىء من كل هذا ماعبرت عنه آثار الفريقين فيما كان بينهما وبين الحضارات المصرية القديمة من أواصر وتأثر وتأثير.

وحتى ما قبل عشرات قليلة من الأعوام، اعتادت المؤلفات العربية إذا ما

ابتغت تقرير صلات قديمة بين بلاد العرب وبين مصر فيما قبل البعثة النبوية الشريفة، أن تكتفي بالقول بأن عمرو بن العاص مثلا كان يأتي مصر في تجارة قبل إسلامه، وأن القباطي المصرية كانت تلقى رواجا بين عرب الحجاز، وأن نجاراً أو بناء قبطياً يدعى باخوم أو نحوه قد استخدم في عملية إعادة بناء الكعبة المشرفة، بعد أن تطلب بنيانها إصلاحه قبل عهد البعثة، وعلى النقيض من هذا قد يذهب الأمر بالرواة إلى ايام ابراهيم عليه السلام واحتمال زيارته لمصر وقصته مع فرعونها، كما سمعوها من رواة اليهود، وزواجه بمصرية قد تكون هاجر أم اسماعيل الأب المذهبي للعرب الشماليين، فإذا ما بلغ المؤرخون عهد البعثة استشهدوا بما كان من حسن استقبال المقوقس لكتاب الرسول عليه السلام وما هاداه به، ثم زواج الرسول من مارية المصرية، أم ولده ابراهيم، وكيف وصى عليه السلام خيرا بمصر وأهلها.

ولم يكن من بأس في الاستشهاد بهذه المرويات، لولا أن الآثار القديمة قد زودتنا لحسن الحظ بشواهد اخرى مادية ترجح قيام علاقات حضارية بين الحجاز وبين مصر تذهب بعيدا في التاريخ إلى حوالي القرن السادس او الخامس قبل الميلاد، اي فيما قبل عهد البعثة النبوية بنحو اثني عشر قرنا او تزيد، بغير أن يحول هذا دون ان تكون هناك ممهدات سبقتها بأزمان طويلة، وغالبا ما كانت الشواهد الاثرية من اصدق ادلة التاريخ.

وحتى لا نغمط باحثين آخرين حقهم نود ان نمهد بالاشارة إلى دراسات اجنبية آثارية وتاريخية سابقة كانت قد المحت منذ أواخر القرن الماضي إلى مدلول آثار ونصوص في هذا السبيل كشفت عمليات البحث عن اقلها، بينما عثر على اغلبها بمحض المصادفة.

والجديد فيما نبدأ به هنا خمسة تماثيل تجسد الاسلوب المصري القديم في طابعها العام، عثر عليها في الخزينة بواحة العلا، ثم بضعة عناصر معمارية تجلى الطابع المصري القديم فيها ايضا قامت عليها بعض مقابر الأنباط الرئيسية في مدائن صالح. وفي مقابل هذه وتلك ترك بعض اللحيانيين والمعينيين والأنباط بعض آثارهم الصغيرة في مصر حينما وفدوا إليها للاتجار او للاستقرار.

لم يتعد البحث العلمي لمنطقة العلا دراسة آثارها السطحية الظاهرة التي

تمثلت في عدد من اللوحات والنصب الصغيرة المنقوشة وأعداد من كسر الفخار توزعت في واحة العلا وما حولها، ثم عدد من المقابر المنقورة في الواجهات الصخرية للجبال المحيطة بها والتي تركزت في منطقة الخريبة على مسيرة كيلومتر شمالي العلا وأخيرا اطلال معبد حجري رحب توسط ارض الخريبة وتوسط فناءه المكشوف حوض مُنحوت في لب صخرة كبيرة، وهو شيء بين البيضاوي وبين المستطيل، يبلغ اقصى طوله ثلاثة أمتار ويبلغ عمقه ٢١٥ سم، ونحتت بداخله اربع درجات حجرية، وليس من بينة عما إذا كان مستودعاً لمياه المعبد أم كان حوضا للتطهر بمعنى أن الارض حوله كانت بمستوى حافته، وإذا صح هذا الفرض الأخير كان من أكبر ما عرف من أحواض التطهر في المعابد، ويطلق عليه أهل المنطقة الحاليون اسم حلاوية النبي صالح أو مشرب ناقته تأثرا بقصة ثمود ونبيها عليه السلام، وقد تهدمت مباني المعبد إلى حد كبير، ويحتمل أن كان مدخله يقع في واجهته الشمالية، وأنه قام على طرفي ساحته وعلى مبعدة ثلاثين مترا إلى الشمال والجنوب من الحوض الكبير، دهليزان يتلو كلا منهما ممر يبلغ عرضه اربعة أمتار يطل عليه سور المعبد.

وتقدم كل من الدهليزين وفيما يقع بينهما وبين الحوض الأوسط في المعبد، صف من التماثيل بقيت بعض قواعدها متباعدة عن بعضها البعض مما اوحى بوجود قاعات بينها، ولعل حرم المعبد او قدس اقداسه كان مسقوفاً هو وبهو أو أكثر من ابهائه.

ومن بين أطلال هذا المعبد أتت بقايا التماثيل مجال هذا البحث، وهي اربعة تماثيل كبيرة نحتت من الحجر الرملي المحلي، فضلا عن تمثال خامس من البرونز يحتمل العثور عليه في مكان ما بنفس المنطقة، وهو محفوظ بدائرة الآثار بالرياض.

وقد اهتديت خلال انتدابي من جامعة القاهرة الى جامعة الرياض رئيسا لقسم التاريخ بها، وأثناء زيارة عملية قمت بها باسم هذه الجامعة الاخيرة في عام ١٩٦٦ الى بلدة العلا ومدائن صالح وما حولهما إلى بقايا تمثالين حجريين كبيرين من هذه التماثيل، فضلا عن قاعدتين حجريتين منقوشتين بالخط المسند، وأجزاء متفرقة من تماثيل حجرية أخرى أقل قيمة.

ولتقدير هذه الآثار المكتشفة حديثا تقديرها السليم نعرض فيما يلي تفاصيلها، مع مقارنتها بأمثالها ، ومناقشة الظروف التي صاحبت اقامتها.

وأكمل التمثالين الحجريين الكبيريين تنقصه الآن الرأس ومايلي الفخذين من الساقين، ويبلغ ارتفاع مابقي من جسمه ١٠١ سم، ويبلغ اتساع الصدر عند المنكبين ٥٠ سم واتساعه بين الإبطين ٣٤ سم، ويبلغ طول الذراع ٧٣سم، ويبلغ سمك الجسم عند الصدر ٢٢سم، وتدل هذه الابعاد على أن التمثال حين تمامه كان يبلغ حجم الإنسان العادي أو يقل قليلا عنه.

يمثل التمثال صاحبه في مهابة واستقامة يرسل يديه في شدة بحذاء جانبية، ويقبض كفيه في قوة مع إطلاق إبهامة الى اسفل، وهو عاري الصدر والساقين يأتزر بازار بسيط يمتد من تحت السرة إلى ما فوق الركبتين (ويبلغ طوله ٢٦ سم). ويبدو التمثال باستقامة اتجاهه وتناسق نسب أجزائه وطريقة نحته وظاهرة قبض كفيه، ذا اسلوب فني مصري قديم لاشك فيه، مع تصرف يسير من فنانه يتمثل في إظهار بساطة الإزار وطريقة التعبير عن طيته العليا والحزام او الحبل المزدوج الذي يشده إلى الخصر مع إرسال الطرفين المتدليين منه عل مقدمة الفخذ الأيمن لصاحبه.

وتحطم ما بقي من التمثال الحجري الثاني الى اربع قطع كبيرة وفقدت منه رأسه وذراعه اليمنى واغلب ذراعه اليسرى كما فقد منه النصف الاسفل من ساقيه. وإزاء عدم توافر مرمم أثري مختص فقد اعيد تركيب مابقي من اجزاء هذا التمثال ورسمها مؤقتاً على الهيئة الظاهرة. ويبلغ ارتفاع هذه الاجزاء ١٩١ سم، ويبلغ عرض الصدر عند المنكبين فيها ٦٦ سم وعرضه بين الابطين ٤٥ سم، ويبلغ سمك الجسم عند الصدر نحو ٣٠ سم. وتنم هذه الابعاد جميعها عن أن التمثال كان حين تمامه أكبر من التمثال السابق وأكبر من حجم الإنسان العادي، وقد عبر الفنان عن تكوين عظمة ركبة ساق التمثال بانحنائين يشبهان نصف الدائرة.

ويأخذ هذا التمثال باسلوب سابقه من حيث عري الصدر والساقين وبساطة الإزار الذي يمتد من الخصر إلى الركبتين (بطول ٦٩ سم) والذي ينثني طرفه العلوي مع حزامه بينما ينثني طرفاه الجانبيان على مقدمة الفخذ الايسر لصاحبه، ولعل في هذا ما يوحي بعقد المقارنة بينه وبين إزار الإحرام، ولولا

اقتصار الإزار اللحياني على تغطية الجزء الاوسط من الجسم دون ما اعتاده الحجاج المسلمون من تغطية الصدر والظهر ايضا برداء (بشكير) مستقل عن الإزار.

وأقرب إلى المقارنة مع هذه التمثالين تمثالان آخران عثر عليهما المستشرقان جوسين وسافينا في عام ١٩٠٩ بين انقاض معبد الخريبة ويحتفظ متحف اسطنبول باكملها. ويأخذ هذا الاخير في خواصه الاساسية بما اسلفناه عن خصائص الاسلوب الفني المصري البادية في التمثالين السابقين، من حيث قانون النسب واستقامة الاتجاه وإرسال اليدين في قوة بمحاذاة الجانبين، وربما من حيث هيئة الازار القصير إلى حد ما، ويبلغ ارتفاع هذا التمثال في وصف الاستاذين اللذين عثرا عليه ٢٢٦ سم اي أطول من القامة الطبيعية بقليل، وتنقصه حاليا الذراع اليمنى وجزء من اليسرى، وقيل إن رأسه كانت سليمة عندما وجداه في رحلتهما الأولى إلى العلا في عام ١٩٠٩، لولا أن اهتمامها بها نبه الاهالي اليها فهشموا جزءاً منها وفصلوها عن جسدها كراهية منهم لآثار الوثنية، واعتقادا بتحريم تمثيل الإنسان في هيئة كاملة، وقد اعيد تركيب الرأس في وضع مائل قليلا قد لا يكون متفقا مع وضعها الاصيل، ولا تزال الرأس رغم ما اصابها من تلف ذات قيمة كبيرة فهي تصور شخصية عربية كبيرة يصعب تعيين صاحبها وقد شكلت ملامح وجهها في عناية وفي نسب مقبولة، ولعلها لم تكن تقل اتقانا عن بقية تمثالها، وينسدل شعر كثيف طويل خلف الرأس ويغطيه مع اعلاها ما يشبه الصمادة الحجازية او الغترة النجدية، وهذه تثبتها على الرأس عصابة عريضة نوعا ينفرج طرفاها من الخلف في شريطين مائلين وذلك مما يدعو إلى احتمال تمثيلها لإكليل يقوم مقام التاج، إن لم تكن تمثل نموذجا اقليميا من العقال العربي القديم، وذلك مع التنويه بما يراه كل من الباحثين جانو وروتشتين من أن التتوج بالتيجان لم يكن عادة اصيلة عند ملوك العرب، وإنما كان في رأيهما تقليداً فارسيا نقل اليهم في عهود متأخرة ثم مع تقدير أن العقال الذي ظهرت به بعض تماثيل وصور الأنباط هو أقرب من العقال(؟) اللحياني إلى العقال العربي المألوف، وعلى الرغم من هذه التحفظات التي ابديناها لا نرى مبررا للاخذ بما افترضه لاجرانج وجروهمان من عقد الصلة بين الرأس

اللحيانية موضوع هذه المناقشة في طرازها ولباس رأسها ولحيتها وبين الرؤوس الاشورية .

ويظهر على صدغي وجه التمثال بامتدادهما تشكيل تخطيطي بارز يحتمل ان يكون تبسيطا لشعر لحية كثة كسر طرفها حديثا من تحت الذقن او يمثل لثاما يغطي الجزء الاسفل من الوجه . وتظهر عينا التمثال في حالتهما الراهنة متسعتي المحجرين ، على خلاف ما جرت عليه عادة تمثيل العينين في الفن المصري القديم ، إلا اذا كان هذا الاتساع قد زاد بتهشيمهما ، أو نتج عمقهما عن تطعيمهما أصلا بمواد تقلد تركيب العين البشرية وتقلد هيئة عيون التماثيل المصرية ، ولعل التعليل الأول هو الارجح ، وإن زكى الفرض الثاني إلى حد ما أنه عثر في نفس المنطقة على رأس اخرى طعمت عيناها تطعيما خشنا ، وهذه الرأس الاخيرة اعتبرها كاسكل لحيانية واعتبرها بوسرت نبطية .

وهي كبيرة الحجم نوعاً ، ذات وجه طويل ينقصه التناسب ، وجبهة ضيقة وحاجبين شبه افقيين وعينين شبه بيضاويين وعنق طويلة . ويتبقى الإزار ، وهو بسيط انطوى طرفه الجانبي فوق الفخذ الايسر من الأمام بينما انطوى طرفه العلوي مع حزامه المزدوج الذي عقد طرفه على الجانب الايسر ، وقد قرب رينيه ديسو بينه وبين إزار الإحرام الإسلامي . والواقع أن الاختلاف بينهما اختلاف يسير ، لولا الفارق الذي ألمحنا اليه من قبل وهو اعتياد الحاج المسلم على تغطية صدره وظهره برداء بسيط آخر ، وذلك مع تقدير حقيقة تاريخية أخرى وهي ان المآزر كانت لباسا شائعا بين كثير من أهل الشعوب القديمة السامية وغير السامية ، بحيث صورتها المناظر المصرية للمصريين انفسهم ولبعض اهل الشام ولأهل بونه ، وصورتها لليبيين ، بل وللكريتيين أحيانا ، وذلك أمر يحول دون الإسراف في استخلاص النتائج من إزار التمثال اللحياني بالذات .

وعثر جوسين وسافينياك على التمثال الآخر بالقرب من التمثال السابق ووجداه في حالة اسوأ من حالته ، إذ فقد راسه وذراعيه ، ومعظم ساقيه ، وبقي منه ما يبلغ ارتفاعه نحو ٧٤ سم ، وذلك مما يعني أنه كان بدوره أكبر من حجم الإنسان العادي بقليل . ويكفي ما تخلف منه للدلالة على أنه كان على مستوى التمثال السابق في إتقان صناعته . وقد عقد حزام إزاره على

الجانب الأيسر في واقعية لطيفة، وتدلى منه ما اعتبره جوسين وسافينياك غمد خنجر . ولكن إذا صح ما افترضه رينيه ديسو من أن الازار كان لباسا دينيا يشبه إزار الإحرام، لما كان للخنجر هنا مكان .

بدت خلفيات التماثيل الأربعة الحجرية الكبيرة لا بأس بها من حيث التشكيل العام، لاسيما التمثال الثاني منها، ولكن لم يعتن كثيرا بصقلها، مما يعني أنها كانت تستند الى جدار خلفها، وذلك فرض يزكيه وجود قطعة حجرية مستطيلة في الجزء الاسفل من خلفية بعضها، لتكون فاصلا بين التمثال وبين الجدار الذي يظاهره ولتترك بينهما مسافة مقبولة وقد افترض جوسين وسافينياك ان هذه التماثيل وغيرها معها كانت مقامة في صف داخل بهو بالطرف الجنوبي من المعبد، وأنه كان يقابلها صف آخر في بهو يماثله بالطرف الشمالي .

هذا وقد وجدت من ناحية اخرى رأس ميزاب حجرية لحيانية شكلت على هيئة رأس لبؤه، وهذه افترض لاجرانج انها أتت من بين انقاض المعبد، بينما افترض جورهمان أنها أتت من أحد بيوت العلا . ولو صح الفرض الأول لكان فيه دليل على تسقيف جزء من المعبد ثبت الميزاب في واجهة سقفه، وهذا الجزء قد يكون أحد البهوين اللذين يفترضهما جوسين وسافينياك، أو يكون المقصورة الرئيسية للمعبد اي قدس اقداس تمثال معبوده الأكبر .

وليس هذا هو كل ما يمكن ربطه بالاسلوب الفني المصري القديم من التماثيل الحجرية اللحيانية، وإنما قدم إيوتنج في كتابه عن رحلته الى بلاد العرب في عام ١٨٨٤ شكلا تخطيطياً لتمثال نصفي صغير يغلب على الظن أنه يمثل أنثى ويبلغ ارتفاعه الحالي ٣٠ سم، ومع ما اصاب وجه هذا التمثال وذراعيه إلا أن هيئة ما تبقى منه ذات طابع مصري غالب لا سيما في تصفيف الشعر وغطاء الرأس .

لم يعثر على تمثال من التماثيل اللحيانية الحجرية قائما في موضعه الأصيل؛ ولم ينقش على اجسادها نصوص تكشف عن شخصيات أصحابها . وإنما عثر بالقرب من مواضعها في معبد الخريبة على ثلاث قواعد حجرية بعضها مربعة ذات حافة بارزة على سطحها لتثبيت التمثال عليها، ولا ندري إن كانت موجودة تحتها أو تحت تماثيل غيرها وقد نقشت عليها نصوص قصيرة

بحروف كبيرة ويشير إثنان منها إلى تعاون بعض الافراد (الإخوة) في الوفاء بنذر ابيهم «خرج ذي غابة» بإقامة تمثال لعله كان للمعبود عجلبون (عجلبن)، آملين بذلك حسن العقبى في سلامتهم ومستقبلهم وخيرهم على حد تعبيرهم.

لم يبق من اسماء مقدمي أحد التمثالين على قاعدته غير الحروف ش و ك .. م شمس (š wk .. m šms) مما يمكن أن تقرأ عم شمس او حرم شمس، وربما كانت تعقبها كلمة هدقو أو هودقو بمعنى كرسوا «هذين التمثالين... اليهم خرج - ذي غابة - حتى يرضيهم ويهديهم ويسعدهم (أو يرحمهم) سنة عشرين وتسع من حكم (برأى) جلت قوس.

ويشبه نص التمثال الثاني سابقه، وقد ارخ على قاعدته بالعام ٣٥ لعهد (الملك) منعى لوذان بن هان أوس (أو هانواس). وإذا كان الملك جلت قوس هو أقدم الملكين يكون قد فصل بين عهدي التمثالين خمسة وثلاثون عاما على أقل تقدير، وإذا كان هان أوس هو الأقدم يكون قد فصل بينهما تسعة وعشرون عاما على أقل تقدير.

ولا ندري إن كان خرج المنعوت بذي غابة هذا هو والد المتقدمين فعلا، أم هو معبودهم اعتزوا ببنوتهم المعنوية له.

وهو نفس الملك الذي ارخ به نص قاعدة تمثال ثالث قد يعود عهده إلى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

ويدعو سياق النصين إلى افتراض أن التمثالين اللذين كانا مقامين فوق هاتين القاعدتين كانا لهذا المعبود وأن المعبد ينتمي كذلك اليه، وهو فرض لن نستطيع أن نرجحه أو ننفيه إلا بظهور قرائن ونصوص جديدة. فالمعبود عجلبون لم يكن من ناحية أهم الآلهة اللحيانيين وهو مجهول الاصل غامض الكنية، وقد ذهب الظن إلى الربط بينه وبين عجلبول إله القمر المحلي في واحة تدمر، مع تحليل اسمه إلى عجل (الإله) بول الإله القومي الأكبر فيها. ولفظ عجل هنا قد يضم بمعناه الحرفي مع تقدير أن الهة القمر في شبه الجزيرة العربية كان يرمز إليها أحيانا بالعجول ورؤوس الثيران، أو يعتبر اشتقاقاً، كما اقترح ايسفيلد من مادة عجل (دور) مع تحميله معنى سائق (مركبة)

بول، ومع غرابة هذا التفسير الاخير فقد رجحه ديسو من حيث أن عجلبول إله قمري، ولأن البدو ورجال القوافل يسترشدون بالقمر في سراهم بالصحراء.

غير أن هذا كله لن يقطع بنسبة في معبد الخريبة وتماثيله إلى عجلبون، مرادذ عجلبول. فأولى منه بالمعبد ولو من الناحية النظرية «ذو غابة» الإله الاكبر في لحيان، أو «ود» أحد آلهتها الكبار الذين وفدت عبادتهم من الجنوب العربي الى ددان.

وقد عثر على عدد من النصوص في معبد الخريبة وفي واحة العلا تذكر ذا غابة وتمجده. وأحدها نص عثرت عليه منقوشا على جزء من قاعدة حجرية يغلب على الظن أنها كانت أحدى قواعد التماثيل في المعبد نفسه. وذو غابة لقب وكنية، وقد يعني «من هو في الأجمة» أو «الذي من الأجمة» كما يرى كاسكل، أو يعني «سيد الغابة» وغابة هذه فيما يعتقد ريكمانس موضع قريب من المدينة المنورة وصفه ياقوت والواقدي والبكري، بأنه كان ذا خصب ونخيل، وذهب بارتون مذهباً آخر اقترح فيه قراءة الاسم «ذاغبت» بمعنى رب السحرِ أو صاحب الصنم.

ومهما يكن من اسم الاله صاحب المعبد، فليس هناك ما يحول في الوقت نفسه دون احتمال تصوير التماثيل الحجرية الكبيرة اللحيانية لشخصيات كبيرة من أهل الواحة، حكاما كانوا أم من أثرياء التجار، على الرغم من مفهوم النصين السابقين. ويزكى هذا الاحتمال الأخير أن التمثال الحجري الكبير ذا اليدين الباقيتين لا يحمل في يديه رمزاً من الرموز المقدسة التي اعتاد القدماء أن يظهروها في تماثيل وصور معبوداتهم، وذلك فضلا عما توحي به مقارنة أخرى سريعة نبه اليها لاجرانج وهي أن اغلب ما عثر عليه في العاصمتين العربيتين الاخريين بترا (البطراء) وتدمر كان لكبار الأفراد أكثر مما كان للأرباب.

ولا تقل مشكلة تأريخ صناعة التماثيل غموضاً عن مشكلة معرفة أصحابها، وقبل الإدلاء بالرأي فيها، نود أن نبحث أمر التمثال البرونزي الذي أشرنا إلى اهميته في صدر هذا البحث. وهو تمثال صغير ابتاعته دائرة الآثار السعودية في عام ١٩٦٥ من أحد سكان العلا، بتزكية من الاستاذ مصطفى عامر

ومني ، لأصالته وأهميته ويبلغ ارتفاع التمثال حاليا ٥ر١٠ سم ويبلغ عرض ما بين كتفيه ٥ر٢ سم وهو يمثل ملكا مصريا في هيئة غلام غض عاري الجسد إلا من حزام وقراب يكسو أسفل بطنه . وللملك وجه ممتلىء وشفتان بضتان وجسم ممشوق ، ويغطي رأسه رداء النمس وهو أحد أردية الرأس الملكية المصرية التقليدية . ويكلل جبهته صل ، ويعلو رأسه فرعا تاج من فوق الرأس . وتتدلى على صدغ الملك جديلة شعر ترمز إلى حداثة السن في تعبيرات الفن المصري القديم وفي الكتابة الهيروغليفية . وفقدت من التمثال ذراعة اليمنى من عند الكتف ومد يده اليسرى المبسوطة إلى جانب فخذه ولكن دون أن تعتمد عليه ، ووضع قدميه فوق قاعدة صغيرة رقيقة مائلة قليلاً (تبلغ ابعادها ٢ X ٥ر١ X ٤ر٠ سم) وترجح خواص هذا التمثال ، ومنها عريه وجديلة شعره وميل قاعدته وبعد كفه عن فخذه أنه كان يجلس في حجر أنثى تقوم بدور الأم وترمز إلى إحدى ربات الأمومة المصريات ولعلها الربة إيسة (ايزيس) . ويقرب أسلوب التمثال في جملته من أسلوب النحت في العصور المصرية المتأخرة وبخاصة في العصر البطلمي .

ووجد Euting جذع تمثال يبلغ ارتفاعه ثلاثين سنتيمترا في الخريبة يتضح فيه الطابع المصري ، وربما كان جزءاً من تمثال جالس ينتعل صندلا فوق قاعدة يشترك معه فيها تمثال صغير .

ونقل جوسين وسافينياك الى متحف دمشق جذع تمثال من الحجر الرملي ترجح نسبته إلى لحيان حيث وجد معه نصان لحيانيان .

ويشبهه جزء من تمثال وجد في حديقة بالقطيف من العصر الفارسي .

والواقع أنه ليس فيما يعرف من آثار فنون النحت اللحيانية أو العربية القديمة بعامة ما يرقى إلى مستوى الدقة والتعبير في التماثيل السابقة ، وذلك مما يرجح أن هذه الأخيرة كانت من صناعة مثالين غير محليين ، ولعلهم كانوا في الأغلب من المصريين ، واذا صح هذا الفرض جاز التساؤل في أية ظروف وجد اولئك المثالون المصريون سبيلهم إلى لحيان يحملون إليها أسلوبهم الفني المتميز ؟

بدأت المحاولات للإجابة على الشطر الأول من هذا التساؤل ، بدارسة فنية لمقارنة اسلوب نحت التمثال اللحياني ذي الرأس الباقية الذي عثر عليه

جوسين وسافينياك بأساليب النحت المصرية القديمة . ورأى جلانفيل أن طابع التمثال اللحياني شبيه بأسلوب النحت المصري الشائع فيما بين أواخر عصر الاسرة السادسة والعشرين وبين أوائل العصر البطلمي ، أي فيما بين أواسط القرن السادس ق.م وبين أواخر القرن الثالث ق.م . بينما اكتفى ديسو بعقد الصلة بينه وبين اسلوب النحت في عصر البطالمة فيما بين القرنين الثالث والثاني ق.م . وتبعه في ذلك لورانس ولكنه اقترح تأريخا متأخرا عنه امتد به حتى القرن الأول الميلادي . وسوف ننتهي في مناقشتنا التالية إلى أن تقدير جلانفيل هو أقرب هذه الآراء الى الصحة .

وافاد الجانب التاريخي من المشكلة بحث للأستاذ تارن أحد الباحثين في الدراسات اليونانية والرومانية خلال تعقيبه على نص مصري نقش على نصب وجد في بيثوم على مقربة من مدينة السويس الحالية وأرخ بعهد بطلميوس (الثاني) فيلاد لفوس واستعان تارن بالاستاذ سيدني سميث أحد الباحثين في تاريخ الشرق القديم وخرج معه بآراء يمكن الاستعانة ببعضها في بحثنا هذا .

ذكر النص المصري أخبار حملة أو بعثة خرجت في عهد بطلميوس الثاني ، فيما بين عامي ٢٧٨ ـ ٢٧٧ ق.م ، على ما يعتقد تارن ، إلى منطقة تشية وإلى اقصى الجنوب حيث ارض بارستت (اي الفرس) وعملت على استرجاع التماثيل المصرية المقدسة منها . وكانت العبارة الأخيرة من النص عبارة تقليدية اعتادت مصادر عصر البطالمة أن تكررها في نصوص الملوك لتنسب الفضل إليهم في الانتقام للمصريين من أعدائهم الفرس واستعادة ما كان الفرس قد نهبوه من تماثيل المعابد المصرية خلال احتلالهم لمصر .

وانتهى تارن وسميث الى اعتبار اسم تشية التي جعلها النص هدفا رئيسيا للحملة تحريفا مصريا للاسم العربي تيسة أو تاشة ، ثم افتراضاه اسما لمنطقة من تهامة فيما وراء ساحل البحر بين اليمن والحجاز ، وذلك على اساس تشابهه مع إسمين لموضعين عربيين ، اسم ذكره ياقوت في المعجم لجبل باليمن أو على مشارفها يدعى جبل تيس أو تيسه ، وهو اسم يخمن سيدني سميث أنه كان يمتد على منطقة واسعة من تهامة ثم اسم آخر مشابه آخر واسم ممر تاشة الجبلي عند المدخل الشمالي لوادي صفرة الذي يمتد إلى شاطىء الحجاز فيما بين ينبع ورابغ .

وعلل تارن اتجاه مشروع عهد بطلميوس الثاني نحو ساحل الحجاز بعاملين أحدهما رغبة بطلميوس في التضييق على نشاط الانباط الذين انتشروا حينذاك حول خليج العقبة وسيطروا على مينائه الرئيسية وامتدوا منها على جزء من ساحل الحجاز، مع العمل على حرمانهم من المشاركة في تجارة الجنوب العربي من البخور وتوابعه، لاسيما بعد أن هددوا سفن التجارة المصرية في البحر الاحمر. أما العامل الثاني فهو الاستفادة مما جاءت به بعثة أريستون الاستكشافية من أخبار عن ساحل الحجاز، وكانت قد خرجت في بدايةعهد فيلادلفوس حوالي عام ٢٨٠ ق.م تستهدف مسايرة الشاطىء العربي للبحر الاحمر حتى المحيط الهندي وعادت ضمن ما عادت به بمعلومات عن ميناء عربية شمالية ذكرها اريستون باسم خارموثاس تقع بين مناطق الثموديين وأرض دباي، وهذه ليس من سبيل إلى تحديد موضعها الحالي، وإن احتمل تارن وجودها قرب جدة. وصف تقرير اريستون هذه الميناء بأنها من أفضل موانىء العالم، بينما وصفها بعده أرتميدوس على العكس من ذلك بأنها ميناء سيئة خطرة على كل أنواع السفن، ربما بعد ان قلت العناية بها في أيامه.

وهكذا خطط بطلميوس سياسته على أنه إذا وطد علاقاته بما حول هذه الميناء، والنص يقول وطد سلطانه عليها بطبيعة الحال، فلسوف يجعلها مخرجاً مباشراً لتجارة الجنوب العربي إلى مصر، بحيث تتجه المتاجر الواصلة إليها براً أو بحرا بطريق مباشر إلى إحدى الموانىء المصرية المقابلة لها على الساحل الغربي للبحر الأحمر مثل ابوشعر (هيوس هرموس) أو رأس بيناس (برينيكي) أو غيرهما وبهذا يحول دون وصول الجزء الاكبر من هذه التجارة إلى الأنباط المنتشرين في شمال الحجاز، ويحول دون وصولها بالتالي الى أعدائه السليوكيين المسيطرين على بلاد الشام، ولو نجح في مشروعه هذا لصارت له ميناء عربية يحتكر تجارتها، كما فعل خصومه السياسيون السليوكيون حين احتكروا التجارة مع ميناء جرها العربية في الجانب الآخر من شبه الجزيرة العربية على الخليج العربي.

ولم يقتنع رجال بطلميوس بميناء خارموثاس العربية، وإنما يستفاد مما جاءت به بعض نصوص عهدهم وكتابات المؤرخين المتأخرين، أنهم عملوا في

فترة ما تلي عام ٢٧٧ وتسبق عام ٢٦٠ ق.م. فيما يعتقد تارن، على إنشاء أو إصلاح وتنشيط ميناء أخرى تقع إلى الشمال منها دعتها المصادر الاغريقية امبيلوني، ربما بمعنى الكروم، وشجعوا تجارا من ميليتوس على التوطن فيها كمرحلة من مراحل السيطرة الاقتصادية عليها، ثم ما يتبع ذلك عادة من السيطرة السياسية، واقترح جلاسر وجود أمبيلوني هذه إلى الشمال من جدة، وافترض تارن انها نشأت حيث قامت ميناء الحوراء في ارض مدين. بينما افترض تكاتش أنها حلت محل ميناء عربية أخرى ذكرتها مصادر إغريقية باسم إجرا تحريفا في رأيه عن أكرا التي قامت إلى الجنوب قليلا من مدخل وادي الحمض وهو واد يمتد أحد شعابه إلى واحة العلا، تلك التي كانت فيما قدمنا عنها في صدر هذا البحث من اهم مراكز التجارة بين جنوب شبه الجزيرة العربية وبين حدود مصر ومشارف الشام. كما كانت بحكم موقعها وظروفها الخاصة أنسب لمحالفة بطلميوس، وذلك لمصلحته ومصلحتها ايضا ضد أطماع الأنباط القريبين منها والمنافسين لها. وليس من المستبعد أن هذه الظروف قد شجعت اللحيانيين على ممارسة تجارة البحر إلى جانب تجارة البر، أو شجعتهم على اقل تقدير على بسط نفوذهم على الأجزاء الساحلية القريبة منهم بعد أن تبينوا أهميتها في تصدير متاجرهم. وقد زكى كلا من هذين الفرضين ذكر خليج العقبة أو الجزء الجنوبي منه في بعض المؤلفات الكلاسيكية باسم الخليج اللحياني. ولعلهم استخدموا ميناء الوجه في بعض نشاطهم البحري او التجاري حينذاك ايضا.

وآتت العلاقات مع منطقة العلا ثمارها ، وأدت إلى تنشيط اقتصادياتها، والى توطيد الصلات الخاصة بين حكامها اللحيانيين وبين البطالمة في مصر، بحيث تسمى حاكمان لحيانيان على الاقل باسم «تلمى» وهو اسم غير عربي يبدو انه كان تحريفا لاسم بطلميوس (بعد سقوط بائه الاولى وحذف نهايته الاغريقية اوس)، وذلك على مثال ما ورد به في نص نبطي عثر عليه في مصر وما ورد به في التلمود. وكان هذان الحاكمان اللحيانيان هما تلمى بن لوذان وقد بدأ عهده فيما يعتقد كل من ونت وألبرايت بعام ٢٧٥ ق.م. اي عقب المشروع البطلمي بسنوات قليلة، ثم تلمى بن هاناس وقد بدأ حكمه فيما يرى الباحثان السابقان حوالى عام ٢٢٥ ق.م. وتلقب كل من هذين

الحاكمين اللحيانيين بلقب يجمل معنى القداسة . وهو بالنسبة لثانيهما لقب (سموى) أما لقب اولهما فهو غامض القراءة . ورتب تارن على هذا أنه لما كانت القاب التقديس غير مألوفة بين الحكام العرب القدماء فإنه يغلب على الظن أن لقب سموى كان مرادفا ومقلدا للقب التقديس الذي وصف به بعض البطالمة في مصر وهو ثيوس .

ويرى ونت أن تلقيب الملك بلقب سموى يعني رفعه إلى وضع سماوي وتقديسه عند اعتلائه العرش، واذا سبقته كلمة «برأى» اعتبر ذلك نوعا من التجلي الملكي وبهذا قد تترجم «في عهد تجلي ..» ويرى أن الباء قد تحل محل برأى في الأسلوب اللحياني المتأخر وان كانت تحذف قبل ذلك.

تستطيع هذه النتائج لو صحت إذن أن تزكي ما رأيناه من رد التمثال البرونزي الصغير الذي وصفناه قبل صفحات إلى العصر البطلمي في القرن الثالث ق.م. أو بعد بقليل. ولنا أن نفترض أنه كان أحد الهدايا المتبادلة بين البطالمة وبين حكام لحيان. أو نفترض من جهة أخرى بناء على بساطته وصناعته من البرونز دون الذهب مثلا أنه مما أتى به أحد التجار اللحيانيين من هدايا البلاط البطلمي، خلال إقامته في مصر للزيارة او التجارة.

ويرجع نشاط العلاقات التجارية بين مصر وبين العرب القدماء حينذاك أثر خطي معروف اكتشف في أواخر القرن الماضي، وهو نقش كتب بحروف المسند العربية القديمة على تابوت يحتمل العثور عليه في منطقة الجيزة او في منطقة منف (وإن افترض بعض الباحثين أنه نقل أصلاً من منطقة الفيوم). ويذكر هذا النقش تاجراً عربيا باسم «زيد إيل بن زيد» عمل في خدمة أحد المعابد المصرية ولعله معبد سيرابيوم منف، وتولى توريد بعض المنتجات العربية إليه، لاسيما المر والذريرة (قصب الطيب) وغيرهما، على سفينة بحرية. وذلك في مقابل ما كان يصدره ا لى بلده من المنسوجات المصرية التي تروج فيها، وعبر زيد إيل عن وطيد صلته بالحياة المصرية بأن تلقب بلقب «وعب» وهو لقب مصري يعني الكاهن المطهر. وأرخ هذا النص بالعام ٢٢ للملك توليمايوث برتولومايوس، وهو فيما يرجح بطلميوس الثاني، وفيما يقابل عام ٢٦٤/٢٦٣ ق.م. ولا يزال تحديد موطن هذا التاجر العربي موضع بحث فهو قد يكون معينيا من الجنوب العربي شجعه نشاط أساطيل

البطالة في البحر الأحمر على أن يشارك في تجارتهم البحرية لحسابه، أو يكون من اللحيانيين أهل واحة العلا التي توطدت علاقاتها بمصر في عصره، بل وربما كان نبطياً كذلك وهو ما كان يمكن احتماله على اساس استخدام نصفه لفظ «بر» بمعنى ابن وهو نبطي، لولا ما مر بنا عن استحكام العداء بين الأنباط وبين البطالمة في بداية عصرهم، واحتمال تفسير استخدام هذا اللفظ باختلاط اليمنيين الشماليين بالأنباط وتبادل التأثير بينهما.

من خلال هذه الأوضاع إذن يمكن أن نفترض أن أصحاب التماثيل اللحيانية الكبيرة من كبار أثرياء الواحة قد انتدبوا بعض المثالين المصريين إلى ارضهم لينحتوها من الحجر الرملي المحلي باسلوب الفن المصري القديم، ربما بعد أن شاهد هؤلاء الاثرياء روائع هذا الفن في مصر، أو بعد أن وصلتهم نماذجه الصغيرة على هيئة الهدايا. وتقيد الفنانون المصريون في نحتها بتقاليدهم الفنية الخاصة بقوانين النسب وتمثيل الانتصابة القوة والاتجاه المستقيم والجسم المشوق، ولكنهم راعوا إلى جانب ذلك صدق التعبير عن الملامح العربية لأصحاب هذه التماثيل وخصائص أزيائهم لاسيما فيما رأيناه في التمثال ذي الرأس الباقية المحفوظ بمتحف اسطمبول.

وكان من المحتمل أن نفترض نسبة صناعة هذه التماثيل إلى فنانين محليين تدربوا في مدارس مصرية واتقنوا مع بعض التصرف فيها تقليد تماثيلها، سيما وقد ذكر أحد النصين اللذين استشهدنا بهما من نصوص قواعد التماثيل بمعبد الخريبة اسم الصانع «شلم» وذكرت نصوص قليلة أخرى بضعة اسماء لصناع آخرين. وليس من المستبعد أن لقب الصانع «هصنع» هنا كان يمتد الى معنى النحات أو المثال ايضا، ولكن وجه الاعتراض هو أن نسبة صناعة التماثيل الراقية موضوع هذا البحث إلى أحد هؤلاء الصناع الفنيين بالذات أمر يصعب تأكيده، لاسيما مع ما سبق التنوية به من أنه لم توجد نصوص مسجلة على التماثيل نفسها ولم يعثر بعد على قواعدها الاصلية التي كان من المفروض ان تحمل أسماء أصحابها وأسماء صانعيها، وذلك فضلا عن حقيقة واضحة وهي أنه ما من تمثال قلد الاسلوب المصري خارج مصر ونحته فنان أجنبي قد بلغ دقة نحت التماثيل موضوع هذا البحث حتى وإن كان صانعه من الإغريق.

غير أن الجانب التاريخي في تعيين عهد التماثيل الحجرية اللحيانية الكبيرة لا يقف بالمشكلة عند حد عصر البطالمة، فالحاكمان اللحيانيان اللذان أرخ بعهدهما النصان اللذان استشهدنا بهما من معبد الخريبة قد سبقا عهد مشروع بطلميوس وحكم أحدهما وهو منعى لوذان بن هانأس في أواسط القرن الرابع ق.م.، ولو صح أن القاعدتين الحجريتين اللتين نقش عليهما هذان النصان كانتا لتمثالين من التماثيل الحجرية ذات الطابع المصري موضوع هذا البحث أو كانت لتماثيل أخرى أخذت بالاسلوب المصري مثلهما، فإن هذا يعني أن التأثير المصري في فنون لحيان قد سبق العصر البطلمي بفترة ما، ولنفترض الآن فترة الحكم الفارسي وهو ما سوف ندلل على احتمالاته المقبولة في بحث تال نستعين فيه بقرائن تاريخية جديدة تزكي وجود نوع من الترابط بين احداث التاريخ المصري وتطورات التاريخ اللحياني خلال العصر الفارسي الأول والعصر الفارسي الثاني.

وثمة قضية قديمة جديرة بالاعتبار لا بأس من ذكر مناقشتها في هذا المقام لاحتمال صلتها بمصر ولحيان، ولو من حيث الشكل على اقل تقدير، وهي أن بعض النصوص العربية الجنوبية ذكرت اسم «معن مصرن» وعنت به منطقة ما في شمال شبه الجزيرة العربية كان يقيم بها «كبر» اي عظيم أو وال من دولة معين الجنوبية يرعى مصالحها ويرأس جاليتها. وفي تعيين منطقة «معن مصرن» هذه وتحليل اسمها رأى عدد من باحثي الجيل الماضي ولا زال ياخذ برأيهم الاستاذ أدولف جروهمان في كتابه الذي أصدره عام ١٩٦٣، أن الاسم يعني واحة العلا أو عاصمة ددان بعد أن ظهر فيها النفوذ التجاري أو السياسي لدولة معين الجنوبية وجعلها أكبر مراكز التجارة المعينية في شمال شبه الجزيرة العربية، وترتب على ذلك أن عرفت الواحة بصيغة «مصرن» التي قد تعني معنى الحدودية على أساس أن «المصر» في اللغة العربية قد يعني فيما يعني الحد والحاجز، إن لم تعن المصرية دلالة على وطيد صلاتها الحضارية بمصر، أما توقيت نفوذ المعينيين السياسي أو الاقتصادي في واحة ددان فمختلف عليه، فبينما يرى كاسكل أنه بدأ في أواخر القرن الخامس ق.م.، يرى كل من ونت وألبرايت أنه لم يبدأ إلا في القرن الثاني ق.م (اي بعد وضوح الصلات التي رأيناها بين مصر وبين لحيان في

كل من العصر الفارسي والعصر البطلمي). على ان ثمة فرضا آخر نشير إليه على سبيل التحوط وتقليب المشكلة التاريخية على كل وجوهها، وهو احتمال دلالة اسم «معن مصرن» على معان المصرية في اقصى شمال الحجاز لدى الحدود الاردنية وقد ورد اسمها في بعض المصادر الاسلامية فعلا مرادفا لاسم معان الحجازية وفي مقابل معان الشمالية، لولا أنه يضعف هذا الفرض ما ذكرته النصوص المعينية الجنوبية عن إقامة كبير معيني في «معن مشرن»، وليس من بينة معروفة على امتداد نفوذ دولة معين الجنوبية إلى قرب الحدود الأردنية وإنما هو نفوذ اقتصر مداه الشمالي القديم على واحة لحيان في حدود المصادر المعروفة حتى الآن.

لم يقتصر ما بين مصر القديمة وبين مناطق شمال شبه الجزيرة العربية من صلات حضارية على ما بينها وبين واحة العلا أو لحيان، وإنما ظهر أثر هذه الصلات كذلك فيما بينها وبين مناطق الانباط. والانباط فيما اسلفنا عنهم قوم من الأعراب أو العرب انتشروا في شمال الحجاز وفي جنوب الشام واخذوا بالثقافة الأرامية، وتأرجحت علاقاتهم بدولة مصر ودول الشام بين العداء وبين المسالمة وفق ما اقتضته مصالحهم ووفقا لما لمسوه من تطور موازين القوى بين جيرانهم. وانتفع الانباط في عهود تحضرهم واستقرارهم بما اتصلوا به من الحضارات المصرية والسورية والهيلينستية بل والبارثية ثم الرومانية اتصالا مباشرا حينا وغير مباشر حينا آخر، وجمعوا بين ما استفادوه واستطاعوا استيعابه من فنون هذه الحضارات وبين فنونهم المحلية والأرامية فيما اقاموه وتركوه من آثار معمارية حفلت بها مدينة بترا عاصمتهم الرئيسية في الاردن، وبعض المدن الصغيرة القريبة منها، كما حفلت بها كل من مغاير شعيب بارض مدين في شمال الحجاز، ومدائن صالح إلى الشمال من واحة العلا، ونكتفي بآثار هذه المنطقة الاخيرة اي مدائن صالح. وترجع آثار الانباط بها فيما نمت عنه نصوص لوحاتها إلى ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الاول بعد الميلاد.

وتتمثل هذه الآثار فيما يزيد عن مائة مقبرة نحتت وشكلت واجهاتها في السفوح الجبلية بالمنطقة، وتفاوتت فيما بينها في أحجامها وفي فخامتها، وامتازت واجهات مقابر خاصة القوم منها بالضخامة والروعة حتى شابهت

واجهات القصور وإن لم يوجد في بيئتها من آثار المباني الدنيوية ما يرقى إلى مستواها . وقد جمع طرازها المعماري والزخرفي بين الاسلوب المحلي وبين عدة أساليب خارجية ومنها الأسلوب المصري الذي يعنينا بحثه والذي يتضح أكثر ما يتضح في عنصرين معماريين ان لم يكن في ثلاثة عناصر ، والعنصران المرجحان منه هما الكورنيش المصري والتورس او الخيزرانة وكل منها عنصر نباتي الاصل قلد المصريون القدماء هيئته في الحجر بعد تبسيط خطوطه ، وتوجوا بهما أغلب واجهات عمائرهم الحجرية . ويبدو ان المعماري النبطي عندما قلد تشكيل هذين العنصرين المصريين في عمارته اقتبس معهما هيئة الجزء العلوي من صروح المعابد المصرية في العصر البطلمي ، وجعل هذه الوحدة الثلاثية تؤلف الجزء العلوي من مقابره الرئيسية وإن علاها في أغلب الأحيان عنصر معماري زخرفي آخر يغلب عليه الطابع المحلي ويتألف من خمس درجات متدرجة الاتساع تنتظم في مجموعات على طرفي الواجهة بحيث تواجه كل مجموعة منها الأخرى وتنفصل عنها بفراغ يتوسطهما .

وتميل جوانب واجهات المقابر النبطية المنحوتة في السفوح الجبلية ميلاً طفيفا نحو الداخل كلما ارتفعت إلى اعلى ، وهو ميل يشبه ميل جدران المباني الحجرية المصرية ايضا ، ولكن ليس ما يمنع من اعتباره في الوقت نفسه اسلوبا محليا تطور في عمارة الحجر بعد تقليد ميل الجدران الخارجية للمباني اللبنية . وتلك ظاهرة تكررت في أكثر من بيئة حضارية قديمة (حتى لقد ظهرت في بناء قصر دارا في برسوبوليس) ولا تزال تشاهد في المباني اللبنية في بعض بلدان المملكة العربية السعودية وغيرها حتى الآن .

ليس بين آداب الأنباط ونصوصهم الدينية ما يشهد بإيمانهم إيمانا صريحاً بحياة أخرى بعد الموت ، فهل كانت البواعث على اهتمام أثريائهم المفرط بفخامة مقابرهم قاصرة على مجرد رغبتهم في التفاخر بها وضمان خلود الذكر عن طريقها ؟ ام أنهم تأثروا في تشييد مقابرهم ولو إلى حد ما ، بالعقائد المصرية القديمة عن الخلود بعد الموت وما أوحت به من منطقية بناء دور الاخرة أي مقابرها على مثال فخامة الدور الدنيوية لأصحابها ، ثم بما جرت عليه عادة المصريين في أغلب عصورهم القديمة من نحت معظم مقابرهم في الواجهات الصخرية لمناطق الجبانات ؟ الواقع أنه ليس من جواب شاف لهذا ،

إذ تقابل وجوه التشابه هذه وجوه اختلاف، ومن أهمها قلة احتفاء النبطي بالأجزاء الداخلية من مقبرته الصخرية على العكس من شدة عناية المصري بها من حيث السعة والعمق والصقل والتلوين وكثرة النصوص والمناظر التي تعبر عن عقائده في البعث والخلود وآماله في حياة الآخرة.

وبغير ان نتجاهل أهمية اتصالات أنباط مدائن صالح بالمصريين القدماء تلك الاتصالات التي زكاها العثور على نصوص نبطية كثيرة بمناطق عدة في مصر، وهذه لابد أن كانت منها نصوص لأنباط الحجاز، لا مانع من ان نفترض أن مقابر مدائن صالح الحجازية قد اقتبست عناصرها المصرية عن مقابر بترا الاردنية ضمن ما أخذته منها من عناصر سورية وبارثية وهلينستية ورومانية، وكانت بترا وما حولها من مدن جنوب فلسطين أكثر وأقدم اتصالا بالحضارة المصرية بطبيعة الحال. ولسنا ندري هل ضمت صفوف المعماريين في مدائن صالح أفراداً من خارج ارضهم أم لا؟ وإنما كل ما يمكن التنوية به هو ان المعماري النبطي كثيرا ما كان يذكر اسمه في ختام نصوص لوحات المقابر ويكتفي معه بلقب ارامي الاصل وهو لقب «فسلا» اي نحات، ودلت بعض نصوص المقابر على اشتراك اكثر من فسلا واحد (جمع فسليا) في إتمام المقبرة وهذا أمر طبيعي مع كون أحدهم رئيسا لجماعته. ولا ندري مرة أخرى مدى قيام هذا «الفسلا» النحات بدور المهندس في تخطيط واجهة المقبرة وعناصرها المعمارية، أو بدور الفنان في تشكيل عناصرها الزخرفية والدينية المجسمة وأخصها هيئات النسور والوجوه الخرافية والافاعي والحيوانات والاواني المصمتة. وكل ما يمكن قوله أن «الفسلا» كان ذا مرتبة حرفية واجتماعية متميزة عن مكانة البناء العادي الذي كان يذكر معه احيانا بلقب «بنى» النبطي. وعرفت مدائن صالح اسرة من النحاتين تولت تنفيذ عدد كبير من مقابرها خلال عدة اجيال متوالية، وهي اسرة عبد عبدة او عبد عبادة (ومنهم وهب إلهي وأفتح وروما وزيبو وعبد حارثة..) إلى جانب افراد آخرين ذكرت النصوص من اسمائهم اسماء حور بن اخيو ووهب بن افصا وخلف إلهي بن حملا جو، وهانيء بن عبيدة وافصا بن حوتو، وحفلج، وعبد ملكو، وسعد.. الخ.

ولعل فيما جرى عليه أهل المنطقة الحاليون من تسمية إحدى المقابر

الرئيسية بمدائن صالح باسم «قصر الصانع»، ما ينم ولو إلى حد ما عما تخيلوه لمهرة الصناع أو المعماريين الأوائل من ثراء في مجتمعهم القديم، وان لم يرفعهم ثراؤهم هذا إلى صفوف عليه القوم واشرافهم أو يجعلهم أهلا للإصهار اليهم. فقد تناقل أهل المنطقة اسطورة حول هذا الصانع لا ضرورة للأخذ بحرفيتها، وإنما يتمثل وجه الطرافة فيها فيما ذكرته عن مقتله شر قتلة نتيجة لتجرئه على عشق ابنة أحد كبار قومه، ونسبوا لهذه الإبنة التي سموها باسم بثينة وأبيها الشيخ حدرى مقبرتين عظيمتين في مدائن صالح أطلقوا عليهما اسم قصر البنت وقصر ابي البنت. وبلغ ارتفاع واجهة أولاهما نحو عشرين مترا فوق قاعدة صخرية ترتفع نحو اربعة او خمسة امتار، ولم تكن هذه قصرا في حقيقة أمرها وإنما هي مقبرة انشأها رجل يدعى هانىء لنفسه ولأولاده كما يستفاد مما نشره جوسين وسافينياك عن نصوصها.

وكما استحب الانباط بعض العناصر المعمارية والفنية المصرية وقلدوها في آثارهم، اقامت جالية منهم في شرق الدلتا بمصر على امتداد وادي الطميلات الذي تسلكه القوافل في طريقها من سيناء إلى وادي النيل، وربما اقيم لهم فيه معبد بقى منه نصب حجري نقشت عليه ثمانية سطور. وإلى جانب من عملوا منهم في تجارة القوافل وفرق المرتزقة في الجيش المصري في عصر البطالمة، آثر عدد منهم الاستقرار في مصر وعملوا في بعض الأعمال المدنية والدينية، ويؤرخ آخر نصوصهم التي كشف عنها في مصر بعام ٢٥٣م. وقد اندمجوا شيئاً فشيئا في البيئة المصرية التي عاشوا فيها وتأثروا بديانتها شأنهم شأن غيرهم من الجماعات الصغيرة الاخرى التي وفدت إليها.

● ● ●

المحاضرة الثانية عشرة

مدخل إلى علم المكتبات

للأستاذ الدكتور / حشمت قاسم



مدخل إلى علم المكتبات

من العبارات التي كثيرا ما تتردد الآن، رغم افتقارها الواضح إلى الصحة، أننا نعيش عصر المعلومات، وتقدم هذه العبارة المعلومات وكأنها اكتشاف عصري، ويأتي ترددها مصاحبا لاتجاه يحاول الربط بين ظاهرة المعلومات والافادة من ثمار التطورات التكنولوجية من حاسبات الكترونية واقمار صناعية ... في مجال الاتصال، وينطوى تردد هذه العبارة على تجاهل لحقيقة اساسية وهي ان المعلومات ظاهرة اجتماعية حضارية، ارتبطت بحياة الانسان منذ محاولاته المبكرة للتعرف على البيئة المحيطة به، ومحاولة تسخير ما يستطيع السيطرة عليه من عناصر هذه البيئة لتوفير مقومات الحياة المناسبة، ولولا هذا التواصل في اهتمام الانسان بالملاحظة والاستكشاف (انتاج المعلومات) وتبادل المعلومات والخبرات (الاتصال العلمي) وتسجيل هذه المعلومات والخبرات (البث) إلى آخر هذه المراحل في دورة حياة المعلومات، لما أمكن للبشرية أن تبلغ ما بلغته من تقدم حضاري.

حقا تحظى المعلومات الآن بقدر لا يستهان به من الاهتمام، ويبدو هذا الاهتمام احيانا وكأنه دليل على اعادة اكتشاف اهمية المعلومات ودورها الحيوي في جميع مجالات حياتنا. ويدعونا ذلك للقول بأن الاهتمام بالمعلومات انما يبلغ ذروته دائما بصحبة التغيرات الحضارية الكبرى والانجازات البشرية البارزة. واذا كنا اليوم نعيش عصر الفضاء فان ذلك لم يتحقق الا بفضل تواصل جهود الأجيال المتعاقبة من العلماء والباحثين. وهنا يصدق قول اسحق نيوتن: «اذا كان نظري قد احاط بما لم يصل اليه معظم البشر، فان ذلك لم يتحقق الا بالوقوف على اكتاف العمالقة». ولقد كان الانسان منذ فجر تاريخه حريصا على تسجيل خبراته ومعارفه وصيانة

مسجلات هذه الخبرات والمعارف، ولولا هذا الحرص على التسجيل فيما يمكن تسميته بمحفوظات المعرفة البشرية، وتوفير امكانات تجميع هذه المحفوظات وتنظيمها وتيسير سبل الافادة منها، لكان على كل جيل ان يبدأ من حيث بدأ غيره، ولما أمكن للبشرية ان تتقدم خطوة للامام.

ولسنا بحاجة للقول بأن تطور اساليب التسجيل واشكاله وطرق حفظ المسجلات وأنماط تداولها كان مرتبطا أوثق الارتباط بتطور المعرفة البشرية وتزايد قدرة الانسان على السيطرة على بيئته وتسخير عناصر البيئة لخدمته، كما اننا لسنا ايضا في مقام تتبع مراحل تطور أشكال التسجيل والمؤسسات القائمة على حفظ المسجلات، فهذا موضوع قد تكفلت به كتب تاريخ الحضارة بوجه عام وتاريخ الكتب والمكتبات بوجه خاص. وما نود تأكيده هنا هو مسايرة مؤسسات حفظ مسجلات المعرفة البشرية لما يطرأ من تطور على معدلات انتاج المعلومات، وأشكال اوعية المعلومات وسبل بثها فضلا عن الامكانات التكنولوجية المتاحة لخدمة الانسان في هذا المجال، هذا بالاضافة إلى انماط الطلب على المعلومات، ومدى نمو الوعي بأهميتها والحرص على الافادة منها في مختلف المجالات.

وهدفنا في هذا التمهيد تهيئة الاذهان لتقبل عدد كبير من التسميات الجديدة التي تطلق الآن على المرافق والمؤسسات القائمة على توفير خدمات المعلومات بأي مجتمع، وابراز الخيط الرابط بين هذه المؤسسات جميعاً، وكيف كان تغير تسمياتها مرتبطا ببعض التطورات في مجال انتاج المعلومات وتسجيل المعلومات ورصد أوعية المعلومات، وتجميع هذه الأوعية وتنظيمها وتجهيزها لتيسير سبل الافادة منها: فبالاضافة إلى المكتبات بكل أنواعها لدينا الان الارشيفات ودور المحفوظات على اختلاف مستوياتها، ومراكز التوثيق ومراكز المعلومات، ونظم استرجاع المعلومات، وبنوك المعلومات ومراصد البيانات، ومراكز تحليل البيانات. هذا فضلا عن وحدات التوعية والتوجيه والارشاد في المجالات الاجتماعية والصحية والزراعية والصناعية.. الخ. كل هذه هيئات يمكن اللجوء اليها التماسا للمعلومات. ومهمتنا في هذا الفصل التعريف بأهم هذه المؤسسات، تعريفا يدعم أواصر الالفة مع ماعرفناه منها، ويزيح استار الغموض التي احاطت ببعض المستحدث منها، ويهدف في النهاية إلى رفع كفاءة التعامل مع هذه وتلك. ونراعى في تسلسل عرض هذه

المؤسسات تطور الاهتمامات القرائية، ودوافع البحث عن المعلومات، حيث نبدأ بالمكتبة المدرسية التي تتكفل بخدمة القارىء في المراحل المبكرة لتفتح الاهتمامات القرائية والتي ينبغي أن يتعامل معها كل من تتاح له فرصة الافادة من الخدمات التعليمية الاساسية التي يوفرها المجتمع، وننتهي بمراكز تحليل المعلومات التي تقتصر الافادة منها على فئات معينة من المسئولين عن اتخاذ القرارات في اي مجال من مجالات الحياة العامة ونركز في تناولنا لهذه المؤسسات على طبيعة نشاطها والمهام التي تضطلع بها. فكل هذه المؤسسات تعمل على تهيئة سبل استثمار ثروة المعلومات الا أنها تختلف فيما بينها من حيث الاهتمامات الموضوعية، ومستوى الاهتمام، وفئات المستفيدين من خدماتها، وتفاوت الاهتمام باشكال معينة من اوعية المعلومات، وأنواع الخدمات التي تقدمها، والاساليب التي تتبعها في تنظيم مقتنياتها من اوعية المعلومات: فمنها ما يتبع الاساليب اليدوية التقليدية ومنها ما يستخدم ثمار التطورات التكنولوجية من حاسبات الكترونية ومصغرات فيلمية فضلا عن وسائل الاتصال من مسافات نائية. ورغم كل هذه الاختلافات الشكلية فان هذه المؤسسات يجمعها هدف مشترك وهو توفير المعلومات لمن يحتاج اليها والفارق بينها - كما يقولون - فارق في الدرجة وليس فارقا في النوع.

المكتبة المدرسية:

وكما هو واضح من تسميتها ترتبط هذه الفئة من المكتبات بالمدرسة بمراحلها الاساسية الثلاث، الابتدائية والاعدادية (المتوسطة) والثانوية. ومكتبة المدرسة الابتدائية - كما سبق أن اشرنا - هي أول ما يصادفه القارىء من موارد القراءة الحرة، ثم تحاول المكتبات المدرسية في المراحل التعليمية المتتابعة مسايرة النمو العقلي للتلاميذ وتطور اهتماماتهم القرائية، وذلك من حيث المستوى القرائي للمقتنيات وطبيعة الخدمات. وللمكتبة المدرسية وظائفها التربوية والترفيهية والتعليمية. فبالاضافة إلى تنمية الوعي القرائي وغرس بعض القيم والعادات الاجتماعية كمراعاة النظام والمحافظة على الممتلكات العامة توفر المكتبة المدرسية للتلاميذ المواد القرائية التي تساعدهم على تزجية أوقات فراغهم بشكل نافع فضلا عن المشاركة الفعالة في الانشطة المدرسية المختلفة، كما أنها تعمل ايضا على خدمة أهداف المناهج والمقررات

الدراسية، حيث تتيح للتلميذ فرصة تتبع موضوعات دراسته في اكثر من مصدر واحد، مما يوسع مداركه ويكسبه القدرة على تحصيل المعلومات بنفسه، فضلا عن تنمية قدرته على التحليل والمقارنة والربط.

ولما يكتسبه التلميذ من مهارات في التعامل مع مصادر المعلومات بالمكتبة المدرسية أثره الايجابي في التعامل مع ما يتوافر له من موارد المعلومات في جميع مراحل حياته، وما نلحظه الآن من قصور في الافادة من مصادر المعلومات وعجز عن التعامل الفعال مع المكتبات وغيرها من مرافق المعلومات، أو ما يمكن تسميته بغياب الوعي المكتبي أو الوعي الاعلامي، المؤدي إلى كثير من مظاهر التخبط والارتجال في كثير من مجالات حياتنا الخاصة والعامة، انما مرده إلى قصور الخدمة المكتبية المدرسية في جميع المراحل بلا استثناء. فواقع المكتبة المدرسية في معظم الدول العربية سيء بكل المقاييس، ولا يحتاج تغييره الا لقدر لا يذكر من الموارد المالية (اذا ما قورن بنصيب غيره من ابواب الانفاق الاخرى) وتنظيم استغلال الموارد البشرية المتاحة. والمتتبع لتطور الخدمة المكتبية المدرسية في مصر على سبيل المثال يرى كيف تدهورت هذه الخدمة في السبعينات عما كانت عليه في الستينات. وأسباب ذلك معروفة وموثقة، ولا مجال للاستطراد.

ومن الأمثلة المشرفة لتقدم الخدمة المكتبية المدرسية في الدول العربية ما نشهده في الكويت، حيث بدأت النهضة المكتبية منذ نهاية الخمسينيات واستمرت بخطى مطردة واعية حتى بلغ مجموع المكتبات المدرسية في العام الدراسي ١٩٨٢/٨١، ٤٣٧ مكتبة موزعة على جميع مراحل التعليم قبل الجامعي بدءاً برياض الاطفال حتى المرحلة الثانوية بالاضافة إلى معاهد التربية الخاصة، وبالاضافة إلى هذا التطور الكمي حدثت بعض التطورات النوعية المتمثلة في رفع كفاءة الخدمات في بعض المكتبات وتحويل بعضها الآخر إلى مايسمى بمراكز الموارد التعليمية، حيث لا يقتصر الأمر على الكتاب وغيره من المطبوعات وانما يشمل الاهتمام ايضا بالمواد السمعية والبصرية بكل أشكالها، فضلا عن مجموعات التعليم المبرمج.

وللمكتبات المدرسية بالمملكة العربية السعودية نصيب وافر في النهضة المكتبية الشاملة التي تشهدها البلاد في هذه المرحلة.

المكتبة العامة :

وتسمى هذه الفئة بالمكتبات العامة لسببين اولهما أنها تقدم خدماتها لجميع فئات المجتمع بلا استثناء بصرف النظر عن السن او الجنس أو اللون أو الدين أو الاتجاه السياسي او المستوى التعليمي او الثقافي ... الخ . وثانيهما أنها تهتم بجميع مجالات المعرفة . وليس معنى الاهتمام بجميع المجالات أنه ليس هناك تفاوت في الاهتمامات الموضوعية ، وانما عادة ما يكون التفاوت ناتجا عن الاهتمام النسبي بموضوعات أولية بالنسبة للبيئة التي تخدمها المكتبة : فمن الطبيعي مثلا أن المكتبة التي تقدم خدماتها في بيئة زراعية أن تولى اهتماما خاصا لما يتصل بالزراعة من مواد قرائية . كذلك تبدى المكتبة العامة اهتماما خاصا بالتاريخ المحلي للمدينة أو الضاحية أو القرية التي توجد بها .

وللمكتبة العامة اربع وظائف اساسية ، هي الوظيفة الثقافية والوظيفة التعليمية والوظيفة الاعلامية والوظيفة الترفيهية : فهي اولا توفر المواد القرائية التي تسهم في تنمية التذوق الفني والجمالي ، كما توفر أيضا الكتب وغيرها من المواد اللازمة لخدمة الاغراض التعليمية وخاصة تعليم الكبار ، هذا بالاضافة إلى توفير المراجع اللازمة للرد على الاستفسارات في جميع الموضوعات التي تحظى باهتمام المجتمع المستفيد من خدماتها ، فضلا عن توفير المواد التي يمكن قراءتها لاغراض تزجية وقت الفراغ . ولا تقتصر مهمة المكتبات العامة على الانشطة القرائية وانما تحرص بعض المكتبات الآن على تهيئة مقومات الانشطة الثقافية الاخرى كالندوات والمحاضرات والعروض المسرحية والحفلات الموسيقية ، والاستماع إلى المسجلات السمعية ومشاهدة المسجلات البصرية ، إلى آخر ذلك من الانشطة المرتبطة باهداف هذه الفئة من المكتبات .

وللمكتبة العامة دورها البارز في دعم امكانات المكتبة المدرسية : حيث تخصص معظم المكتبات العامة اقساما خاصة بالاطفال تزودها بالمواد القرائية المناسبة . وعادة ما تكون مثل هذه الخدمات متاحة للاطفال قبل سن المدرسة ، حيث تهيئهم للتعامل الفعال مع المكتبة المدرسية فيما بعد . كذلك تعمل بعض المكتبات العامة على تزويد المكتبات المدرسية ببعض المواد على سبيل الاعارة طويلة الاجل ، وتأكيدا لدورها الحيوي في المجتمع تحرص بعض المكتبات العامة على انشاء نقاط خدمة متقدمة بالاندية والمستشفيات وغيرها من المؤسسات الاجتماعية . كما تحرص هذه الفئة من المكتبات على تقديم خدماتها

للتجمعات السكانية المتفرقة وذلك من خلال المكتبات المتنقلة (Bookmobile) ·

وعادة ما تكون الخدمات المكتبية العامة مسئولية المجالس المحلية ومجالس البلديات بالمدن، كما كان عليه الحال مثلا في جمهورية مصر العربية حتى بداية الستينات، ومن اشهر مكتبات البلديات وابرزها في ذلك الوقت مكتبة بلدية الاسكندرية ومكتبة بلدية طنطا ومكتبة بلدية اسيوط. ثم تغير الحال حيث أصبحت الخدمة المكتبية الآن مسئولية الوزارة القائمة على شئون الثقافة. وكثيرا ما نجد للمكتبات العامة مسئولية مشتركة بين البلديات ووزارة الاعلام والثقافة كما هو الحال مثلا في دولة الامارات العربية المتحدة. والتنظيم الأمثل للمكتبات العامة الآن هو تجميعها في شبكات متعاونة على رأسها جهاز مركزي يتولى مسئوليات التنسيق والاشراف الفني وادارة البرامج التعاونية، وخاصة ما يعرف الان بالفهرسة المركزية وما يترتب عليها من أشكال تبادل المنفعة وفي مقدمتها تبادل الاعارة. ويمكن لمثل هذه الشبكات ان تكون على المستوى الاقليمي او القومي، حيث يتوقف ذلك على حجم الدولة ومدى التوسع في توفير الخدمة المكتبة العامة.

المكتبة القومية:

وتسمى هذه الفئة بمكتبة الدولة أو المكتبة الوطنية نظرا لان الحكومة هي التي تتكفل بتمويلها فضلا عن انها تقدم خدماتها على مستوى الدولة كلها. وللمكتبات القومية وظيفتان اساسيتان، أولاهما المحافظة على التراث الفكري للدولة، والثانية خدمة اهداف البحث العلمي الجاد. ولأغراض الوظيفة الاولى تقوم المكتبة القومية باقتناء واختزان كل ما يصدر بالدولة من مطبوعات، فضلا عن المطبوعات التي تتناول الدولةكموضوع ايا كان مكان صدورها، حيث تقوم بمهمة التعريف الوراقي (الببليوجرافي) بهذه المطبوعات وعادة ما يتخذ هذا التعريف شكل ما يسمى بالوراقية القومية التي نتناولها بشيء من تفصيل في فصل لاحق. أما فيما يتعلق بالوظيفة الثانية فان خدمات المكتبة القومية تمييزا لها عن خدمات المكتبة العامة ـ عادة ما تقتصر على الباحثين ممن يحملون دليلا يؤكد مواصلتهم البحث في موضوع معين، كطلبة الدراسات العليا، والباحثين بمراكز البحوث والمهتمين بالبحث والتطوير في وحدات الانتاج والخدمات.

ويرتبط تجميع الانتاج الفكري القومي عادة بتشريعات حقوق النشر وقوانين الايداع حيث تلزم هذه القوانين الناشر أو المؤلف أو كليهما متضامنين بتقديم عدد معين من نسخ اي مادة يتم نشرها للمكتبة القومية. وتختلف نوعيات المواد التي تغطيها قوانين الايداع من دولة إلى اخرى، فعادة ما تخضع الكتب والدرويات والصحف لهده القوانين، في حين يختلف الموقف بالنسبة للتسجيلات الموسيقية والخرائط والمصورات والاسطوانات والافلام من دولة إلى اخرى، كذلك تختلف فعالية مثل هذه التشريعات من دولة إلى اخرى، ويتوقف ذلك على ما يبديه الناشرون من تعاون.

ويحدث في بعض الاحيان أن تكون ادارة الارشيف القومي أو المحفوظات الرسمية للدولة مسئولية المكتبة القومية. وفي حالة الاستقلال الاداري لدور المحفوظات القومية، فانها غالبا ما تحرص على التنسيق والتعاون مع المكتبة القومية.

ومن أشهر المكتبات القومية في العالم المكتبة البريطانية التي ورثت كلا من مكتبة المتحف البريطاني بكل فروعها بلندن وخاصة المكتبة القومية للارشاد والمراجع في العلوم فضلا عن المكتبة القومية للاعارة في العلوم والتكنولوجيا بيوركشاير. وقد تم ذلك في سياق اعادة تنظيم الخدمة المكتبية القومية في بريطانيا في النصف الأول من السبعينات. وهناك الآن في بريطانيا نتيجة لبعض الظروف التاريخية والتنظيمات الدستورية ثلاث مكتبات قومية رئيسية، فبالاضافة إلى المكتبة البريطانية هناك المكتبة القومية لاسكتلندا في ادنبره والمكتبة القومية لويلز في ابرستويت. وتضطلع مكتبة البرلمان الياباني (Diet) ايضا بمهمة المكتبة القومية، وفي فرنسا نجد المكتبة الوطنية، كما نجد مكتبة لينين بالاتحاد السوفييتي، وهذه كلها من أقدم وأكبر المكتبات القومية في العالم.

أما في العالم العربي فربما كانت دار الكتب المصرية هي اقدم مكتبة قومية حديثة، حيث انشئت في الربع الاخير من القرن التاسع عشر، الا أن نشأتها جاءت مصحوبة بخلط بين مهام المكتبة العامة ومهام المكتبة القومية، حيث ظلت هذه المكتبة زمنا مسئولة عن الخدمة المكتبية العامة التي تقدم من خلال عدد من المكتبات الفرعية بالقاهرة، فضلا عن الاضطلاع بمهام المكتبة القومية. وقد شهد تنظيم الخدمة المكتبية القومية في مصر عدة تغييرات

تنظيمية منذ منتصف الستينات، تمثلت بشكل اساسي في الفصل بين الخدمة المكتبية العامة والخدمة المكتبية القومية، حيث انشئت المكتبة العامة المركزية بقصر عابدين اولا ثم انتقلت إلى المقر القديم لدار الكتب المصرية بميدان أحمد ماهر (باب الخلق) لتتولى الاشراف على المكتبات الفرعية، كما انتقلت المكتبة القومية إلى مقرها الجديد على كورنيش النيل ببولاق، حيث ضمت اليها دار الوثائق القومية ليصبح اسمها «دار الكتب والوثائق القومية»، وما لبثت ان انضوت تحت مظلة هيئة قومية اكبر وهي «الهيئة المصرية العامة للكتاب». وقد عانت الخدمة المكتبية القومية ولا شك نتيجة لهذه التغيرات المتلاحقة.

وفي سوريا تتقاسم كل من الماكتبة الظاهرية بدمشق والمكتبة الوطنية بحلب مهام المكتبة الوطنية. هذا وقد شهدت سبعينات القرن الحالي ميلاد عدد من المكتبات القومية في الدول العربية، حيث انشئت دار الكتب القطرية بالدوحة، ودار الكتب الوطنية ببنغازي بليبيا، ودار الكتب الوطنية ببغداد بعد أن كانت مكتبة جامعة بغداد تتولى بعض مهام المكتبة القومية، كما أن هناك الآن عددا من المكتبات القومية التي لازالت في طور التخطيط في كل من المملكة العربية السعودية ودولة الامارات العربية المتحدة على سبيل المثال لا الحصر.

المكتبة الجامعية:

حين نتحدث عن المكتبات الجامعية فاننا في الواقع نتعرض لشبكات تضم اعدادا من المكتبات العاملة على خدمة الوسط الجامعي بكل مكوناته، فمن النادر الان ان تعتمد الخدمة المكتبية في اي جامعة على مكتبة واحدة، فقد اصبحت مهام الخدمة تتوزع على عدد من المكتبات المتعاونة فيما بينها تحت مظلة مكتبة مركزية او ادارة مركزية تتولى مسئولية التنسيق والاشراف الفني ورعاية برامج التعاون. وللمكتبة بالجامعة ثلاث وظائف اساسية مستمدة من الوظائف الثلاث الرئيسية للجامعة، وهي التعليم والبحث وتنمية المجتمع. فلكل جامعة برامجها الخاصة بالتعليم وتأهيل المتخصصين والمهنيين تلبية لاحتياجات المجتمع، كما أن لها ايضا برامجها الخاصة بالدراسات العليا والبحوث الاساسية الرامية لتطوير المعرفة البشرية والبحوث التطبيقية اللازمة لتطوير الخدمات ومقومات الانتاج في المجتمع، هذا بالاضافة إلى المشاركة الايجابية المباشرة في مشروعات التنمية الاجتماعية في البيئة المحيطة بها. وتحرص

المكتبـات الجـامعيـة على تـوفيـر مصـادر المعـرفـة اللازمـة لهـذه البـرامـج والمشروعات .

وكما سبق أن اشرنا فان الخدمة المكتبية بالجامعة تعتمد على مكتبة مركزية يدور في فلكها عدد من المكتبات الفرعية الموزعة على الكليات او المعاهد او الاقسام التخصصية التي تضمها الجامعة . والواقع ان هناك انماطا متعددة لبناء شبكات المكتبات الجامعية فبالاضافة إلى النمط التقليدي المبني على توزيع المكتبات وفقا للكليات ، هناك نمط يعتمد على تقسيم مجالات اهتمام الجامعة إلى مجموعة من القطاعات الموضوعية المتجانسة ، واكثر اشكال هذا النمط انتشارا الان تقسيم مجالات الاهتمام إلى ثلاثة قطاعات موضوعية اساسية وهي قطاع الانسانيات وقطاع العلوم الاجتماعية وقطاع العلوم والتكنولوجيا . وواقع الامر أن بنيان شبكات المكتبات الجامعية غالبا ما يجمع بين اكثر من اساس واحد في نفس الوقت .

هذا وقد صاحب توزيع مهام الخدمة المكتبية الجامعية على عدد من المكتبات الفرعية تساؤل حول موقف المكتبة المركزية بالجامعة ، وتختلف الآراء والممارسات الان حول الدور الذي يمكن لهذه المكتبة ان تنهض به ، فقد اقتصرت مهمة هذه المكتبات المركزية وخاصة في الجامعات الناشئة ، على مهام التنسيق والاشراف الفني على المكتبات الفرعية فضلاً عن اقتناء بعض المواد التي يمكن ان تخدم المستفيدين من اكثر من مكتبة فرعية واحدة الا انه لا يمكن تكرارهـا لسبـب او لآخـر ، وخـاصـة بعـض الدوريـات ذات التغطيـة الموضوعية العريضة والاعمال المرجعية الشاملة والخدمات الوراقية الضخمة كالكشافات ونشرات المستخلصات ، والفهارس الموحدة . . . الخ . ومن الملاحظ وخاصة في الجامعات العريقة ان دور هذه المكتبات المركزية قد اصبح يقتصر على خدمة المتخصصين في الانسانيات وبعض فروع العلوم الاجتماعية . واذا نظرنا إلى شبكات المكتبات في مثل هذه الجامعات نجد أنه قد نمت بشكل يصعب التحكم فيه ، كما هو الحال في جامعة اكسفورد وكمبردج ولندن . فاذا علمنا ان شبكة مكتبات جامعة لندن على سبيل المثال تضم الان ستا وستين مكتبة موزعة على الكليات والمعاهد والاكاديميات والمستشفيات لادركنا مدى تعقيد مثل هذه الشبكات وصعوبة التعرف على الموارد المكتبية المتاحة في مثل هذه الجامعة ، وحاجة المستفيدين منها وخاصة المستجدين منهم إلى الخدمات

الارشادية الاساسية .

واذا نظرنا إلى المكتبات الجامعية في العالم العربي نجد انها ـ باستثناء مكتبات الازهر وغيره من الجامعة الاسلامية العريقة في المغرب والمشرق العربي ـ أحدث عهدا من المكتبات الجامعية في الغرب ، وتسير على نمط موحد تقريبا في بنيان شبكاتها ، حيث تعتمد كل شبكة على وحدة مركزية يدور في فلكها عدد من المكتبات الفرعية الموزعة على الكليات والمعاهد . ولا تختلف هذه الشبكات الا فيما يتعلق بالدور الذي تنهض به المكتبات أو الوحدات المركزية ، والذي يتفاوت ما بين الاضطلاع بمهام الخدمة المكتبية الكاملة كما هو الحال بمكتبة جامعة الامارات العربية المتحدة ، والاقتصار على عمليات التزويد والاعداد الفني وبعض الخدمات المركزية كما هو الحال بمكتبة جامعة الكويت .

المكتبة المتخصصة :

والمكتبة المتخصصة هنا هي المكتبة التي تهتم بالانتاج الفكري المتخصص في مجال موضوعي معين أو الانتاج الفكري المناسب لخدمة نشاط معين ، وتتفاوت المكتبات المتخصصة فيما بينها تبعا لاختلاف الاهتمامات الموضوعية للمستفيدين من خدماتها . فمن الممكن على سبيل المثال اعتبار شبكة المكتبات الجامعية الموزعة على اسس موضوعية شبكة من المكتبات المتخصصة في خدمة الجامعة . وفي مقابل ذلك نجد المكتبات التابعة لمراكز البحوث والمكتبات المتخصصة للشركات والمؤسسات والمصالح الحكومية والوحدات الانتاجية ومرافق الخدمات . الخ ووجه الاختلاف الرئيسي بين هذه الفئات الاخيرة والمكتبة المتخصصة بالجامعة هو أن هذه الفئات لا تحفل بالاهتمامات الدراسية التي تحظى بقدر كبير من نشاط المكتبة المتخصصة في الجامعة .

وعادة ما تقتصر الافادة من المكتبات المتخصصة على العاملين بالهيئة التي تتبعها والمتخصصين في المجالات الموضوعية التي تهتم بها . ويكفل تركيز هذه الفئة من المكتبات على قطاعات موضوعية معينة القدرة على تحقيق قدر لا بأس به من الشمول والتعمق في تغطية الانتاج الفكري لهذه القطاعات ، حيث لا يقتصر الامر على تجميع الكتب والدوريات وغيرها من الأوعية التقليدية للمعلومات ، وانما تمتد التغطية لتشمل الأوعية الأخرى المناسبة للمجال

الموضوعي ، كوثائق المواصفات القياسية وبراءات الاختراع وكتالوجات المنتجات والمعدات في المكتبات المتخصصة في الهندسة والمكتبات العاملة في خدمة الشركات الصناعية ، والاهتمام بتقارير البحوث والمطبوعات الرسمية في المكتبات المتخصصة في العلوم الاجتماعية .

وبالاضافة إلى هذا الاختلاف في الاهتمام النسبي بأوعية المعلومات تختلف المكتبات المتخصصة عن غيرها من المكتبات في اساليب المعالجة الموضوعية ومستوى التعمق في تحليل المحتوى الموضوعي لما تقتنيه من أوعية المعلومات ، وفي طرق التعريف بنتائج هذا التحليل، مما ينعكس على طبيعة ما تقدمه من خدمات استجابة للاحتياجات المتميزة للمستفيدين من هذه الخدمات سواء اكانوا من الباحثين في العلوم الأساسيةأو الباحثين في العلوم التطبيقية أو مهندسي التطوير أو مسئولي الصيانة أو المسئولين عن اتخاذ القرارات الفنية او الادارية . وكما سوف يتضح لنا فيما بعد ، فانه على جبهة الخدمات المكتبية المتخصصة تحققت معظم التطورات الجوهرية في مجال خدمات المعلومات ، والمتمثلة اساساً في استغلال امكانات الحاسبات الالكترونية والتصوير المصغر وتكنولوجيا الاتصال المتطورة ، في تجميع المعلومات وتنظيم المعلومات وتيسير الافادة من المعلومات .

مركز التوثيق :

ومركز التوثيق من التسميات الحديثة نسبيا لبعض المؤسسات العاملة على توفير خدمات المعلومات للباحثين والمتخصصين . وقد جاء استعمال هذه التسمية مصاحبا لبعض التطورات الرامية لاضفاء قدر من الديناميكية على خدمات المكتبات المتخصصة في الاساس ، بالاضافة إلى تزايد الاهتمام بالاشكال البديلة للكتاب حيث استعملت كلمة وثيقة للدلالة على مختلف أشكال أوعية المعلومات . وعلى ذلك فان الاختلاف بين المكتبة المتخصصة ومركز التوثيق اختلاف في الدرجة وليس اختلافا في النوع ، فاذا كانت المكتبة المتخصصة تقوم بتجميع المصادر الاولية للمعلومات العلمية والفنية والتي تتخد شكل الكتب والدوريات والخرائط .. إلى آخر ذلك من أشكال الاوعية ، ثم تقوم بفهرسة هذه المصادر واختزانها واعارتها ، كما أنها تعمل على تيسير سبل الافادة من مقتنياتها فضلا على البحث عن المعلومات المحددة التي يحتاجونها أو التي

يعتقدون أنهم بحاجة اليها ، فضلا عن حرصها على تجميع المصادر الثانوية كالكشافات ونشرات المستخلصات وغيرها من الوراقيات (الببليوجرافيات) وتيسير سبل الافادة منها لتحقيق الهدف ذاته ، فان مركز التوثيق يقوم بفرز وتقييم المصادر الاولية والثانوية للمعلومات ، والتي تشمل المطبوعات والوثائق المتخصصة وغيرها من المواد غير التقليدية التي قلما يحفل بها المكتبيون . وعادة ما تستغل نتائج الاسترجاع في مراكز التوثيق اما في الرد على الاستفسارات المتخصصة التي يتقدم بها المستفيدون واما في بث المعلومات المتخصصة بطريقة تلقائية وفي شكل مجهز كاصدار الكشافات ونشرات المستخلصات والمراجعات العلمية ، إلى آخر ذلك من خدمات . وفي ممارسته لدوره كوسيط عادة ما يوفر مركز التوثيق خدمات الترجمة العلمية والتصوير العلمي وغير ذلك من الخدمات اللازمة لتيسير الافادة من مصادر المعلومات .

وعادة ما يضم مركز التوثيق ، فضلا عن الوحدات الادارية ، وحدة المكتبة ، ووحدة التوثيق ، ووحدة النشر ، وتتكفل وحدة المكتبة بكل ما يتعلق بمقتنيات المركز من مصادر المعلومات حيث تضطلع بمهام التجميع والفهرسة والاختزان والصيانة . أما وحدة التوثيق فتقوم بتجهيز مصادر المعلومات من حيث التكشيف والإستخلاص والترجمة والتحليل حيث يمكن ان يتم ذلك حسب الطلب او بشكل تلقائي ، مع مراعاة الاحتياجات العاجلة والآجلة للمستفيدين من الخدمات ، هذا في الوقت الذي تقوم فيه وحدة النشر بعمليات التجميع والتحرير والاستنساخ لتوفير النسخ التي تغطي احتياجات المستفيدين او البث على نطاق أوسع او التبادل مع مراكز التوثيق الاخرى .

وعلى قمة خدمات التوثيق في معظم الدول وخاصة الدول النامية نجد المركز القومي للتوثيق كما هو الحال على سبيل المثال في جمهورية مصر العربية حيث يوجد المركز القومي للاعلام والتوثيق بمقر المركز القومي للبحوث بالدقي ، والتابع لاكاديمية العلوم والتكنولوجيا ، والذي يهتم اساسا بالعلوم الطبيعية والعلوم التكنولوجية . وا لى جانب المركز القومي عادة ما نجد بعض المراكز القطاعية المتخصصة في مجالات موضوعية أو مجالات أنشطة انتاجية أو انشطة خدمات معينة . ومن الملاحظ ان كلمة «التوثيق» قد بدأت تتوارى في تسميات الهيئات التي تمارس انشطة التوثيق ، لتحل محلها كلمة «المعلومات» في بعض الاحيان أو ترد مصاحبة لها في احيان اخرى ، ومن هنا

نجد ما يسمى بوحدات «التوثيق والمعلومات» أو «وحدات المعلومات» فقط، و«مراكز المعلومات» إلى آخر هذه التسميات التي تستعمل كلمة المعلومات كبديل للتوثيق. ومن الجدير بالذكر أن استعمال التسمية «مركز المعلومات» قد انتشر بلا ضابط في بعض الاحيان، وربما كان مرد ذلك إلى اتساع مدلولها بحيث يمكن أن يغطي جميع المؤسسات العاملة على تجميع مصادر المعلومات وتنظيمها وتيسير سبل الافادة منها.

نظام استرجاع المعلومات:

يرجع استعمال مصطلح «استرجاع المعلومات» إلى مطلع خمسينات هذا القرن، حيث جاء استعماله تعبيرا عن عدم الاقتناع بصلاحية المصطلح «توثيق» للدلالة على استعمال الاساليب غير التقليدية في تحليل المعلومات واستعمال اشكال غير تقليدية كالبطاقات المثقبة ونظم المضاهاة الضوئية في تسجيل نتائج التحليل. وينطوي استعمال المصطلح «معلومات» هنا على قدر من التجاوز لأن ما يتم استرجاعه في هذه النظم مجرد مفاتيح او بيانات ارشادية (بيانات وراقية) تقودنا للوصول الى الوثائق أو الاوعية التي تشتمل على المعلومات ومن ثم فان هذه النظم عادة ما تسمى الان بنظم استرجاع الاشارات الوراقية، وأبسط نماذجها فهارس المكتبات والوراقيات بكل اشكالها، بما في ذلك الوراقيات المسجلة في شكل قابل للقراءة بواسطة الآلات او ما يسمى الان بنظم الاسترجاع الالكترونية او مراصد البيانات (Data Base) فقد اصبح من الممكن الآن استرجاع ما نحتاج اليه من ارشادات وراقية مصحوبة بمستخلصات في مجال علم النفس بمساعدة الحاسب الالكتروني بدلا من تصفح عدد كبير من مجلدات نشرة المستخلصات السيكولوجية (Psychological Abstracts) وكذلك الحال بالنسبة للـ Chemical Abstracts في مجال الكيمياء، والـ Biological Abstracts في علوم الاحياء والتاريخ الطبيعي .. الخ. وتحرص بعض المكتبات المتخصصة في مثل هذه المجالات وكذلك مراكز التوثيق المتخصصة والمكتبات الجامعية على توفير امكانات الافادة من هذه المراصد اما بالبحث فيها على دفعات او بتجميع استفسارات المستفيدين ثم تقديمها لنظم الاسترجاع كلما سنحت الظروف، أو بالاتصال على الخط المباشر اذا ما توافرت امكانات هذا الاتصال، وسوف نعرض لهذا الموضوع بشيء من التفصيل عند الحد يث عن الخدمات.

بنك المعلومات :

ونستعمل هذا المصطلح هنا كمقابل لمصطلح (Data Bank) الذي كثيرا ما يختلط بمصطلح (Data Base) الذي اعتبرناه مرادفا لنظام استرجاع المعلومات في الفقرة السابقة . ونود هنا بيان الفارق الدقيق بين مرصد البيانات وبنك المعلومات . فمهمة الأول كما تبين لنا رصد البيانات الارشادية التي تكفل لنا القدرة على تتبع الوثائق واسترجاعها ، أما مهمة الثاني فهي استرجاع الحقائق والمعطيات الرقمية التي نحتاج اليها لتلبية حاجة اعلامية مباشرة . والفارق بينهما هو الفارق بين فهرس المكتبة الذي نلجأ اليه للتعرف على الكتب المتصلة بموضوع معين او الوراقية التي نلجأ اليها للتعرف على الانتاج الفكري المتصل بموضوع معين من جهة ، وكتاب الحقائق Handbook الذي نلجأ اليه التماسا لحقيقة معينة او دليل الهاتف الذي نلجأ اليه بحثا عن رقم هاتف معين من جهة اخرى . فالثاني يعطينا ما نبحث عنه مباشرة أما الاول فيرشدنا إلى طريق الوصول إلى ما نبحث عنه . وكلاهما يعتمد الان على الحاسب الالكتروني . وفي الوقت الذي تمثل فيه نتائج جهود مؤسسات التكشيف والاستخلاص ، الحكومية وغير الحكومية مدخلات مراصد البيانات ، أي المواد التي يتم اختزانها في هذه المراصد في شكل قابل للاسترجاع ، فان مدخلات بنوك المعلومات تتمثل في نتائج جهود ما يسمى بمراكز البيانات وهي مؤسسات تتناول البيانات والمعطيات والنتائج الخام أو المجهزة تجهيزاً جزئياً ، حيث يتم اختزانها بشكل قابل للاسترجاع . وغالبا ما تهتم هذه المراكز بالظواهر العريضة كتلك التي نصادفها في دراسة البحار او طبقات الجو العليا او الفضاء الخارجي . أو الموارد المائية في منطقة ما ، أو الاحتمالات المعدنية او البترولية في نطاق جغرافي معين . كذلك يمكن ان تهتم ببيانات تعداد السكان او البيانات الخاصة بالموارد الاقتصادية او التجارة الخارجية لدولة معينة .

مركز تحليل المعلومات :

ومن مرافق المعلومات المستحدثة ايضا ما يسمى بمراكز تحليل المعلومات وقوام اي مركز من مراكز تحليل المعلومات مجموعة من العلماء ورجال التكنولوجيا الذين يقومون بتجميع كل ما هو متوافر من حقائق ومعلومات

حول موضوع معين وتحليل هذه المعلومات وتقييمها ثم تنقية هذه المعلومات واختزانها في ملفات خاصة وجداول بيانات ومراجعات علمية، ثم العمل على ايصالها للآخرين عن طريق خدمات الاحاطة الجارية والبث والرد على الاستفسارات.

ويمثل العاملون بمثل هذه المراكز أعلى مستويات الخبرة في مجالاتهم حيث ينغمسون في العمل العلمي المتواصل الذي ينطوي عليه تجميع المعلومات وتجهيزها ومن الملامح المميزة لنشاط هذه المراكز الاستعانة بالخبرات البشرية المتخصصة في اي مجال لتقديم المشورة كلما دعت الحاجة. ويتطلب ذلك الاتصال المستمر بالمتخصصين وجهود التطوير الاساسية في المجال. وتنطوي عملية التقييم الجوهرية على التقدير الواعي لقيمة المعلومات الجديدة بالتحليل والمقارنة والنقد على ضوء المعلومات التي سبق تحصيلها.

ويتم تركيز المعلومات وتلخصيها والاحتفاظ بلها لتلبية احتياجات المستفيدين التي تتراوح ما بين المعلومات المركزة غاية التركيز اللازمة للمسئولين عن اتخاذ القرارات الادارية، والمعلومات المفصلة اللازمة للباحثين العلميين ورجال التكنولوجيا.

والوظيفة الرئيسية لمركز تحليل المعلومات هي الرد على الاستفسارات ويمكن لمثل هذه الردود أن تتكون من بعض عناصر البيانات أو المعلومات التي تم تقييمها، أو ملخصات الاتجاهات السائدة في قضايا أو موضوعات معينة، أو التحليلات الشاملة للاوضاع الراهنة في مجالات معينة، أو الخدمات الاستشارية المتخصصة، ومراكز تحليل المعلومات - نظريا على الاقل - هي اكثر النظم فعالية في امداد المستفيدين بالمعلومات المقيمة والموثوق بها، في شكل مناسب، حيث تحرص هذه المراكز جهد طاقتها على تتبع كل من ينشر في اي مجال من المجالات المتخصصة.

والخاصة الاساسية المشتركة لجميع أنواع مراكز تحليل المعلومات هي التحليل النقدي، فالمواد التي تدخل هذه النظم يقوم بفصحها متخصصون في الموضوع، كما يتم تحليلها بالطرق المناسبة، حيث يتم استخلاص النتائج التي تمثل المعارف الجديدة التي لم تتوافر من قبل. وتنمية الموارد المائية واستغلالها، وتشجير المناطق القاحلة، وتحلية مياه البحر، وتوليد الكهرباء بالطاقة النووية، والتنمية الاجتماعية المتصلة بالنقل والمواصلات والصحة

والرعاية الاجتماعية والتعليم، كل هذه من المجالات التي يمكن فيها لمراكز تحليل المعلومات ان تضطلع بدور ايجابي فعال وخاصة في الدول النامية.

مركز الارشاد:

والارشاد كما نعلم من الخدمات الاساسية للمكتبات ومرافق المعلومات، الا انه مع تطور مشكلة المعلومات وتزايد الوعي باهمية المعلومات بدأت بعض المؤسسات تنفرد ببعض الانشطة والخدمات لكفالة اقصى درجات الفعالية في تقديمها. وعادة ما ينشأ مركز الارشاد في كنف احدى المؤسسات الأم كالمكتبة القومية، كما هو الحال في الولايات المتحدة الامريكية حيث يتبع المركز القومي للارشاد في العلوم والتكنولوجيا مكتبة الكونجرس، كما يمكن أن ينشأ تحت مظلة الهيئة القومية الراعية للعلوم والتكنولوجيا كما هو الحال في جمهورية مصر العربية حيث تتبنى اكاديمة العلوم والتكنولوجيا عددا من الادلة الارشادية في مجالات اهتمامها، وفي المملكة العربية السعودية حيث يرعى المركز الوطني السعودي للعلوم والتكنولوجيا بالرياض ادارة المعلومات والخدمات الفنية التي تضطلع بمهام مركز الارشاد على المستوى الوطني .

هذا وتتبنى معظم المنظمات الدولية الآن انشاء مراكز ارشاد متخصصة في مجالات اهتمامها. ومن أمثلة ذلك برنامج الأمم المتحدة للبيئة الذي يرعى خدمة ارشادية دولية تغطي جميع مصادر المعلومات البيئية، حيث تقوم اللجان الوطنية المشاركة في المشروع بتقديم المعلومات المتعلقة بخدمات المعلومات في كل دولة.

ومهمة مراكز الارشاد مهمة تعبئة من الطراز الاول، فهي تهدف اساسا إلى تعبئة موارد المعلومات بكل أشكالها ومصادرها في خدمة أهداف التنمية في أي مجتمع ومن ثم فان مهام هذه المراكز عادة ما تشمل مايلي:

١ ـ تجميع المعلومات المتعلقة بمصادر المعلومات والبيانات في نطاق مجال موضوعي معين او المتصلة بنشاط معين، بصرف النظر عن اشكال هذه المصادر ومنابعها.

٢ ـ اعداد حصر شامل لمختلف أنواع خدمات ومرافق المعلومات والبيانات، والمعلومات التي يمكن لهذه المرافق تقديمها.

٣ ـ ارشاد المستفيدين الى المصادر المناسبة لما يحتاجون اليه من معلومات.

ولتيسير مهمة الارشاد فان هذه المراكز عادة ما تحتفظ بادلة وكشافات تغطي مايلي:

١ ـ الدراسات والبحوث والاطروحات والتقارير العلمية والفنية والوراقيات والمراجعات العلمية وغير ذلك من الوثائق التي يمكن الافادة منها.

٢ ـ المشروعات الحكومية أو الدولية المتصلة بتنمية اقليم معين.

٣ ـ الخبراء الذين يمكن اللجوء اليهم لاعداد تقارير متخصصة او تقديم المشورة، أو الاعتماد عليهم في تنفيذ المشروعات.

٤ ـ الادارات والمؤسسات والمعاهد والاجهزة التي تضطلع بتنفيذ برامج للتنمية، أو التي يمكن أن تعاون في هذه البرامج.

٥ ـ الاحداث المتصلة بشكل أو باخر بالتنمية في الدولة، كالمؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية والمعارض.

هذه هي أهم مرافق المعلومات التي تشكل العمود الفقري لأحد القطاعات الفرعية فيما يسمى بنظام المعلومات. ونظام المعلومات ـ بايجاز ـ هو مجموعة الانشطة وقنوات الاتصال التي تكفل انتاج المعلومات ونشر المعلومات وتدفق المعلومات في اي مجتمع من المجتمعات. وتتركز هذه المرافق كما تبين لنا في قطاع التجميع والتنظيم والتجهيز والبث، وهو قطاع وسط بين انشطة انتاج المعلومات من جهة وأنشطة الافادة من المعلومات وما يترتب عليها هذه الافادة من جهة اخرى. وقد تركز اهتمامنا في هذا العرض على تلك المرافق التي تتعامل مباشرة مع المستفيد النهائي من المعلومات. فهناك بالاضافة إلى هذه المرافق مؤسسات اخرى تمارس أنشطة تجهيزية أو انشطة وسيطة، كالمؤسسات التي تضطلع بمهمة الرصد الوراقي للانتاج الفكري وخاصة ما يقوم منها بعمليات التكشيف والاستخلاص وانتاج مراصد البيانات، والمؤسسات التي تقوم بدور الوسيط بين منتجي مراصد البيانات والمستفيدين من هذه المراصد. والتداخل في مهام وأنشطة هذه المرافق والمؤسسات أمر لامفر منه.

مصادر المعلومات

يشتمل الانتاج الفكري المتخصص في علم المعلومات على عدد كبير من محاولات تقسيم مصادر المعلومات الى فئات متميزة. ومن بين هذه المحاولات ما يتخذ الشكل المادي اساسا للتقسيم، ومنها ما يتخذ طريقة عرض المحتوى ومنها ما يعتمد على القرب او البعد من الظاهرة التي تتم ملاحظتها. ونميل من جانبنا للتقسيم الثنائي الاساسي البسيط لمصادر المعلومات إلى فئتين، مصادر وثائقية ومصادر غير وثائقية. ويقصد بالمصادر غير الوثائقية تلك المصادر التي لا يسهل التحكم فيها أو السيطرة عليها او تداولها او استنساخها، وتشمل كل ما يمكن ملاحظته من الظواهر الطبيعية والاجتماعية باستعمال الحواس المختلفة والمعدات والاجهزة المساعدة لهذه الحواس، والمستخدمة في المختبرات ومراكز الاستشعار ومحطات الرصد.. إلى آخر ذلك من وسائل الملاحظة، كما تشمل ايضا الجهات الرسمية التي يمكن اللجوء اليها التماسا للمشورة او بحثا عن حقائق معينة كالادارات والمصالح الحكومية ومراكز البحوث ومحطات التجارب، والجمعيات العلمية والاتحادات المهنية، والمؤسسات الصناعية والجامعات والمعاهد، والمكاتب الاستشارية، هذا بالاضافة إلى ما يدور بين الاقران من محادثات في اللقاءات الرسمية وغير الرسمية، والتي لا تسفر عن اي شكل من اشكال التسجيل المقروء او المسموع او المرئي.

أما المصادر الوثائقية، وهي محور اهتمامنا في هذا الكتاب، فيقصد بها تلك الاوعية التي تصب فيها نتائج ملاحظاتنا وتصوراتنا للعالم المحيط بنا بكل جوانبه وخبراتنا في التعامل مع هذه الجوانب الطبيعية والبشرية، ووسائل التسجيل كما اشرنا متعددة، فهناك التسجيل النصي المقروء والتسجيل

البصري بكل اشكاله والتسجيل السمعي، والتسجيل الذي يجمع بين خصائص اكثر من شكل واحد من هذه الاشكال. ومن الممكن تقسيم هذه المصادر او الاوعية بصرف النظر عن اشكالها المادية إلى ثلاث فئات اساسية وفقا لمدى قربها من الظاهرة التي تمت ملاحظتها او الظرف الذي اكتسبت فيه الخبرة المسجلة. وتسمى الفئة الاولى بالاوعية الأولية للمعلومات. بينما تسمى الفئة الثانية بالأوعية الثانوية للمعلومات، أما الفئة الثالثة فهي أوعية الدرجة الثالثة.

ويقصد بالاوعية الاولية تلك الوثائق او المسجلات التي تشتمل اساسا على المعلومات الجديدة او التصورات او التفسيرات الجديدة لحقائق او افكار معروفة. ونلاحظ هنا الارتباط الوثيق بين هذا المفهوم والفئتين الاساسيتين للبحث. ومن ثم فانه من الطبيعي ان تشكل التقارير الاولية للدراسات والبحوث العلمية الجانب الاكبر من هذه الفئة. ويقصد بالعملية هنا التوسل بالمنهج العلمي في دراسة ظاهرة معينة سواء اكانت هذه الظاهرة تنتمي إلى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية او الانسانيات. ومن الممكن لبعض هذه الاوعية ان يكون معتمدا على الملاحظة المباشرة كتقارير البعثات العلمية والرحلات الاستكشافية، ومخرجات اجهزة الرصد الثابتة والمتحركة ووسائل الاستشعار بكل اشكالها. ومنها ما يكون وصفيا حيث يهتم بمواصفات وخصائص بعض المبتكرات والاختراعات والمنتجات الصناعية. ومن بين الاشكال المألوفة لهذه الاوعية الاطروحات الاكاديمية، ومقالات الدوريات المتخصصة وتقارير البحوث وأعمال المؤتمرات والمطبوعات الرسمية الناتجة عن ممارسة احد الاجهزة الحكومية لنشاطه، وبراءات الاختراع، والمواصفات القياسية، وكتالوجات المنتجات الصناعية.. الى آخر ذلك من أوعية تسجيل الخبرات والمعلومات والحقائق والملاحظات لاول مرة حيث تشتمل هذه الاوعية على اضافات لحصيلة المعرفة البشرية ، أو على الاقل تفسيرات جديدة لمعارف قديمة. ومن ثم فانها تعد المصادر الاساسية لاحدث المعلومات المتوافرة في اي مجال.

أما الأوعية الثانوية فانها تشمل تلك الاوعية التي تعتمد في مادتها على الاوعية الاولية، فهي اذن تشتمل على معلومات سبق تسجيلها حيث تعيد ترتيب هذه المعلومات وفقا لخطط نسقية تهدف إلى تحقيق اهداف عملية معينة. وعادة ما تتركز مهمة هذه الاوعية في التجميع والتبسيط والتلخيص

والتركيز وربما الترجمة ، بهدف تقديم المعلومات بشكل مناسب لفئات معينة من القراء والمستفيدين . وبالاضافة إلى الدوريات المهنية والمتخصصة التي تهدف إلى تفسير التطورات العلمية المسجلة في الاوعية الاولية والتعليق عليها ، نجد ان قائمة الاوعية الثانوية تضم الكتب التمهيدية والكتب الدراسية والكتب المرجعية ، فضلا عن بعض الخدمات الوراقية كنشرات الاستخلاص والكشافات والمراجعات العلمية . وعلى ذلك فان هذه الاوعية الثانوية لا تستخدم كمستودعات للمعلومات الجاهزة فحسب وانما تخدم ايضا كادلة او مفاتيح للوصول إلى محتويات الاوعية الاولية .

والفئة الثالثة والاخيرة هي اوعية الدرجة الثالثة ، وتتركز وظيفتها الاساسية في الاخذ بيد المستفيدين من المعلومات وارشادهم إلى كل من الاوعية الاولية والاوعية الثانوية ، فمعظم الاشكال الداخلة في هذه الفئة لا تقدم معلومات او معارف مباشرة وانما تقدم مفاتيح للوصول إلى هذه المعلومات والمعارف . وتشمل هذه الفئة ادلة الموارد البشرية ، وادلة الهيئات والمؤسسات التي يمكن الحصول منها على المعلومات ، وادلة المكتبات ، فضلا عن الوراقيات بكل انواعها .

ويتناول هذا الفصل بعض الاوعية الأولية والثانوية للمعلومات من وجهة نظر المستفيدين منها اساساً ، حيث نعرض بايجاز للكتب بوجه عام والدوريات وتقارير البحوث والاطروحات وأعمال المؤتمرات وبراءات الاختراع والمواصفات القياسية وكتالوجات الأجهزة والمنتجات الصناعية .

١ ـ الكتب :

الكتاب كما نألفه اليوم ظاهرة حضارية حديثة نسبيا، فلم يبلغ صورته الحالية الا عبر سلسلة من التطورات المتلاحقة، المواكبة للظروف الحضارية، الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية السائدة في كل عصر، ولا مجال لاستعراض هذه السلسلة المتصلة من التطورات. وما يهمنا في هذا المقام هو الكتاب كما هو عليه الآن، من حيث مكوناته الاساسية وتعدد اشكاله وتنوع وظائفه. فلا معنى الان لكلمة «كتاب» مالم نردفها بكلمة اخرى تساعد على تحديد مدلولها، فهناك الكتاب التمهيدي، والكتاب الدراسي والكتاب المرجعي.. إلى آخر ذلك من عناصر التقسيم الوظيفي للكتب. اما من حيث الشكل فلم تعد الطباعة هي السبيل الوحيد لانتاج الكتب، فهناك الآن الكتب التي يتم تسجيلها في شكل قابل للتداول بواسطة الحاسبات الالكترونية تيسيرا لبعض انماط تداولها واختزانها والافادة منها. ويتركز اهتمامنا على الكتاب في شكله التقليدي المطبوع.

مكونات الكتاب:

الالمام بالمكونات الاساسية للكتاب ووظيفة كل عنصر في هذه المكونات وعلاقته بالعناصر الاخرى، أمر لابد منه لتحقيق اقصى درجات الافادة من الكتاب، وبصرف النظر عن الاخراج المادي للكتاب، سواء اكان مغلفا أو مجلداً، فانه عادة ما يتكون من مجموعة من العناصر الاستهلالية التي تشمل صفحة العنوان المختصرة، وصفحة العنوان الكاملة، وبيان الطبعات، وحقوق الطبع والنشر، والاهداء، والتمهيد او المقدمة والشكر، وقائمة تصويب الاخطاء، وقائمة المحتويات، وقائمة الجداول او وسائل الايضاح ثم يرد بعد ذلك متن الكتاب متبوعا ببعض العناصر الاضافية المساعدة كالتذييلات

والحواشي والملاحق والوراقيات وقوائم المصطلحات والكشافات وحرد المتن والاعلانات . وقد لا نجد كل هذه العناصر مجتمعة في كل كتاب ، كما ان ترتيبها قد يختلف من كتاب لآخر . هذا بالاضافة الى خلو معظم الكتب العربية من بعض العناصر المساعدة الاساسية .

أما عن صفحة العنوان المختصرة فانها عادة ما ترد بعد الورقة البيضاء التالية لغلاف الكتاب او جلدته ، كما أنها في حالة عدم وجود مثل هذه الورقة ترد بعد الغلاف مباشرة ، حيث تشتمل على الكلمات الاساسية او الكلمات المفتاحية لعنوان الكتاب ويمكن ان يرد في ظهر هذه الصفحة بيان بالكتب الاخرى لمؤلف الكتاب او بيان بالكتب الاخرى التي صدرت في نفس السلسلة التي ينضوي تحتها الكتاب .

أما صفحة العنوان الكاملة فانها عادة ما تشتمل على البيانات الاساسية اللازمة للتحقق من هوية الكتاب ، وهي اسم المؤلف والعنوان الكامل للكتاب والذي قد يتكون بدوره من عنصرين هما العنوان الرئيسي والعنوان الفرعي الذي يشرح العنوان الرئيسي ويوضحه ، علاوة على بعض البيانات الاخرى كرقم الطبعة وتاريخ النشر واسم الناشر ومكان النشر ونظرا لاهمية ما تشتمل عليه هذه الصفحة فانها دائما ما ترد حيثما لا يمكن للبصر أن يخطئها وذلك على الصفحة اليسرى في الكتب العربية والصفحة اليمنى في الكتب الاجنبية . ويكتنف هذه الصفحة بعض مظاهر القصور في كثير من الكتب العربية ، فغالبا ما يتجاهل الناشرون تاريخ النشر كليه ، كما أنهم نادرا ما يميزون بين الطبعة والاصدارة أو مجرد اعادة الطبع ، فالطبعة الاولى من اي كتاب هي مجموع النسخ التي يتم نشرها من هذا الكتاب في اي وقت ولكي يقال أن هناك طبعة جديدة من الكتاب فان ذلك لابد وأن يكون مقترنا بتغيير في متن الكتاب بالاضافة أو الحذف أو التصحيح أو التجديد أو اي شكل من اشكال التنقيح . ومالم يحدث شيء من ذلك فان الامر مجرد اعادة طبع للمتن في شكله الاصلي ، والكلمة المناسبة هنا هي الاصدارة وليست الطبعة ، حيث يمكن للطبعة الواحدة أن تنشر في اكثر من اصدارة واحدة والعكس ليس صحيحا .

وظهر صفحة العنوان ايضا من العناصر الرئيسية وخاصة في الكتب الاجنبية . حيث تشتمل هذه الصفحة على بعض البيانات الهامة مثل اسم الناشر وعنوانه مالم يكونا قد وردا فعلا في صفحة العنوان ، كما يمكن ان

تشتمل ايضا على اسم المطبعة وعنوانها ، أما البيانات التي عادة ما نصادفها على ظهر صفحة العنوان فهي بيان الطبعات والاصدارات السابقة للكتاب وتواريخها اذا كان الكتاب قد نشر في اكثر من طبعة واحدة او اعيد اصدار طبعته الاولى . كذلك تشتمل هذه الصفحة على ما يسمى ببيان حقوق الطبع والنشر والذي يشمل اسم صاحب الحق سواء أكان الناشر او المؤلف وتاريخ الحصول على هذا الحق وفقا لاتفاقية اليونسكو لعام ١٩٥٢ والخاصة بالحماية الدولية لحقوق الطبـــع والنشر ، وعادة مايرد هذا البيان الآن مصحوبا باعلان يحذر من اعادة طبع الكتاب أو اي جزء منه ، او استنساخه باي شكل كان ، او اختزانه في احد نظم الاسترجاع . . إلى آخر ذلك من اشكال التصرف في المتن دون الحصول على اذن كتابي مسبق من الناشر او المؤلف . كذلك تشتمل هذه الصفحة في معظم الكتب الاجنبية الحديثة على بيانات الفهرسة في المنبع او الفهرسة في اثناء عملية النشر . ولهذا البيان أهميته الخاصة في تيسير مهمة المسئولين عن الفهرسة والتصنيف بالمكتبات . وهذا البيان أكثر تفصلا في الكتب الأمريكية منه في الكتب البريطانية وأندر ما يكون في الكتب العربية . وفي حالة الكتب المترجمة فان هذه الصفحة يمكن أن تشتمل ايضا على البيانات الاساسية عن الكتاب المترجم بلغته الاصلية .

والرقم المعياري الدولي للكتاب (SBN) من العناصر التي يمكن ان ترد على ظهر صفحة العنوان ، أو في اسفل الغلاف الايمن في الكتب الاجنبية ، وليس له مكان موحد في الكتب العربية . والهدف من هذا الرقم هو توفير صيغة مختصرة للتعبير عن البيانات الاساسية للكتاب ، حيث يمكن استعمال هذه الصيغة بسهولة في طلب الكتاب ويتكون هذا الرقم من اربعة عناصر ، يدل العنصر الاول على اسم الدولة التي صدر فيها الكتاب ، ويدل العنصر الثاني على الناشر ، بينما يدل العنصر الثالث على عنوان الكتاب والعنصر الرابع للمراجعة . وعادة ما يرد هذا الرقم مسبوقا في الكتب الاجنبية بالأحرف الاربعة التي سبقت الاشارة اليها ، وبعبارة «الترقيم الدولي» في الكتب العربية .

والاهداء من العناصر المألوفة في معظم الكتب . وعادة ما يكون بسيطا في شكله ، وانماط الاهداء متنوعة لا حصر لها ، فمن المؤلفين من يهدي كتابه إلى ابنائه أو إلى اسرته ومنهم من يهدي إلى استاذه ، ومنهم من يهدي إلى فئة معينة من القراء .

والتمهيد والمقدمة والتوطئة مصطلحات مترادفة تقريبا حيث يمكن ان تستعمل استعمالا تبادليا للدلالة على المدخل الاستهلالي للكتاب .. ويمكن ان نضيف اليهم ما يعرف بخطبة الكتاب في التراث العربي. والهدف من هذا الاستهلال هو القاء الضوء على الكتاب من حيث اهدافه ومنهجه ومحتواه ومستوى المعالجة .. إلى اخر ذلك من عناصر التعريف المبدئي بالكتاب وما يمكن ان نتوقعه منه .. ويمكن لمثل هذا التقديم أن لا يكون بقلم المؤلف حيث يتولاه عنه شخص آخر كالمراجع مثلا او احد العلماء البارزين في المجال.

والشكر والتقدير من العناصر المألوفة في بعض الكتب وخاصة ما يشتمل منها على نتائج مشروع بحث معين، حيث يسجل المؤلف امتنانه لمن اشرف على البحث ومن عاون في اجرائه ومن اسدى النصح وقدم المشورة من الاساتذة والزملاء، ومؤلفي المراجع التي استشهد بها، ومن هيأ الظروف المواتية للبحث .. إلى آخر هؤلاء ممن يرى المؤلف تسجيل الاعتراف بما لهم من فضل. ويحدث في غالب الاحيان ان يرد هذا الاعتراف بالفضل في المقدمة. كما انه يمكن ان يرد في صفحة مستقلة في بداية الكتاب او في نهايته.

وتصويب الاخطاء المطبعية امر غاية في الأهمية، الا انه قلما يحظى بالاهتمام في الكتب العربية وان وجد مثل هذا التصويب فانه عادة ما يرد في شكل جدول يبين الخطأ ومكان وروده بالصفحة ورقم السطر والشكل الصحيح. ويمكن لهذا الجدول أن يرد في بداية الكتاب كما هو الحال في الكتب الاجنبية او يلحق بنهاية الكتاب كما هو الحال في الكتب العربية. ويحدث في بعض الكتب العربية أن تكون الاخطاء المطبعية من الكثرة بحيث يضطر المؤلف للتنويه ببعضها تاركا البعض الآخر لفطنة القارىء.

وبيان المحتويات أو قائمة المحتويات مصطلح يفسر نفسه بنفسه، حيث يهدف لمساعدة القارىء المحتمل في التعرف على محتوى الكتاب. وعادة ما تشتمل قائمة المحتويات على عناوين الفصول في تسلسلها المنطقي بالاضافة إلى بيان موجز بمحتوى كل فصل، فضلا عن ارقام الصفحات. ويتفاوت مدى التفصيل في هذا البيان من كتاب لاخر. وعادة مايرد في بداية الكتب الاجنبية الا أنه لم يستقر بعد على مكان محدد في الكتب العربية، فتارة تجده في أول الكتاب وأخرى في آخر الكتاب.

ويحدث في بعض الاحيان أن يكون الكتاب مشتملا على جداول احصائية

أو رسوم بيانية أو خرائط أو أشكال توضيحية يتطلب الأمر بيان مواقعها بمتن الكتاب تيسيرا على القارىء . ويمكن لهذا البيان أن يرد في قائمة موحدة كما يمكن أن يرد في قوائم مجزأة وفقا لطبيعة المواد ؛ وعادة ما تشتمل هذه القوائم على عنوان الشكل أو الجداول ورقم الصفحة التي ورد فيها . وعادة ما يكون هذا البيان هو نهاية العناصر الافتتاحية او الاستهلالية في الكتب الاجنبية . وايا كان موضعه فانه ينبغي أن يكون ملازما لقائمة المحتويات .

إلى هنا تنتهي العناصر الافتتاحية ليبدأ أهم عناصر الكتاب على الاطلاق وهو المتن . . وعادة ما يرد هذا المتن وفقا للتسلسل المنطقي الذي اتبعه المؤلف في معالجة موضوع كتابه ، من حيث التقسيم إلى اجزاء أو إلى ابواب والاجزاء أو الابواب إلى فصول والفصول إلى مباحث . . الخ وعادة ما نجد في رأس صفحات الكتب الاجنبية ما يسمى بالعناوين الجارية ، حيث يرد عنوان الكتاب مختصراً في رأس الصفحة اليسرى بينما يرد عنوان الفصل مختصراً في رأس الصفحة اليمنى . . أما في الكتب العربية فان الامر عادة ما يقتصر على تسجيل عنوان الكتاب مختصرا في ذيل الصفحة الاولى من كل ملزمة مصحوبا برقم الملزمة ، وذلك لمساعدة المسئولين عن تكريس الملازم تمهيدا للتغليف او التجليد اساسا .

ويحدث في بعض الاحيان ان يرد متن الكتاب متبوعا ببعض العناصر الاضافية او المساعدة . وفي الوقت الذي نجد فيه معظم الكتب تهتم بالعناصر الافتتاحية فان عددا قليلا فقط من الكتب يشتمل على العناصر الاضافية . هذا بالاضافة إلى أن هذه العناصر الاخيرة لا ترد بترتيب محدد كما هو الحال في العناصر الافتتاحية .

وتأتي التذييلات في مقدمة العناصر الاضافية او المساعدة . . وعادة ما تشتمل هذه التذييلات على النصوص الكاملة لبعض الوثائق كالقوانين والمعاهدات . . المشار اليها او المستشهد بها في متن الكتاب . كما يمكن أن تشتمل ايضا على جداول البيانات والحقائق التي اعتمد عليها المؤلف في معالجة موضوعات الكتاب .

والحواشى هي اقرب المواد المساعدة إلى التذييلات الا انها عادة ما تكون اكثر ايجازا منها . ويحدث في معظم الكتب فعلا أن يضع المؤلف الحواشي اسفل صفحات الكتاب او على جانبي المتن بدلا من ارجائها إلى نهاية الكتاب . وعادة ما تختلط هذه الحواشي بالاشارات الوراقية التي تشتمل على بيانات

الوثائق، من الكتب والمقالات التي اطلع عليها المؤلف او اعتمد عليها في معالجته لموضوع الكتاب. وعادة ما ترتبط كل من الحواشي والاشارات الوراقية بالمواضع المتصلة بها في النص بالارقام او برموز معينة.

اما الملاحق، وان اختلطت عند البعض بالتذييلات، فانها تتكون اساسا من المواد التي كان من المكن للمؤلف ان يضعها في المتن لو قدر له الاحاطة بها اثناء الكتابة. وغالبا ما نجد مثل هذه الملاحق في الكتب التي نشرت في اصدارات متعددة، حيث يلجأ المؤلفون لاضافة الملاحق كوسيلة لتجديد ما تشتمل عليه الكتب من معلومات. ويرتبط هذا الاسلوب اساسا بالكتب المرجعية...

والوراقية من العناصر التي عادة ما نصادفها في الصفحات النهائية للكتب، والوراقية ببساطة عبارة عن قائمة بالكتب، وتعني في هذا السياق قائمة بالكتب وغيرها من الاوعية المتصلة بالموضوعات التي عالجها المؤلف في كتابه، والتي يمكن للقارىء ان يحصل منها على مزيد من المعلومات. ويمكن للوراقية الملحقة بالكتاب ان تكون شاملة لكل ما صادفه المؤلف من كتب ووثائق متصلة بموضوع الكتاب، أو انتقائية تقتصر على ما افاد منه المؤلف فعلا في تأليف الكتاب، او ما يعتبره المؤلف من المراجع الاساسية في الموضوع. ويحدث في بعض الاحيان ان ترد وراقية الكتاب موزعة على نهايات الفصول بدلا من ورودها مجمعة في نهاية الكتاب، وغالبا ما تكون في هذه الحالة قوائم بالكتب المقترحة للحصول على مزيد من المعلومات حول الموضوعات التي يعالجها كل فصل من فصول الكتاب. كما يحدث في بعض الاحيان أن يجمع المؤلف بين الشكلين (قوائم القراءات الملحقة بالفصول والقائمة الموحدة في نهاية الكتاب) للتعريف بالمصادر التي اطلع عليها أو تأثر بها في تأليف الكتاب فضلا عن أوعية الانتاج الفكري الاخرى المتصلة بموضوع الكتاب.

وهناك بعض الكتب التي تشتمل في نهايتها على معجم (Glossary) بالمصطلحات المتخصصة. وعادة ما يرد مثل هذا المعجم في الكتب الشاملة والكتب التمهيدية في اي مجال، حيث ترد المصطلحات المتصلة بمجال اهتمام الكتاب، وغالبا ما تكون من المصطلحات التي تعرض لها المؤلف فعلا، مصحوبة بتعريفات موجزة بنفس لغتها. أما في الكتب المترجمة فان هذه المصطلحات عادة ما ترد مصحوبة بالمقابلات المقترحة لها باللغة المترجم اليها،

فضلا عن ترجمة التعريفات بالطبع .

والكشافات (Indexes) من العناصر الاساسية التي غالبا ما نجدها في الكتب الاجنبية وقلما نصادفها في الكتب العربية . وهناك بعض الكتب التي تشتمل على كشاف يشتمل على جميع المداخل الموضوعية من مصطلحات متخصصة واعلام بشرية وجغرافية فضلا عن اسماء المؤلفين من الافراد والهيئات في نسق هجائي واحد . كما يحدث في بعض الاحيان ان يشتمل الكتاب على اكثر من كشاف واحد ، حيث يخصص كشاف للموضوعات واخر للمؤلفين وثالث للاعلام ، وسواء ورد الكشاف مجزأ أو موحداً فان المداخل عادة ما تكون مصحوبة بما يدل على اماكن ورود المعلومات المتصلة بها في متن الكتاب كأرقام الصفحات في الكتاب المكون من مجلد واحد ، وارقام المجلدات مصحوبة بارقام الصفحات في الكتاب المكون من اكثر من مجلد واحد . ووظيفة مثل هذا الكشاف الهجائي مكملة لوظيفة قائمة المحتويات ، ففي الوقت الذي تستعرض فيه الاخيرة موضوعات الكتاب وفقا للتسلسل المنطقي الذي التزمه المؤلف في معالجة هذه الموضوعات وتحديد علاقتها ببعضها البعض ، فان الكشاف يقدم المصطلحات الخاصة بموضوعات الكتاب في تسلسل هجائي ، وهذا التسلسل الهجائي قد يكون هو المدخل العلمي المناسب لبعض القراء ، وخاصة من يطلعون منهم بحثا عن المعلومات المتصلة بقضايا او موضوعات بعينها ، وقد لا تسعفهم قائمة المحتويات وخاصة عند البحث عن معلومات متصلة بموضوعات فرعية دقيقة لم تظهر في بيان المحتويات والهدف من الكشاف كما هو واضح من تسميته هو الكشف عن أدق تفاصيل الموضوعات التي يعالجها الكتاب .

واخيراً نأتي إلى حرد المتن (Clophon) وهو آخر العناصر المكونة للكتاب في غالب الاحيان . وأصل التسمية في الانجليزية الدلالة على الشكل التوضيحي المستخدم كعلامة تجارية للطابع . أما التسمية العربية فتدل على الهرم المقلوب الذي يرد في نهاية المخطوطة مشتملا على البيانات الخاصة بنسخ المخطوطة كاسم الناسخ ومكان النسخ وتاريخه فضلا عن عبارات الحمد . وقد ظل هذا الاسلوب متبعا في طباعة كتب التراث في المراحل المبكرة لتطور الطباعة . وعادة ما يشتمل هذا العنصر ان وجد الآن في الكتب الأجنبية على البيانات الخاصة بالطباعة . أما في الكتب المصرية فانه يشتمل ايضا على رقم الايداع

بدار الكتب المصرية فضلا عن الرقم المعياري الدولي للكتاب كما سبق أن اشرنا .

يحدث احيانا ان ترد بعض الصفحات الاضافية في نهاية الكتاب . وهذه أما أن تترك بيضاء واما أن يستغلها الناشر في الاعلان عن بعض الكتب التي نشرها .

انواع الكتب :

بعد ان تعرفنا على العناصر المكونة للكتاب نحاول فيما يلي التعريف باهم انواع الكتب حيث يفيد التعرف على هذه الانواع في ترشيد الافادة من كل نوع ، والاساس المتبع في تقسيم الكتب إلى انواع في هذا السياق اساس وظيفي يراعى الهدف من تأليف الكتاب ، والجمهور المستهدف ، ومستوى المعالجة الموضوعية ، ومدى الشمول وأنماط الانتقاء في تناول الموضوعات . ولسنا بحاجة لأن ننبه إلى ما يمكن أن يكون هناك بين فئات هذا التقسيم من تداخل . وبصرف النظر عن الكتب المنزلة والكتب المقدسة ، تنقسم الكتب التي نتداولها اساسا إلى فئتين وفقا للطريقة المتبعة في تسجيل الخبرات البشرية وتصورنا للعالم المحيط بنا . فمن الممكن لنفس الظاهرة ، طبيعية كانت أو اجتماعية ان يلحظها شخصان احدهما مسلح بالخيال الخصب والقدرة على التصوير اللفظي وجمال الاسلوب والثراء اللغوي ... إلى آخر ذلك من مقومات القدرة على التأثير في القارىء ، والآخر مسلح بالقدرة على الملاحظة الدقيقة والقدرة على التحليل والربط والاستنتاج ، وربما كان مزودا ايضا ببعض ادوات الملاحظة والقياس المتطورة . فهل يمكن لكلا الشخصين تسجيل خبرتهما في ملاحظة هذه الظاهرة بنفس الطريقة ؟ والاجابة على هذا السؤال بالنفي طبعا حيث تتحكم الامكانات والمواقف والاتجاهات والاهتمامات في الناتج النهائي . وربما كان الناتج النهائي لخبرة الشخص الأول قصيدة شعرية او قصة قصيرة او رواية .. إلى اخر ذلك من اشكال الادب البحت او العمل الادبي الخيالي Fiction الذي يخاطب عواطف القراء قبل عقولهم ، في حين يمكن للناتج النهائي لخبرة الشخص الآخر ان يكون تقريرا علمياً يهتم بادق تفصيلات الظاهرة ويخاطب العقل في المقام الاول ، ويسمى بالادب الموضوعي Non-fiction حيث يدخل ضمن الانتاج الفكري لموضوع معين . وللموضوعي

هنا معنيان الاول متصل بالمنهج، بمعنى استبعاد جميع العوامل الشخصية او الذاتية في دراسة الظاهرة، والثاني متصل بالتخصص في مجال معين.

ولما كان موضوع المكتبة والبحث هو محور الاهتمام في هذا الكتاب فان اهتمامنا يتركز في الاساس على الفئة الثانية وهي الكتب التي تتناول الخبرات البشرية الموضوعية ونترك مادونها جانبا، بما في ذلك الفئة المتأرجحة بين النوعين وهي القصص العلمية او ادب الخيال العلمي،لانها بطبيعتها اقرب إلى الخيال منها الى الواقع الموضوعي.

هذا وتنقسم كتب المعالجة الموضوعية للخبرات البشرية بدورها إلى فئتين فرعيتين، كتب مرجعية واخرى غير مرجعية، كتب لا يمكن ان تقرأ من اولها إلى اخرها وانما يرجع اليها عند الحاجة وكتب يمكن قراءتها من اولها إلى آخرها لأغراض الدراسة او التثقيف الذاتي مثلا. ونهتم هنا بالكتب غير المرجعية، تاركين الحديث عن الكتب المرجعية.

من الممكن تقسيم الكتب غير المرجعية، إلى ست فئات هي الكتب الدراسية، والكتب التمهيدية، والكتب أحادية الموضوع، والتراجم والأعمال التجميعية والمطبوعات الرسمية.

الدوريات:

لن نشغل انفسنا كثيرا بالجدل الفقهي الدائر في اوساط المكتبيين حول تعريف الدوريات وحدود استعمال «دوري» وعلاقته بغيره من المصطلحات القريبة في المجال كالمسلسل والمجلة والصحيفة والنشرة... الخ. والمطبوع الدوري ببساطة هو المطبوع الذي يصدر بعنوان مميز، على فترات منتظمة، في اعداد أو اجزاء متتابعة يحكمها ترقيم مسلسل متصل، يشتمل كل منها على اسهامات لاكثر من فرد واحد، وقد قصد بهذا المطبوع الصدور إلى مالا نهاية، بمعنى اننا لايمكن أن نعرف مسبقا متى يتوقف عن الصدور وينضوي تحت مظلة هذا التعريف الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية ونصف الشهرية والفصلية والنصف سنوية والحوليات والكتب السنوية، على اختلاف مستوياتها وتنوع مجالات اهتمامها وعادة ما ترتبط المجلات في ذهن القارىء العام بالقراءة الخفيفة لاغراض التسلية وتزجية اوقات الفراغ، بينما ترتبط في ذهن الباحث المتخصص بالقراءة الجادة لاغراض الحصول على المعلومات،

والملاحقة المتجددة للاحاطة باحدث المعلومات في مجال تخصصه. وان دل هذا الاختلاف في نمط الاهتمام على شيء فانما يدل على تنوع الدوريات فبالاضافة إلى الصحف، بتركيزها على الجوانب الاخبارية الجارية، هناك المجلات العامة التي تخاطب قطاعات عريضة من القراء، ومجلات المرأة والاسرة، ومجلات الشباب، ومجلات الاطفال، وهذه كلها تجمعها التغطية الشاملة والمعالجة السطحية الخفيفة. وأخيرا نجد المجلات العلمية أو الاكاديمية المتخصصة. ويمكن القول بعبارة اخرى ان هناك فئتين اساسيتين من الدوريات، دوريات عامة ودوريات متخصصة.

وليس هذا في الواقع هو التقسيم الوحيد للدوريات، ولا يتسع المقام لاستعراض اسس التقسيم المختلفة، ويكفي القول بأن المكتبيين عادة ما يميلون لتقسيم الدوريات وفقا لجهات اصدارها إلى ثلاث فئات اساسية، الدوريات التي يصدرها الناشرون التجاريون والدوريات التي تصدرها الهيئات الاكاديمية ومراكز البحوث والاتحادات والجمعيات العلمية، والدوريات المحلية التي تصدرها الشركات. ولكل واحدة من هذه الفئات الثلاث سماتها المميزة، فالدوريات التي يصدرها الناشرون التجاريون، وعادة ما تسمى بالدوريات التجارية، لابد وان يكون تحقيق الربح المادي من بين أهدافها. ومن ثم فانها عادة ما تحرص على اتساع قاعدة من تخاطبهم من القراء. وتدخل ضمن هذه الفئة جميع الدوريات الخفيفة التي تقرأ لاغراض المتعة والتسلية، بالاضافة إلى قطاع كبير من الدوريات الجادة. كما تدخل الصحف ايضا من هذه الفئة. أما دوريات الهيئات العلمية فانها لاتهدف إلى تحقيق ربح مادي وانما خدمة اهداف البحث والاتصال العلمي في مجالها. وعادة ما توزع دوريات الاتحادات والجمعيات العلمية على اعضائها، كما يمكن لغير الاعضاء الحصول عليها بالاشتراك اما الدوريات المحلية والتي تشكل اصغر الفئات فهي الدوريات التي تصدرها الشركات لتلبية الاحتياجات الاعلامية للعاملين فيها أو لاغراض الترويج والدعاية او لبث الاخبار المحلية للشركة. ومن ثم فانها عادة ما تتفاوت تفاوتا ملحوظاً في محتواها، فبعضها لا يشتمل على ما هو أكثر من مجرد الاخبار الاجتماعية للعاملين بالشركة، بينما يشتمل البعض الآخر على المقالات العلمية الجادة ذات المستوى الرفيع والتي يمكن الافادة منها على اوسع نطاق.

وتشكل الدوريات العمود الفقري لمجموعات معظم المكتبات المتخصصة . هذا بالاضافة إلى ان محتويات معظم الكتب في العلوم والتكنولوجيا تعتمد اساساً على ما ينشر بالدوريات من معلومات . وتمثل الدوريات احد المنافذ الرئيسية لبث الافكار وتبادل الخبرات ونشر المعلومات الحديثة . وتتيح الدوريات بطبيعتها فرصة تتبع تطور الافكار ونموها ، وخاصة تلك الافكار التي تبلغ حدا من التخصص لا يمكن معه نشرها في شكل كتاب .

وعادة ما يقال أن رصيد المعلومات المتاح في اي مجال يتكون من المعلومات التي تضمها الكتب بالاضافة إلى ما تشتمل عليه مقالات الدوريات التي نشرت بعد تأليف أحدث كتاب في المجال . ولا غرابة اذا علمنا أن هناك الكثير من الموضوعات التي لم تنشر فيها معلومات في شكل كتاب على الاطلاق . وكثير من هذه الموضوعات من التخصصات الجديدة , من الممكن للدوريات بحكم طبيعتها ان تنهض بعدد من الوظائف الاضافية التي لا يمكن للكتاب النهوض بها ، فقد اتاح انتظام الدوريات وسرعة نشرها القدرة على الاضطلاع بوظيفة اجتماعية بالاضافة إلى وظائفها العلمية ، وتتمثل هذه الوظيفة الاجتماعية في دعم ادعاءات السبق العلمي ، لان قصب السبق في النشاط العلمي ، عادة ما يكون من نصيب من ينشر أولا لا من نصيب من يتوصل إلى الكشف قبل غيره . وقد ادى هذا إلى القول بأن اهمية الدوريات في تلبية احتياجات الباحثين إلى منافذ للنشر لا تقل بحال عن اهميتها في تلبية احتياجاتهم إلى المعلومات .

ومن أشكال المطبوعات الاخرى نذكر : تقارير البحوث ، والاطروحات ، وأعمال المؤتمرات (وثائق ما قبل انعقاد المؤتمر ، الوثائق التي توزع اثناء المؤتمر ، وثائق مابعد انعقاد المؤتمر) ، براءات الاختراع ، المعايير الموحدة .[١]

هذا وبالله التوفيق

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه الموضوعات يمكن الرجوع إلى كتاب المؤلف بعنوان «المكتبة والبحث» القاهرة ، مكتبة غريب ، ١٩٨٣ .

أشرف على إعداد الكتاب وإخراجه

محمد علي فضل سليمان

رئيس قسم الثقافة الجماهيرية



وزارة الإعلام والثقافة
الإدارة الثقافية

